

نولدس و مکی

# العالم الطریف

تأليف: نولدس و مکی



دار الکتاب المصری

# منتدى اقرأ الثقافي

[www.iqra.ahlamontada.com](http://www.iqra.ahlamontada.com)

مجاناً مع جريدة المدى



■  
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير  
فخري كريم

■  
فاكس ٧١٧٥٩٤٣  
هاتف ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣  
almadapaper.com  
almada119@hotmail.com  
almada112@yahoo.com

المدى



سلسلة شعبية تعيد إصدارها  
دار المعرفة للنقافة والنشر

الهيئة  
الاستشارية

المنجي بو سنية  
تركي الحمد  
جابر عصفور  
خالد محمد احمد  
خلدون النقيب  
سيد ياسين  
طلال سلمان  
علي الشوك  
فؤاد بلاط  
محمد الماغوط  
محمد برادة

رئيس مجلس الادارة والتحرير  
فخريا كويم

الاشراف الفني  
محمد سعيد الصغار

سورية - دمشق - ص.ب. ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦  
تلفون : ٢٢٢٢٢٧٥ - ٢٢٢٢٢٧٦ فاكس : ٢٢٢٢٢٨٩  
www.almadahouse.com E-mail: al-madahouse@net.sy  
ابنك - بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - المطابق الأول  
تلفاكس : ٧٥٢٦١٧ - ٧٥٢٦١٦  
E-mail: al-madahouse@ldm.net.lb  
العرف - بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٢ - جنا ١٤١  
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون  
تلفون : ٣٩٥ - ٧١٧ - ٥١٣ - ٧١٧ فاكس : ٧١٧٥٩٤٣  
almadapaper.com  
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

الكتاب الجديد



٢٨

أوليس هكسلي

# العالم الطريف

تعريب

محمود محمود

طبعة خاصة

توزع مجاناً مع جريدة (المدى)

دار المدى للثقافة والنشر

٢٠٠٦

الطبعة الاولى

١٩٤٧

أولدرس حكسای

# العالم الطريف

تخریب نمود نمود



دار الکاتب المصری

## مقدمة العرب

مؤلف هذه القصة ليونارد هكسلي Aldous Leonard Huxley ولد في إنجلترا عام ١٨٩٤ ، ولا يزال حتى اليوم على قيد الحياة لاييني عن الكتابة والتأليف ولا يفتر وقد بدأ حياته الأدبية ، شاعراً محتدياً في ذلك حذو أكثر الكتاب المعاصرين ونشر شعره أول الأمر في مجلة هويلز Wheels ثم جمعه في ديوان عنوانه «العجلة المحترقة» The Burning Wheel نشره عام ١٩١٦ . وفي هذه السنة عينها اشترك مع غيره من الأدباء في جمع ديوان «شعر أكسفورد» Oxford Poetry. وقد بقي شاعراً طوال حياته ، مخالفاً بذلك الكثيرين من أدباء عصره ، الذين انحرفوا من الشعر إلى النشر . وهو الآن شاعر ثائر على العالم الذي يقوم على الأسس العلمية ، كما أنه ثائر على ازدياد نفوذ العلم في الحياة . وهو في هذه القصة التي نقدمها إلى قراء العربية يتخيل أن الإنسان سوف يتناسل في المستقبل لا عن طريق الحب والتقاء الرجل بالمرأة ، ولكن عن طريق العلم ، وتكوين الأطفال بطريقة علمية داخل القوارير . وهكذا يصور لنا هكسلي العلم في صورة تشمنز منها النفوس وتقشعر الأبدان . ولعل هذا التطرف في الخيال هو الذي جذب إلى هكسلي كثيراً من القراء وهو حفيد توماس هنري هكسلي العالم الشهير الذي تلقى عليه العلم

هـ. ج. ولز ، وبين الحفيد وجده شبه كبير في الصورة والقسمات وينحدر هكسلي من ناحية أمه من أسرة توماس أرنولد ناظر مدرسة رجبى الشهير . ومن بين أقربائه من كان أستاذاً ، ومن كان عالماً ، أو شاعراً أو روائياً فلو تصورنا هذه المجموعة من الرجال الممتازين حول فراش مولده عام ١٨٩٤ أدركنا ما في دمانه من مواهب . وقد استطاع بقلمه وذكاؤه أن يرتفع إلى سماء الشهرة وهو رجل طويل القامة نحيل القوام ، حتى أن أطفال هامستد Hampstead

كانوا يتجمعون حوله في شبابه الباكر ويهزؤون به . غير أن طول قامته يخيّل للنّاظر إليه أنّه يعيش في عالم غير عالمنا ، وأنّه شامخ بعظمته . وما أبعد هذا عن الصواب . فإنّ هكسلي يتحدث إلى كلّ من يلقاه في سهولة وتواضع . وهو رجل شديد المرح لا يتصف بالتزمّت . وهو يستعمل في أحاديثه كثيراً من غريب اللفظ ، لا لأنّه يتكلّف في الحديث ، ولكن لأنّ الرجل غريب في تفكيره ، وهو بحاجة إلى هذه الألفاظ يعبر بها عما يختلج في نفسه . وهو مولع بلقاء الشواذ من الناس ، ومشاهدة الشاذ من المناظر ، لأنّ به ميلاً نحو الشذوذ

وقد قاسى كثيراً وهو في طفولته من ضعف بصره ، الذي كاد أن يفقده ويعيش ضريباً أعمى البصر . وقضى أياماً كثيرة وحده في غرفة مظلمة لا يستطيع القراءة ، ولا تقع عيناه على شيء ، فانقلب إلى دخيلة نفسه يفكر فيها ويتأمل ، وكان لهذه الفترة أثرها الكبير في كلّ ما كتب فيما بعد . وزال الخطر ، واسترد الكاتب بصره ، ولكنه لا يزال ضعيف النظر . وتعلم في أكسفورد . وفيها نشر بعض قصائده كما قدمت . وبعد ما أتمّ دراسته في الجامعة اشتغل بالصحافة ، ونشر عدة مقالات جمعها في كتابه « على الهامش » On the Margin ثم جمع بعضاً من قصصه في كتاب سماه « السجن » Limbo . وهو فاتحة عهد جديد في حياته الأدبية

وبعد « السجن » مارس كتابة الرواية الطويلة ، مستوحياً فيها الكاتب توماس بيكوك Thomas Peacock المعروف بسعة الاطلاع وبروح التهكم . وقد أخذ هكسلي عنه منهجه في الرواية . فلم يكن في يوم من الأيام روائياً بالمعنى الصحيح إنّما هو رجل واسع الاطلاع متهمك من الناس . وله قدرة عظيمة على القصة القصيرة ولكنه حينما يحاول القصة الطويلة يتخذ من خياله الروائي وسيلة لبث آرائه وهو كاتب متنوع المواهب متنوع الموضوعات . يقول عنه أخوه جوليان Ju-

lian إنّ الرجل الوحيد الذي يحمل معه دائرة المعارف البريطانية حينما يقوم برحلة طويلة أو يطوف حول العالم . ولكنه - برغم اطلاعه الواسع - لا يقتصر عند حد النظر ، بل يتعداه إلى العمل . يستمتع بالفكر كما يستمتع بالחס . فهو كثير الايمان في القراءة ، ولكنه رجل اجتماعي حي . وقل من الناس من يجمع مثله بين هاتين الصفتين

وفي مجموعة قصصه التي جمعها تحت عنوان « السجن » وفي روايته « الكروم الأصفر » Crome Yellow تتبيّن قدرته العظيمة على السخرية من المتكبرين والأدعياء . ورواياته مملوءة بالصور الإنسانية التي تتميز بالتهكم المرح ، وقد خص بسخريته أبناء الطبقة الراقية ، فأثار على نفسه سخطهم . ولكنه لم يعبأ بهم ولم



يكف عن الضحك منهم ، وفي روايته «الكروم الأصفر» يعلن تلك المشكلة الكبرى التي حاول أن يحلها في كل ما كتب . فقد جاءت في هذه الرواية العبارة الآتية ، «يدخل الرجل هذه الدنيا ومعه آراء مجهزة عن كل شيء ، وله فلسفة يحاول أن يخضع لها الحياة . في حين أنه كان من الواجب أن يحيا المرء أولاً ، ثم يحاول بعد ذلك أن يلائم بين فلسفته وبين الحياة كما عرفها . إن الحياة والحقائق والأشياء معقدة تعقيداً شديداً ، مع أن الآراء - مهما تعسرت - تخدعنا ببساطتها كل شيء ، غامض مضطرب في عالم الحياة . وكل شيء واضح في عالم الآراء . فهل من العجب بعد هذا أن يكون الرجل منا بانساً في حياته تمساً ؟»

ويتبين لنا من هذا أن هكسلي لا يحب أن يتشبث بالمبادئ والأصول وقواعد العلم ، وإنما يقيم وزناً كبيراً للمعارف العملية وتجارب الحياة . كان هكسلي من رجال الفكر ، وهو يفخر بذلك ، ولكنه - برغم هذا - كان قادراً ، بل ومتحمساً ، على أن يستفيد من الخبرة والتجربة

وصل إلى لندن بعدما أتم دراسته الجامعية ورأسه مغمم بالنظريات . ثم أحس بشيء من القلق ، ولم يطمئن إلى نظرياته كل الاطمئنان ، وأدرك أنها لاتعالج مشاكل الحياة الكبرى . فتمم الرأي بالخبرة ، والعلم بالتجربة . أدرك أن حجرة المعلم لها جمال البساطة ، ولكن بالأرض والسماء كنوزاً غنية من المعارف لاتخضع لأي نظام فلسفي ، ولا يحلم بها رجال الفكر . أدرك هكسلي بعد قدومه إلى لندن أن آراءه لاتقنعه كل الاقناع ، واشتغل بالصحافة ، ورأى عن كثب سلوك الرجال والنساء ، وكيف تسير الأمور ، فتعلم ألوف الأشياء التي لم يتطرق إليها منهج الجامعة . فجمع هكسلي بين الثقافة النظرية والخبرة العلمية

وهكسلي من أبناء الطبقة المتوسطة ، لا هو بالفني الذي يتوفر له الفراغ ، ولا بالمعدم الذي يشغل وقته كله بكسب القوت . وقد تأثر بهذا الوضع الاجتماعي في أدبه ، فسخر من أبناء الطبقة الرفيعة ، كما عبر عن تقززه واشحنزازه من الفقر المدقع ، وإن كان يعطف على الفقراء . وانتهى هكسلي إلى شيء من اليأس ، لا يرى نفعا في أي شيء

ثم ملّ النقد والسخرية ، وانصرف إلى التفكير في مستقبل العلم والعلماء فكتب من بين ما كتب روايته هذه التي أقدمها إلى قراء العربية «العالم الطريف»

Brave New World ، وفيها يعبر عن خوفه من سيطرة العلم على حياة الناس يصور في هذا الكتاب مدينة العلماء الفاضلة بكل ما فيها من مساوئ . وهو يرى أن العالم الجديد . عالم العقاقير والآلات . تنتفي منه العاطفة والشعر والجمال . في هذا العالم الجديد كل شيء آلي ، وكل شيء مرسوم ، أو محفوظ في قارورة . والصفة الإنسانية تكاد تنعدم . ولعل هكسلي من بين الكتاب الأحياء جميعاً الكاتب الوحيد

الذي يستطيع أن يصور نتائج العلم بجرأة ووضوح ، وهو في هذا الكتاب عالم وشاعر ، يرسم لنا صورة مذهشة يتقزز منها القارئ كما تقزز منها الكاتب .

في هذا الكتاب يشغل هكسلي أن العلم سوف يصل بنا إلى حد الاستغناء عن الزواج وتكوين الأجنة في القوارير بطريقة علمية بدلاً من تكوينها في الأرحام . والأطفال - بحكم تركيبهم الكيميائي - طبقات خمس : أ ، ب ، ج ، د ، هـ . وكل طبقة تُعد إعداداً خاصاً يلانم ، تكوينها الجسماني واستعدادها العقلي ، وعليها أن تؤدي في الحياة عملاً معيناً لا تغيّره ولا تحيد عنه . وبين أبناء الطبقة الواحدة تشابه كبير في الخلق والخلق ، حتى إن الفرد تكاد تنعدم شخصيته انعداماً باتاً . العالم الجديد ينكر الفردية والاختلاف الشخصي والتقليل من حال إلى حال . وشعاره الذي يطالعك به الكاتب في الفصل الأول من الكتاب هو « الجسماعة » ، والتشابه ، والاستقرار » . والعالم الجديد تهمة السعادة أكثر مما تهمة المعرفة . وهي سعادة آلية مخضبة لاتوجهها الميول الشخصية وإنما تُفرض على النفوس فرضاً

إذا أردت شيئاً في العالم الجديد فإنك لاتفكر فيه ولا تسعى إليه ، وإنما يكفيك أن تضغط على زر أو تدوير مقبضاً . كما يقول هكسلي . ليكون لك ما تريد . ولاشك أن هذه الحياة - رغم يسرها الشديد - تدعو إلى الملل ، كما تؤدي إلى إهمال الفنون الرفيعة ، والشعور الديني ، والروح العلمية الصحيحة التي تهتم باكتشاف أسرار الطبيعة أكثر مما تهتم بإسعاد الإنسان وراحته .

كل هذه الآراء يبثها هكسلي في قصة « العالم الطريف » . وهي ليست قصة بالمعنى المألوف ، فهي تنعدم فيها العقدة أو تكاد ، ولا تأبه بتحليل الشخصيات . وإنما هي قصة أساسها علمي ، تهتم بشرح الآراء وتحليل الأفكار ، وينقد الحضارة الإنسانية من أساسها ، وكثيراً ما يرسل الكاتب فيها نفسه على سجيته ، لايتقيد بترتيب معين أو منطق خاص . يدون الأفكار وفقاً لتواردتها في ذهنه ، فيجمع بين المتناقضات ، ويؤلف بين القريب والبعيد ، والعلوي والسفلي في أسطر قلانل . ويؤدي به هذا أحياناً إلى شيء من الغموض .

ونقدي لهذا الكتاب - بل ونقدي لأكثر ما كتب هكسلي - أنه سلبي ، أي أن الكاتب يسخر ويتقزز دون أن يقدم لنا شيئاً جديداً . فهو يهدم ولايبنى . إذا ذهب إلى السينما شاهد قصصاً يقشعر لها بدنه ، والجمهور المحتشد في دار السينما في عينيه قذر بليد في جسمه وغقله آراؤهم سخيفة ، وهم مخدوعون في أنفسهم أكبر خداع . وإن قرأ الكتب ألفها سخيفة ومملوءة بالآراء الوضيعة . وإن رحل إلى بلد جديد ألقى سكانه أغبياء بلهاء ، لا يختلفون عن أولئك الذين خلفهم وراءه في أرض الوطن . وإن بحث في السياسة وجدها فاسدة ، وفي الأخلاق ألفها دنسة ، وفي الروحية لم يجدها سوى مجرد « انتقال أفكار » telepathy ، وفي مملكة الحيوان رآها

تأكل وتتناسل وتتكاثر بغير فهم أو إدراك . وهكذا الأمر فيما يتعلق بالمدينة الفاضلة العلمية ، فهي ليست إلا خيال فنة من العلماء تمتلئ رؤوسهم بالتفكير المادي ، وتخلو قلوبهم من شلعة الروح

ولا يذكر لنا هكسلي في أكثر ما كتب ما مثله الأعلى الذي يرمي إليه . وهو يفعل ذلك إلى درجة ما في كتابه هذا «العالم الطريف» فهو ينادي بالعودة إلى البساطة القديمة ، وإلى الأمومة الصحيحة ، إلى الأطفال ترعاهم أمهاتهم ، وإلى الريف الذي لم يلوث بالعلم والمادة . ولم يتعرض هكسلي لبحث المثل العليا وإصلاح عيوب المجتمع بصورة جدية إلا في كتابه «الوسائل والغايات» الذي سبق لي أن نقلته إلى اللغة العربية ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر . في هذا الكتاب عرض ونقد وإصلاح لوسائل الحكم والإدارة الحديثة وللحروب ، وفكرة المساواة ، والتعليم والدين والمعتقدات والأخلاق ، وغير ذلك من الموضوعات التي تهتم جمهور القراء المثقفين

ويتعجب هكسلي لكمية الجهل في العالم ، ولضعف النظرة التركيبية عند المفكرين والباحثين . وهو يريد أن يعرف كل شيء ، ويعتقد أنه لا يستطيع أن يصل إلى قرار في شأن من شؤون الحياة إلا إن أدرك كل شيء . ولذا تراه لا يني عن الدرس والتحصيل . ويميل هكسلي إلى إخضاع المظاهر المختلفة إلى قاعدة واحدة شاملة ، وقد يستطيع في مستقبل العمر أن يقود العالم إلى الخير والسعادة وإني لأرجو أن أكون قد وفقت في تعريب هذا الكتاب ، وأتمنى أن ينتفع الناس بآراء الكاتب ونظرياته ، والله ولي التوفيق

**محمود محمود**

إن المدائن الفاضلة تبدو اليوم أدنى إلى التحقيق مما كنا نعتقد قديماً . حتى أنه ليؤلمنا الآن أن نواجه هذا السؤال ، كيف نستطيع أن نحول دون تحقيق هذه المدائن الفاضلة ؟ . إن المدائن الفاضلة ممكنة التحقيق ، والحياة تسير نحوها . وربما كنا في بداية عصر جديد ، عصر يحلم فيه المفكرون وأبناء الطبقة المثقفة بالوسائل التي يتجنبون بها المدائن الفاضلة ، والتي تعيد إليهم مجتمعاً لا يتسم بصفاتها ، مجتمعاً أقل «كمالاً» ولكنه أكثر حرية

**نقولا برديف**

## الفصل الأول

البناء منخفض متين ، رمادي اللون ، يتكون من أربعة وثلاثين طابقاً فحسب وقد كتبت على مدخله الرئيسي هذه العبارة « مركز لندن للتفريخ والتكيف » كما كتب على إحدى اللوحات شعار الحكومة العالمية وهو « الجماعة ، والتشابه ، والاستقرار »

وتواجه الحجرة الفسيحة في الطابق السفلي ناحية الشمال . وبرغم الصيف القانظ خلف الألواح الزجاجية ، وبرغم الحرارة الاستوائية داخل الحجرة نفسها كنت ترى شعاعاً من الضوء بارداً ، قوياً دقيقاً ، يتألق خلال النوافذ وكأنه يتجه في لهفة صوب إنسان أشبه ما يكون بالتمثال الخشبي المدثر باللباس ، أو صوب رجل عالم شحب لونه واقشعر بدنه . ولكنه لايسطع إلا على الزجاج والنيكل وخزف المعادن الذي لا يكاد يتميز بلون من الألوان . وكل ما بالمكان ينم عن مظاهر الشتاء . أما العمال فيرتدون ثياباً بيضاء ، ويغطون أيديهم بقفازات من المطاط لونها شاحب باهت . والضوء بارد لا حياة فيه وكأنه شبح من الأشباح . وهو لا يستمد مادة حيوية كثيفة من نوع ما إلا إن نظرت إليه خلال مواسير المناظير المكبرة ، فتراه يقع على الأنابيب الصقيلة كأنه الرُّيد ، طبقة تعلوها طبقة شديدة الخلاوة . ثم يرتد الضوء فوق منافذ العمل

وفتح المدير الباب قائلاً : هذه هي حجرة التلقيح

وعندما دخل الغرفة مدير التفريخ والتكيف كان بها ثلاثمئة ملقح ، منكبون على آلاتهم ومستغرقون في صمت تكاد تنقطع فيه الأنفاس ، ومنهمكون في عملهم أشد الانهماك ، عقولهم شاردة ، يناجون أنفسهم وهم يفنون أو يصفرون . وسارت في إثر المدير جماعة من الطلبة الذين وصلوا حديثاً ، وهم شباب أحداث من ذوي

البشرة الحمراء ، الملساء ، ترتعد فرائصهم بل ويحسون بالوضاعة . وكل ما يتفوه به الرجل العظيم . يأخذون عنه مباشرة ، وتلك ميزة نادرة . وكان مدير التفريخ والتكليف هذا لمنطقة مركز لندن يهتم أشد الاهتمام دائماً بمرافقة طلبته الجدد خلال الأقسام المختلفة .

« وذلك لكي يعطيهم فكرة عامة » كما يقول وهو يشرح لهم . إذ كان لابد لهم . بطبيعة الحال . من فكرة عامة من نوع ما ، إن كانوا يريدون أن يؤدوا عملهم بذكاء . ولتكن تلك الفكرة العامة يسيرة ما أمكن ذلك ، إن كانوا يريدون أن يكونوا في المجتمع أعضاء طبيين سعداء . لأن التفصيل . كما يعلم كل امرئ . يؤدي إلى الفضيلة والسعادة ، في حين أن التعميم شر عقلي لابد منه . فأساس المجتمع يتألف من النشارين وجامعي الطوايح ولا يتألف من الفلاسفة

ثم يقول المدير وهو يبتسم لهم بابتهاج لا يخلو من شيء من التهديد : غداً تستقرون في العمل الجدي . ولن يتسع لكم الوقت لدراسة النظريات . أما الآن

وكانت تلك فرصة طيبة لهم . يدونون في مذكراتهم رأساً من فم الرجل ويسرعون في الكتابة كأن بهم مسأ من جنون وتقدم المدير في الغرفة ، وهو رجل طويل نحيل ، غير أنه معتدل القامة ، له ذقن طويلة وأسنان كبيرة بارزة ، إذا كف عن الحديث أمكنه أن يغطيها بشفتيه الممتلئتين المقوستين في تورد . ومن العسير أن تقول إن كان شيخاً أو شاباً ، وإن كان في الثلاثين أو الخمسين أو الخامسة والخمسين . ولكنك على أي حال لاتشعر بضرورة التساؤل عن ذلك . في سنة الاستقرار هذه . عام ٦٣٢ف<sup>(١)</sup> لايطراً للمرء أن يسأل عن ذلك

قال المدير : « سأبدأ الموضوع من أوله » وسجل الطلبة المتحمسون هذه العبارة في مذكراتهم . ثم لوح بيده قائلاً : هذه هي الحاضنات « ثم فتح باباً معزولاً وأشار إلى رفوف يعلو بعضها بعضاً مملوءة بأنابيب الاختبار المرقومة ، ثم أخذ يشرح قائلاً : « هذه هي البويضات التي حصلنا عليها هذا الأسبوع ، حفظناها في درجة حرارة الدم » . ثم فتح باباً آخر وقال : « في حين أن جاميط<sup>(٢)</sup> الذكور لابد أن يحفظ في حرارة درجتها خمس وثلاثون بدلاً من سبع وثلاثين إن درجة حرارة الدم الكاملة تسبب العقم » إن الكباش إذا أحيطت بدرجة حرارة الجسم الإنساني لاتنسل الحملان

ولبت المدير متكتناً على الحاضنات ثم شرع يعطي للطلبة وصفاً موجزاً لطريقة

(١) « ف » رمز لفورد . وفورد هو الإله الأعظم في هذا العالم الجديد . والكلمة تحريف لكلمة « Lord » ومعناها « الرب » .

(٢) الجاميط في علم الحياة جسم بروتو بلازمي يختلط بأخر للتناسل .

التلقيح الحديثة ، وأقلامهم تنطلق على الصفحات بخط غير مقروء . وتحدث بطبيعة الحال أول الأمر عنها من الناحية الجراحية قائلاً : « إن العملية الجراحية تُجرى طوعاً لمصلحة الجماعة ، ولست بحاجة أن أذكر لكم أنها تأتي بمكافأة تبلغ راتب ستة شهور » . ثم واصل الحديث بشيء من التفصيل عن الطريقة الفنية لحفظ المبيض المستأصل حياً بحيث ينمو نمواً سريعاً . ثم انتقل إلى الكلام عن درجة الحرارة المثلى ، وعن الملوحة واللزوجة . ثم أشار إلى السائل الذي تحفظ فيه البويضات المنفصلة الناضجة . ثم سار بطلبته إلى مناضد العمل ، وأراهم فعلاً كيف يسحب هذا السائل من أنابيب الاختبار ، وكيف يسكب قطرة قطرة فوق الألواح الزجاجية للمناظير المكبرة ، تلك الألواح التي أذنت لذلك خصيصاً ، وكيف كان البيض الذي يحتويه السائل يفحص ويستبعد منه ما ليس طبيعياً ، ثم يعد وينقل إلى وعاء ذي مسام . وكيف يغمر هذا الوعاء في حساء دافئ يحتوي على حيوانات منوية تسبح بغير قيد وتتجمع . كما يؤكد المدير . بنسبة لاتقل عن مائة ألف في كل سنتيمتر مكعب (وهنا أخذ المدير الطلبة لمشاهدة العملية) ، وكيف يرفع الوعاء عن السائل بعد عشر دقائق ويعاد فحص محتوياته ، وكيف تغمس في السائل ثانية . بل وثالثة إذا لزم الأمر . كل بيضة بقيت بغير تلقيح ، وكيف تعاد البويضات الملقحة إلى الحاضنات ، حيث يبقى هناك المرقوم منها بالآلف أو الباء حتى توضع نهائياً في القوارير . أما المرقوم بالجيم أو الدال أو الهاء فتخرج ثانية بعد ست وثلاثين ساعة فقط لتجرى عليها عملية بوكانوفسكي

وكرر المدير عبارة « عملية بوكانوفسكي » ووضع الطلبة خطوطاً تحت هذه الكلمات في دفاترهم الصغيرة

إذا تطورت البيضة الواحدة إلى جنين واحد والجنين إلى مراهق كان ذلك أمراً طبيعياً . أما البيضة التي تجري عليها عملية بوكانوفسكي فإنها تتبرعم وتتكاثر وتنقسم . ويبلغ عدد البراعم التي تخرج من البيضة الواحدة من الثمانية إلى الستة والتسعين ، وكل برعم ينمو حتى يصبح جنيناً كامل التكوين ، وكل جنين يتطور إلى مراهق ذي حجم تام ، وبذلك ينمو ستة وتسعون كائناً بشرياً بدلاً من واحد فحسب كذي قبل أليس هذا تقدماً ؟

واختتم المدير هذا الحديث قائلاً إن طريقة بوكانوفسكي هي في أساسها عملية لإيقاف التطور . إننا نوقف النمو الطبيعي للبيضة ولكنها . من عجيب المتناقضات . تقابل ذلك بالتبرعم

وجرت أقلام الطلبة بهذه العبارة الأخيرة .

ثم أشار المدير إلى فرقة تتحرك ببطء شديد وتحمل رقاً مليئاً بأنابيب الاختبار التي تدخل صندوقاً معدياً كبيراً يخرج منه رف آخر ممتلئ . وقد صدر عن الآلات

صريير خافت وذكر المدير للطلبة أن الأنابيب تستغرق في هذه العملية ثمانية دقائق تتعرض خلالها لأشعة أكس الشديدة ، وهي أقصى ما تستطيع البيضة أن تحتمل . وبعض البيض يموت أما ما تبقى فإن أقله حساسية ينقسم قسمين . أما أكثره فينتج أربعة براعم ، وبعضه ينتج ثمانية . وكله يُرد إلى الحاضنات حيث تبدأ البراعم في النمو . وبعد يومين يبرد فجأة ويوقف نموه . والبراعم بدورها تتبرعم إلى اثنين فأربعة فثمانية . وبعدما تتبرعم تجزع الكحول حتى تكاد تموت ، وينجم عن ذلك أنها تتكاثر ثانية ، وبعد ما تتبرعم - برعم من برعم - برعم (لأن إيقاف التبرعم بعد ذلك مميت عادة) . تترك لكي تنمو في هدوء . وعندئذ تسيير البيضة الأولى شوطاً كبيراً في طريق التكاثر إلى أي عدد بين الثمانية أجنة والستة والتسعين جنيناً . وأنتم لاشك توافقوني على أن ذلك تحسین هائل في الطبيعة . إننا نحصل على توائم متشابهة ، ولكنها ليست توأمين أو ثلاثة فحسب كما كان يحدث في أيام التوالد السالفة حينما كانت البيضة تنقسم أحياناً بطريق المصادفة . إنما هي توائم تعد بالعشرات في وقت واحد

ثم كرر المدير كلمة « العشرات » ملوحاً بذراعيه كأنه يوزع الهبات غير أن أحد الطلبة بلغ به الحرق أن يسأل عن الفائدة من ذلك فرد عليه المدير بحدة قائلاً : « أي بني العزيز ! ألسنت ترى ؟ أفلا ترى ؟ » ورفع إحدى يديه ، وكان رزيناً في تعبيره . ثم قال : « إن طريقة بوكانوفسكي إحدى الوسائل العظمى للاستقرار الاجتماعي ! »

وسجل الطلبة هذه العبارة « الوسائل العظمى للاستقرار الاجتماعي » . بذلك يصبح الرجال والنساء على غرار واحد ويكونون مجموعات متشابهة ، فيمكن للمصنع الصغير أن يقوم بأسره على رجال من إنتاج بيضة واحدة أجريت عليها عملية بوكانوفسكي

وقد ارتجف صوت الرجل من شدة الحماسة وهو يقول : « ستة وتسعون توأمًا متشابهًا يديرون ستاً وتسعين آلة متشابهة ! » ثم أردف قائلاً : « إنكم لاشك تعلمون أين أنتم ، وذلك لأول مرة في التاريخ » . وردّد شعار الكوكب الذي يقطنه وهو : « الجماعة والتشابه والاستقرار » . ما أعظم هذه الكلمات . ثم قال : لو استطعنا أن نتوسع في طريقة بوكانوفسكي إلى ما لا نهاية لانحلت المشكلة بأسرها

فيكون عندنا بيض متشابه من النوع (ج) . وبيض لا يختلف من النوع (د) ، وبيض موحد من النوع (هـ) . ويتوفر لنا الملايين من التوائم المتشابهة . وهكذا ينطبق مبدأ الانتاج الكبير في النهاية على الأحياء

ثم هز المدير رأسه قائلاً : ولكننا للأسف لانستطيع أن نسير في طريقة بوكانوفسكي إلى ما لا نهاية .

والظاهر أن ستة وتسعين هي الحد الأقصى ، وأن اثنين وسبعين متوسط لا بأس به . إنهم يصنعون من المبيض الواحد ومن جاميط الذكر الواحد أكبر عدد ممكن من مجموعات التوائم المتشابهة . وهذا خير ما يستطيعون . وإن يكن لسوء الحظ أقل مما نبغي . ولكنه مع ذلك شاق عسير

. لأن المنتي بيضة تستغرق بطبيعتها ثلاثين عاماً كي تبلغ حد النضوج . ولكن من واجبنا أن نقز السكان توالاً وبغير توان . وماذا يعود علينا لو أخذنا نخرج التوائم خلال ربع قرن ؟

لا فائدة البتة من ذلك ولاشك . ولكن طريقة بدسنا ب الفنية ساعدت إلى حد كبير على الإسراع في عملية النضوج . فهم واثقون من نضوج مئة وخمسين بيضة على الأقل في خلال عامين . إنك إذا لقحت البيض ثم أجريت عليه طريقة بوكانوفسكي . أو بعبارة أخرى إذا ضاعفته اثنين وسبعين مثلاً . حصلت في المتوسط على ما يقرب من أحد عشر ألفاً من الأخوة والأخوات في مئة وخمسين مجموعة من التوائم المتشابهة ، وذلك في خلال عامين من العمر الواحد

. ونستطيع في الحالات الشاذة أن نجعل المبيض الواحد ينتج مايزيد عن خمسة عشر ألفاً من الأفراد البالغين

ثم أشار إلى شاب أشقر الشعر متورد اللون كان يسير إلى جوارهم مصادفة في تلك اللحظة ، وناداه : « يا مستر فستر » فاقترب منه الشاب المتورد ، وسأله المدير : هل تستطيع أن تخبرنا عن أكبر عدد ينتجه مبيض واحد يا مستر فستر ؟

فأجاب مستر فستر بغير تردد : « ستة عشر ألفاً واثنتا عشرة في هذا

المركز » . وكان يتحدث على عجل شديد ، وهو رجل له عينان زرقاوان تفيضان بالحياة ، ويتهجج ابتهاجاً ملحوظاً وهو يدللي بالأرقام . قال : « ستة عشر ألفاً

واثنتا عشرة في مئة وتسع وثمانين مجموعة من المتشابهات » . ثم جلجل بصوته

قائلاً : « ولكنهم بالطبع بزونا في بعض المراكز الاستوائية . فسنا فورة كثيراً ما

أنتجت ما ينيف على الستة عشر ألفاً والخمسمائة ، وقد بلغت مهباساً فعلاً سبعة

عشر ألفاً . ولكنهم في أمثال هذه المراكز يتمتعون بمزايا لاتقوم على أساس من

العدل . أنظر إلى الطريقة التي يستجيب بها المبيض الزنجي للمخاط ! إنها لتدهشك

أشد الدهش إذا كنت ممن يالفون العمل بالمواد الأوربية . ثم ضحك وعلت عيناه

ببريق المعارضة ورفع ذقنه متحدياً وقال : ومع ذلك فقد اعتزمنا أن نتفوق عليهم إن

استطعنا . إنني في هذه اللحظة أعمل بمبيض عجيب من نوع (د) أتم ثمانية عشر

شهراً من العمر من عهد قريب جداً . عندنا الآن أكثر من اثني عشر ألفاً وسبعمائة



طفل ، بعضهم لا يزال جينياً وبعضهم خرج إلى الحياة . وهم جميعاً أصحاء . إننا لابد متغلبون في النهاية .

فصاح المدير قائلاً : « هذه هي الروح التي أعجب بها » وضرب المستر فستر ضربة خفيفة على كتفه ، ثم قال : تعال معنا واشرح لهؤلاء الشبان خلاصة خبرتك .

وابتسم المستر فستر متواضعاً وقال : « بكل سرور » . ثم انطلقوا وكنت تسمع في حجرة القوارير أصواتاً مؤلفة وتري نشاطاً منظماً . وكانت ترتفع إلى الأرض في مصاعد صغيرة قطع طازجة من بريتون الخنازير قطعت على الأحجام الملائمة ، وأخرجت من مخزن الأعضاء في الطابق السفلي . وكنت تسمع صغيراً ثم مقطعة ، وذلك عندما تنفتح أبواب المصاعد . وليس على مبطن القوارير إلا أن يمد يده ويتناول قطعة من البريتون ، ثم يدخلها في القارورة في يسر شديد وقبل أن يتم ضم القارورة إلى ذلك الصف من القوارير الذي لا تجد نهايته ، تسمع الصغير والطقطعة عندما تندفع قطعة أخرى من البريتون من الأعماق وقد أعدت للانزلاق في قارورة أخرى ، كي تنضم إلى تلك المجموعة التي تتزايد شيئاً فشيئاً حتى لا يكاد يحصى عددها

ويقف الفاحصون إلى جانب المبطنين . وتتقدم مجموعة القوارير ، وينقل البيض واحدة بعد الأخرى من أنابيب الاختبار إلى الأوعية الكبيرة . ثم تفصل البطانة البريتونية بمهارة فائقة ، وتوضع العلكة في مكانها ، ويصب محللول الملح . وهكذا تمر القارورة ، ويأتي دور واضعي البطاقات ، الذين ينقلون من أنبوبة الاختبار إلى القارورة نوع الوراثة وتاريخ التلقيح وعضوية مجموعة بوكانوفسكي وأمثال هذه التفاصيل . ويسير موكب القوارير بعد ذلك سيراً بطيئاً ، ولم تعد مجهولة الاسم بل لقد بات كل منها مسمى معروفاً . ثم تدخل في نافذة في الحائط حتى تصل بسيرها البطيء إلى حجرة « القضاء والقدر الاجتماعي »

وبينما كان الطلبة يلجون الغرفة قال لهم المستر فستر وهو في غبطة شديدة : هنا ثمانية وثمانون متراً مكعباً من الفهارس

وعقب على ذلك المدير قائلاً : وهي تحوي كل المعارف المتصلة بالموضوع

- ويضم إليها المعارف الجديدة كل صباح

- ويضم بعضها إلى بعض لتنسيق المعرفة كل مساء

- وعلى أساسها تقدر الأعداد

وقال المستر فستر : فنعرف كم فرد من هذا النوع أو ذاك

- وتوزع على أقدار مختلفة

- ونعرف أحسن نسبة للتحويل من وعاء إلى وعاء في كل لحظة من اللحظات .

- ونستفيد في الحال من الكميات الفاسدة التي لم تكن نتوقعها

وكرر هذه العبارة المستر فستر قائلاً : « تستفيد في الحال إذا عرفت كم من الوقت الزائد أدخلت في حسابي بعد زلزال اليابان الأخير! » ثم ضحك متفكهاً وهز رأسه .  
- ثم يرسل « رجال القضاء والقدر » أرقامهم للملقحين .

- وهؤلاء يقدمون لهم الأجنة التي يطلبون .  
- ثم تأتي القوارير إلى هذا المكان كي يكتب لها قضاؤها وقدرها بالتفصيل .  
- ثم ترسل بعد ذلك إلى مخزن الأجنة .  
- إلى حيث نحن الآن ذاهبون .

وفتح المستر فستر باباً وقادهم إلى سلم هبطوا منه إلى الطابق السفلي ومازالت الحرارة هناك استوائية . وهبطوا جميعاً إلى مكان جوه أشبه ما يكون بالشقق الكيف . وكان هناك بابان وممر يلتوي مرتين كي يكفلا للمخزن بعده عن إمكان تسرب ضوء النهار

ودفع المستر فستر الباب الثاني وقال في فكاهة ومجون : الأجنة كالأفلام الفوتوغرافية ، لا تحتل غير الضوء الأحمر

والواقع أن الظلام والحرارة والرطوبة التي ولجها الطلبة في إثره كانت ملحوظة . وكان الجو قرمزي اللون . وما أشبه هذا الظلام بما ترى العين المغمضة في يوم قانظ بعد الظهيرة . والأجنحة البارزة من صفوف القوارير المتعاقبة ، والطبقات المتراسة من هذه القوارير ، كانت كلها تتألق بالياقوت الذي لا يعد . وبين الياقوت والياقوتة تتحرك أطياف معتمة حمراء من الرجال والنساء من ذوي العيون الأرجوانية اللون ، وعليهم جميعاً أعراض مرض السل الجلد .

وكان طنين الآلات وذوئها يهز الهواء هزاً خفيفاً

وقال المدير وقد نهكته كثرة الكلام : أعطهم بعض الأرقام يا مستر فستر واغبط المستر فستر بعض الاغتباط وهو يدلي لهم بقليل من الأرقام قال إن المكان يبلغ منتين وعشرين متراً طولاً ، ومنتين عرضاً ، وعشرة ارتفاعاً . وأشار إلى أعلى . ورفع الطلبة أعينهم صوب السقف النائي كما تفعل الفراخ وهي تحتسي الماء

وكان بالمكان ثلاث طبقات من الرفوف ، إحداها في مستوى الأرض ، يملوها رواق ثان فثالث

وهذه الأروقة المتراسة مصنوعة من الصلب وشبيهة بنسج العنكبوت وهي تتلاشى خلال الظلام من جميع النواحي . وبالقرب منهم ثلاثة أشباح حمراء ، منهمكون في إنزال القوارير من درج متنقل .

وذلك هو السلم المتنقل الذي يخرج من حجرة القضاء والقدر وتوضع كل قارورة على واحد من الرفوف الخمسة عشر . وكل رف حامل

ينتقل بسرعة ثلاثة وثلاثين وثلث سنتيمتر في الساعة . ولكن المشاهد لا يلاحظ هذه الحركة . ويسير منتين وسبعة وستين يوماً بسرعة ثمانية أمتار كل يوم ، فيكون المجموع ألفين ومائة وستة وثلاثين متراً . وتلك دورة واحدة حول المخزن في مستوى الأرض ، ودورة في الرواق الأول ، ونصف دورة في الرواق الثاني . وفي صباح اليوم السابع والستين بعد المنتين يتسرب ضوء النهار إلى حجرة التفريغ . وذلك ما يسمونه الوجود المستقل .

واختتم المستر فستر حديثه قائلاً : « وقد استطعنا خلال هذه الفترة أن نفرغ من الكثير منها » . وضحك ضحكة العارف الظافر وقال المدير ثانية : هذه هي الروح التي أعجب بها . دعنا الآن نتابع سيرنا خبرهم بكل شيء يا مستر فستر

وقد خبرهم مستر فستر في التّو عن الجنين الذي ينمو على بريتونه المفروش وأذاقهم المادة الدسمة التي يتغذى بها عوضاً عن الدم ، وشرح لهم لماذا كان من الضروري أن تنبئه بنبات المشيمة وبإفراز الغدة الدرقية . ثم حدثهم عن عصارة بعض خلايا المبيض . ثم أطلعهم على المنافذ التي يحقن منها بطريق آلية عند كل جزء من اثني عشر من المتر وذلك من الصفر إلى ٢٠٤٠ . وتكلم بعدئذ عن الجرعات المخاطية التي تزداد باطراد والتي تعطى في الستة والتسعين متراً الأخيرة من سيرها . ووصف الدورة الدموية الصناعية التي تتسم بها كل قارورة بعد ١١٢ متراً وأطلعهم على خزان المادة التي يستعاض بها عن الدم ، وعلى المضخة الطاردة التي تحرك السائل دائماً فوق المشيمة ثم تطرده خلال الرنة الصناعية ومرشّح الفضلات . وأشار إلى استعداد الجنين للأنييميا وما يترتب عليه من مشقة ، وإلى الجرعات الضخمة من خلاصة معدات الخنازير وكبد جنين الفرس الذي يتحتم أن نمده به تبعاً لذلك .

ثم أطلعهم على الآلات البسيطة التي تستخدم في المترين الأخيرين من كل ثمانية أمتار لهز الأجنة كلها في وقت واحد حتى تألف الحركة . وأشار إلى خطورة ما يعرف « بدوخة التفريغ » ، وعدد الاحتياطات التي تتخذ لتخفيف أثر هذه الصدمة الخطرة إلى الحد الأدنى وذلك بتدريب الجنين المحفوظ في القارورة تدريباً ملائماً ، وحدثهم عن الاختبارات الجنسية التي يقومون بها بعد مائتي متر من الدورة وشرح طريقة وضع البطاقات ، وهي حرف (ت) للذكور ودائرة للإناث ، وعلامة استفهام سوداء على صفحة بيضاء للخنثى

وقال المستر فستر : « لأن التلقيح ليس في أكثر الأحوال . بطبيعة الحال . إلا مضايقة . إن مبيضاً واحداً من كل ١٢٠٠ يكفي لتحقيق أغراضنا تماماً . ولكن لا بد لنا من حسن الاختيار . وبالطبع لا بد أن نحسب حساباً كبيراً لسلامة المبيض . ولذا

فنحن نسمح لثلاثين في المائة من أنثى الأجنة أن تنمو نمواً عادياً . أما البقية فتعطى جرعة من هرمونات الذكور كل ٢٤ متراً من بقية الشوط . والنتيجة أنها تفرغ خناًثاً . وتركيبها طبيعي جداً (واعترف أنها تشد فقط في أن لديها ميلاً طفيفاً جداً لإرسال اللحي) ولكنها عاقر ، وعمقها مضمون . وواصل المستر فستر حديثه قائلاً ، وهذا يؤدي بنا في النهاية إلى الخروج من دائرة تقليد الطبيعة تقليداً أعمى إلى عالم الاختراع الإنساني وهو أشد تشويقاً للنفس وفرك يديه ، لأنهم بالطبع لم يقنعوا بمجرد تفريخ الأجنة ، فأية بقرة تستطيع ذلك

ثم قال : « ونحن كذلك نكتب القدر ونتحكم في الظروف . إننا نفرغ صفارنا كائنات بشرية اجتماعية ، من نوع (أ) أو (هـ) ، ونقدر لهم أن يكونوا في المستقبل من العمال الذين يزيلون أقدار المصارف أو من . « وأوشك أن يقول : « منظمي العالم » ولكنه صحح نفسه وقال بدلاً من ذلك : مديري مراكز التفريخ وقابل المدير هذا الفناء بابتسامة

وكانوا يمرون عند نقطة ٣٢٠ متراً في الرف الحادي عشر حينما شاهدوا عاملاً ميكانيكياً شاباً من نوع (ب) يعمل بمفك ومقياس في مضخة المادة التي تحل محل الدم والخاصة بضرورة كانت تمر به . وكان دوي المحرك الكهربائي يشتد نغمه بدرجات طفيفة وهو يذير الأرزار . ثم هبطت القارورة إلى أسفل وأدار العامل المفك دورة نهائية ورمق بعينه المنضدة الدائرة وانتهى بعد ذلك من عمله . وتحرك بعدئذ خطوتين إلى أسفل وبدأ العملية نفسها في المضخة التالية .

وأخذ المستر فستر يشرح لهم قائلاً : إذا أنقصنا عدد الدورات في الدقيقة الواحدة تقل سرعة دوران المادة التي تشبه الدم ، فتمر خلال الرنة في فترات أكثر تباعداً ، ويقل مقدار ما يأخذه الجنين من الأوكسجين وليس هناك ما يجعل الجنين أقل من المستوى المطلوب أكثر من نقص الأوكسجين » . ثم فرك يديه

فتصدى للسؤال طالب نابغ قائلاً : ولكن لماذا تريدون أن تبقوا الجنين أخط من المستوى المطلوب ؟

وبعد صمت طويل قال المدير : ألم يطرأ لك يا حمار أن الجنين من النوع (هـ) لابد أن يعيش في وسط (هـ) وأن ينسل أجنة من النوع نفسه ؟

ومن الجلي أن هذه الفكرة لم ترد على خاطر الطالب ، فارتبك واضطرب . وقال المستر فستر : « كلما انحط النوع قل الأوكسجين » وأول ما يتأثر من الأعضاء المخ ويليها الهيكل العظمي . وإذا كان الأوكسجين سبعين في المائة من المقدار المعتاد تكونت الأقزام . أما إذا قل الأوكسجين سبعين في المائة من المقدار المعتاد تكونت الأقزام . أما إذا قل الأوكسجين عن سبعين كانت المخلوقات عجيبة

بغير عيون

واتبع المستر فستر ذلك قائلاً : وهي لا تجدي البتة

ثم تحدث بصوت ينم عن الشقة والاهتمام قائلاً إنهم لو اكتشفوا طريقة فنية يقصرون بها الفترة التي يكتمل فيها النمو كان ذلك انتصاراً كبيراً وفائدة عظيمة للمجتمع

- فكروا في الحصان

ففكر فيه الطلبة

إن نموه يكتمل في السادسة ، ويكتمل نمو الفيل في العاشرة . في حين أن الإنسان لا ينضج جنسياً في الثالثة عشرة . ولا يتم نموه إلا في العشرين ومن ثم - بطبيعة الحال - يتأخر نضوج ثمرة كمال التطور . وأقصد الذكاء البشري وقال المستر فستر ، وهو جد محق فيما قال : ولكننا في النوع (هـ) لانحتاج إلى الذكاء البشري .

إنهم لم يحتاجوا الذكاء ولم يحصلوا عليه . ولكن برغم أن العقل (هـ) كان تام النضوج في العاشرة ، فإن الجسم (هـ) لم يكن ملائماً للعمل حتى الثامنة عشرة وبذا تنقضي سنوات عدة في حالة عدم النضج ، وهي سنوات فائضة عن الحاجة مضاعة . فلو استطعنا أن نسرع في التطور الجثماني حتى يصبح في سرعة نمو البقر وفرنا على المجتمع الشيء الكثير

فتمتم الطلبة قائلين : « الشيء الكثير » وذلك لأن حماسة المستر فستر انتقلت إليهم عدواها

ثم أصبح كلامه بعد ذلك فنياً جداً . تحدث عن توحيد الافراز الداخلي الشاذ الذي يعمل على ببطء نمو الإنسان . وسلم بأن ذلك يرجع إلى تغير النطفة . فهل يمكن تخاشي آثار هذا التغير النطفي ؟ هل يمكن أن يعاد الجنين من النوع (هـ) بطريقة فنية خاصة إلى حالة الكلاب والأبقار العادية . تلك هي المشكلة التي يعسر حلها

لقد استطاع بلكنجت في ممباسا أن ينتج أفراداً ينضجون جنسياً في الرابعة ويتم نمومهم في السادسة والنصف . وهذا انتصار علمي ، ولكنه لا يجدي من الناحية الاجتماعية . فالرجال والنساء في سن السادسة أغبي من أن يؤدوا عملاً حتى من النوع (هـ) . والعملية إما أن تتم كلها ، وإما لا يكون من ورائها نفع . فإما أنك تفشل في إدخال أي تعديل ، وإما أن تدخل التعديل كله . وهم لا يزالون يحاولون إيجاد الحالة المتوسطة المثالية بين البالغين في سن العشرين والبالغين في سن السادسة . ولم ينجحوا حتى الآن . ثم تنهد المستر فستر وهز رأسه

وواصلوا تجوالهم خلال الشفق القرمزي حتى بلغوا قرابة ١٧٠ متراً على الرف التاسع . ومن هذه النقطة وما بعدها كان الرف التاسع محوطاً بسور ، والقوارير التي

تكونت منها بقية الرحلة كانت مصففة في نوع من أنواع النفق تتخلله هنا وهناك فتحات يبلغ اتساع الواحدة منها مترين أو ثلاثة .  
وقال المستر فستر : هنا تكييف الحرارة .

وكانت النفق الحارة تتعاقب مع النفق الباردة . وكانت البرودة تقترن بشيء من عدم الارتياح على صورة أشعة أكس القوية . ولما يحين وقت التفرغ تشمر الأجنحة بفزع من البرد شديد . وقد قرر لها أن تهاجر إلى المناطق الحارة كي يكونوا عمالاً في المناجم وغزالين للحريير الحمضي وصناعاً في الحديد الصلب . وترغم عقولهم فيها بعد على الاتفاق مع ما قدر لجسومهم . واختتم المستر فستر حديثه قائلاً : «إننا نكيفهم على النجاح في الحرارة . وزملائونا في الطابق العلوي يدربونهم على حبها

وأضاف المدير على ذلك في إيجاز قوله : « وهذا هو سر السعادة والفضيلة . أن تحب ما ينبغي لك أن تعمله . إن عملية التكييف كلها ترمي إلى أن تجعل الناس يحبون مصيرهم الاجتماعي الذي لا مفر منه  
وفي فجوة بين نفقين كانت إحدى المربيات تسبر برفق غور المحتويات الهلامية بداخل قارورة مارة بمحقة طويل دقيق . ووقف الطلبة ومرشدوهم يراقبونها بضع لحظات وهم صامتون .

وبعدما سحبت المحقة أخيراً واستقامت قال المستر فستر : « أجل يا ليتنا !  
فالتفت الفتاة في فزع ، ويستطيع الرائي أن يلحظ عليها جمالاً غير عادي برغم مرضها بالسل الجلدي وبرغم عينيها الأرجوانيتين  
وصاحت : « هنري ! » وأشرقت عليه بابتسامة رقيقة ، وأبانت عن صف من الأسنان المرجانية .

فتمتم المدير قائلاً : « يا للفتنة ! » وربت عليها مرتين أو ثلاثاً ، ظفر في مقابلها بابتسامة تقدير خسته بها

وسألها مستر فستر في نغمة الرجل ذي المهنة الرفيعة : « ماذا تعطينهم ؟  
ف قالت : « مرض التيفود والنوم المألوف

وتصدى المستر فستر لشرح ذلك للطلبة فقال : « إن تطعيم عمال المناطق الحارة يبدأ عند المتر ١٥٠ . هنا تكون الأجنة بالخياشيم . إننا نكسب السمكة المناعة ضد أمراض الإنسان في المستقبل . » ثم التفت إلى ليتنا وقال : « في الخامسة إلا عشر . فوق السطح بعد ظهر اليوم كالمعتاد

وقال المدير ثانية : « إنها لفاتنة ! » وضربها للمرة الأخيرة ضربة خفيفة ثم انصرف في إثر الآخرين

وفوق الرف العاشر شهدوا صفوفاً من العمال الكيميائيين للجيل المقبل يدربون

على احتمال الرصاص والصودا الكاوية والقار وغاز الكلور . وكان يمر آنئذ عند علامة المتر ١١٠٠ على الرف الثالث الجنين الأول من مجموعة عددها مائتان وخمسون من مهندسي الطائرات الصاروخية ، وقد استخدمت آلات خاصة كي تبقى أوعيتهم دائرة بغير انقطاع . وشرح المستر فستر ذلك قائلاً : « هذا لتحسين إحساسهم بالتوازن . لأن إصلاح الطائرة الصاروخية من الخارج وسط الهواء عمل دقيق . إننا نبطئ الدورة عندما يرتفعون ، حتى يكادوا يموتون جوعاً ، ونضاعف تدفق دمائهم وهم منقلبون . إنهم يتعلمون أن يجمعوا بين الانقلاب وطيب الحياة . بل إنهم لا يكونون حقاً سعداء إلا وهم واقفون على رؤوسهم .

وواصل مستر فستر الحديث قائلاً : « والآن أحب أن أطلعكم على تكييف مشوق جداً للأذكاء من درجة (+) . عندنا طائفة كبيرة منهم على الرف الخامس في مستوى الرواق الأول » . ثم نادى ولدين وقد شرعا يبهطان إلى الطابق الأرضي قال : « إنهما عند المتر ٩٠٠ تقريباً . إنك لاتستطيع أن تقوم بعملية تكييف مجدية لأصحاب الفكر حتى يفقد الجنين ذيله . اتبعوني

ولكن المدير نظر إلى ساعته وقال : « إنها الثالثة إلا عشر . وإنني لأخشى ألا يتوفر لنا الوقت لنشاهد الأجنة المفكرة يجب أن نصعد إلى غرف الأطفال قبل أن ينهضوا من نومهم بعد الظهر

فشعر المستر فستر بشيء من الضيق وتوسل إليهم أن يلقوا على الأقل نظرة واحدة على حجرة التفريغ .

فابتسم المدير متلطفاً وقال : « ليكن ذلك . ولتكن نظرة واحدة

## الفصل الثاني

بقي المستر فستر وحده في حجرة التفرغ . وولج المدير وتلاميذه أقرب مصعد ، وحملهم المصعد إلى الطابق الخامس فإذا بلوحة عليها هذا الإعلان « حجرات صفار الأطفال - غرف التكييف على طريقة بافلوف الحديثة » .

وفتح المدير أحد الأبواب ، فإذا بهم في غرفة كبيرة جرداء ، شديدة الضوء مشمسة ، وذلك لأن الحائط الجنوبي بأسره كان نافذة واحدة . وبالحجرة ست مربيات ، يلبسن الزي الموحد المعهود وهو يتألف من سروال وسترة من تيل أبيض لزج . وشعورهن مخفية تحت غطاء للرأس أبيض اللون مما يساعد على تطهيرهن وكن يشغلن بصف أنيات الورد في خط طويل يقطع أرض الغرفة من جانب إلى آخر . والأواني كبيرة تمتلئ إلى قممها بالزهر . فكنت ترى ألوف الأوراق منتفخة مزدهرة ، ناعمة كالحرير ، كأنها خدود ولدان مخلدين لا يحصرهم العد . وتلك الحدود في ذلك الضوء اللامع لم تكن وردية آرية فحسب ، بل إن منها ما هو صيني براق ، ومكسيكي لحاسي ، أو به صرع من كثرة النفخ في أبواق السماء ، أو شاحب كالمتى ، وشحوبه مختلط ببياض المرمر الأصيل واعتدت المربيات منصتات عندما دخل المدير

وقال لهن في جفاء واقتضاب : أنشرن الكتب فصدت المربيات بأمره صامتات . ونشرت الكتب في الحال بين أواني الزهر ، وانفتحت صحف صغيرة من صحائف الأطفال في صف واحد وكأنها تدعو المشاهدين إلى النظر فيها ، تظهر في كل منها صورة زاهية الألوان لوحش أو سمكة أو طائر . والآن أدخلن الأطفال

فأسرعن خارج الحجرة وعدن بعد دقيقة أو دقيقتين ، كل منهن تدفع قائمة



خشبية ذات أربعة رفوف لها شبكات سلكية ، محملة بثمانية أطفال ، عمر الواحد منهم ثمانية أشهر ، وكلهم متشابهون أشد التشابه (ومن الجلي أنهم كانوا مجموعة من طراز بوكانوفسكي) وكلهم يرتدون الكاكي (لأنهم من النوع «د»)

. ضعوهم على الأرض

فأنزلت المربيات الأطفال .

. والآن أديروهم حتى يستطيعوا رؤية الزهور والكتب

فالتفت الأطفال ، وصمتوا في الحال ، ثم بدؤوا يزحفون نحو تلك المجموعات ذات الألوان الملساء ، ونحو تلك الرسوم المرححة البراقة فوق الصفحات البيض وبرزت الشمس من كسوف وقتي خلف السحاب والأطفال يقتربون . واشتعلت الورود كأن عاطفة فجائية تحركت في داخلها . وكان صفحات الكتب البراقة اكتسبت أهمية جديدة كبرى . وصدرت من صفوف الأطفال الزاحفين صرخات ضعيفة من أثر الذهول ، وقهقهة ومناغاة من أثر السرور

وفرك المدير يديه وقال : حسناً ، لكأن هذا حدث عن عمد

وبلغ الأطفال المسرعون في زحفهم أهدافهم . وامتدت أيد صغيرة في غير ثبات تلمس الورود التي تغير شكلها ، وتقبض عليها وتجردها من أوراقها ، كما غضت الصفحات المضينة . ولبت المدير حتى كانوا جميعاً في شغل مرحين . ثم قال «أرقبوا بعناية» . ثم رفع يده وأعطى إشارة

وكانت رئيسة المربيات واقفة إلى جوار لوحة الأزرار في الجانب الآخر من الغرفة فضغطت على رافع صغير

فحدث انفجار عفيف . وانطلقت صفارة بصوت أجش أخذ يزداد بالتدريج حدة . ودقت أجراس الخطر كأن بها مساً من جنون وفرع الأطفال وصاحوا . وتجمدت وجوههم فرقاً ورعباً . وكاد الضجيج أن يسم الأذان فصاح المدير ، والآن نبدأ في إدخال هزة كهربية خفيفة في هذا الدرس .

ولوح بيده مرة أخرى ، وضغطت رئيسة المربيات رافعاً آخر . فتغيرت نغمة صياح الأطفال . فكنت تحس في صرخاتهم الحادة المتقطعة التي يرسلونها شيئاً من اليأس يكاد يبلغ حد الجنون . وامتطت جسامهم الصغيرة وتصلبت . وتحركت أطرافهم واهتزت كأنها تستجيب لجذب أسلاك غير مرئية

وصاح المدير وهو يشرح قائلاً : «نستطيع أن نكهرب كل هذا الجزء من الأرض» . ثم أشار إلى المربية قائلاً : ولكن كفى هذا .

وتوقف الانفجار وكفت الأجراس عن الدوي ، وأخذ صياح الصفارة ينخفض نغمه شيئاً فشيئاً حتى تلاشى . ثم ارتخت الأجسام الممتطة المتصلبة . وتحول نشيج

الأطفال المجانين وصياحهم إلى العويل المألوف من أثر الرعب المجهود

—قدموا لهم الزهور والكتب ثانية .

قلبت المربيات الأمر . ولكن الأطفال انكمشوا فزعين وعلا صياحهم فجأة عندما اقتربت الورود ووقعت أبصارهم على صور القطط والديكة والغنم الأسود التي رسمت رسماً يلائم الأطفال وصفت بالألوان الزاهية .

وقال المدير ظافراً : اشهدوا ، اشهدوا

لقد اقترنت في أذهان الأطفال الكتب مع الضجيج المرتفع ، والزهور مع الهزات الكهربائية . وإذا تكرّر هذا الدرس أو شبيهه مائتي مرة أصبح الاقتران ثابتاً لا ينقسم . وما يصله الإنسان تفجز الطبيعة عن فصله .

« سوف يشبون على ما اعتاد علماء النفس أن يسموه كرهاً » غرزياً « للكتب والزهور . هذه أفعال منعكسة شرطية لاتتغير . سوف يكونون بمنجاة من الكتب وعلم النبات طول حياتهم » . ثم التفت المدير إلى مربياته وقال : أبعدوهم ثانية وحمل الأطفال ذوو الأردية الكاكية وهم لايزالون يصيحون فوق قوائمهم الخشبية ذوات الرفوف ، ودفعتهم العجلات إلى الخارج ، مخلفين وراءهم رائحة اللين الرائب وصمتاً محبباً إلى النفوس .

ورفع أحد الطلبة يده . لقد أدرك تمام الادراك لماذا لانستطيع أن يكون لدينا قوم من النوع الدنيء ، يضعون وقت المجتمع في الكتب كما أدرك أن هناك دائماً خطراً من أن يقرؤوا شيئاً ربما أزال الرابطة بين الشرط والاستجابة . وهو شيء لانرغب فيه . أدرك الطالب ذلك ولكنه لم يفهم ما حدث بشأن الزهور . لماذا نجشم أنفسنا مشقة كبرى بأن نجعل من المستحيل من الناحية النفسية للنوع (د) من الناس أن يحب الزهور

وأخذ المدير يشرح له في صبر وأناة . إذا أرغمنا الأطفال على الصياح عند مرأى الورد ، فإنما نفعل ذلك لأسباب سياسية اقتصادية عليا . من عهد غير بعيد جداً (منذ زهاء القرن) كانت الأنواع (ح) ، (د) ، بل و(هـ) تدرب على حب الزهور خاصة والطبيعة الجرداء عامة . وكان الغرض من ذلك أن نجلبهم في الخروج إلى الريف كلما سحت الفرصة ، فنضطرهم بذلك إلى أن يستخدموا وسائل المواصلات .

ـ فسأل طالب : ألم يستخدموا تلك الوسائل ؟

وأجاب المدير : لقد استخدموها كثيراً ، ولكنهم لم يفعلوا غير ذلك .

ثم أشار إلى أن زهور الربيع ومناظر الطبيعة لها عيب واحد خطير ، وذلك أنها مجانية . إن حب الطبيعة يعطل المصانع ، فقررنا أن نلغي حب الطبيعة على الأقل من الطبقات الدنيا . قررنا أن نلغي حب الطبيعة ولكن على أن يبقى الميل إلى استخدام

المواصلات . لأنه كان من الضروري لهم بطبيعة الحال ألا ينقطعوا عن زيارة الريف ، حتى إن كانوا يمجتونه . وأصبحت المشكلة تنحصر في إيجاد سبب اقتصادي لاستخدام المواصلات أقوى من مجرد حب زهور الربيع ومناظر الطبيعة . ولقد عثرنا على السبب في الوقت المناسب

وختم المدير كلامه قائلاً : «إننا نكيف الجماهير على كره الريف ، ولكننا في الوقت نفسه نكيفهم على حب ضروب الرياضة الريفية كلها . وفي الوقت عينه نتأكد من أن جميع ضروب الرياضة الريفية تستلزم استخدام الأجهزة المعقدة . وبذا يستهلكون الأشياء المصنوعة كما يستهلكون وسائل النقل . ومن ثم أدخلنا تلك الهزات الكهربائية . فقال الطالب : «لقد فهمت» ثم صمت مستغرقاً في الإعجاب . ثم كان سكوت شامل . وبعدئذ طهر المدير حلقه مما به ثم بدأ الحديث ثانية . قال : «كان هناك فيما مضى . حينما كان فوررد على وجه البسيطة . طفل صغير يدعى روبن رابنوفتش . وكان روبن ولدأ لأبوين يتكلمان اللغة البولندية» ثم قاطع المدير نفسه سائلاً ، أحسب أنكم تعرفون ما هي البولندية - إنها لغة ميتة

وزاد على ذلك طالب آخر قائلاً : «كالفرنسية والألمانية» وقد أقحم نفسه متظاهراً بعلمه

ثم سألهم المدير قائلاً : وتعرفون كذلك معنى «الوالد» ؟ فساد الحاضرين صمت مشوب بالقلق . واحمرت وجنات كثير من الأولاد خجلاً . إنهم لم يتعلموا بعد أن يدركوا الفارق المهم . الدقيق جداً في غالب الأحيان . بين اللفظ البذيء ، والعلم البريء . وأخيراً تشجع طالب ورفع يده وتلعثم في لفظه واندفع الدم إلى وجنتيه وهو يقول : لقد كانت الكائنات البشرية فيما مضى تتناسل باللقاح فأوماً المدير برأسه موافقاً وقال : هذا صحيح . وعندما كان الأطفال يُفرغون . فصحه آخر : بل يولدون .

«كان هناك الوالدون . ولا أقصد الأطفال بالطبع إنما أقصد الآخرين» . ثم غلب الاضطراب هذا الولد المسكين

ولخص المدير الكلام قائلاً : «كان الوالدان بالإيجاز . الأم والأب» . وهذه العبارة البديئة . وهي في الواقع علم صحيح . سقطت كالصاعقة على الأولاد الصامتين الذين كانوا يفضون الطرف عن المتكلم . ولكن المدير كرر كلمة «الأم» بصوت مرتفع كي يزيل السكون السائد . ثم ارتد في كرسيه إلى الوراء وقال في جد وورزاة : أنا أعرف أن هذه الحقائق لاتسر . ولكن أكثر الحقائق التاريخية كذلك .

ثم عاد إلى روبن الصغير . قال إن أباء وأمه تركوا الراديو مفتوحاً سهواً في غرفته ذات مساء

ويجب أن تذكروا أن الأطفال - في تلك الأيام التي كان الناس يتناسلون فيها بالتلاحق ويتكاثرون - كانوا ينشؤون تحت رعاية آبائهم ، ولا ينشؤون في مراكز الدولة للتكييف

وبينما كان الطفل نائماً ، بدأت لندن فجأة تذيع برنامجاً . وفي صبيحة اليوم التالي تيقظ روبن الصغير وهو يكرر كلمة كلمة محاضرة طويلة ألقاها ذلك الكاتب العجيب القديم (وهو أحد القلائد الذين سمح لمؤلفاتهم أن تتحدر إلينا) برنارد شو الذي كان يتحدث عن عبقريته . وفقاً لتقليد قديم معتمد . واندesh والدا الطفل لذلك (وهنا تجاسر الجريئون من التلاميذ أن يتجههم كل منهم للآخر) . وقد غمز روبن الصغير بعينه وأسر في نفسه ضحكة مكبوتة لأن هذه المحاضرة كانت بالطبع غير مفهومة له . ولما تصور الوالدان أن طفلهما قد أصيب فجأة بالجنون أرسلوا في طلب الطبيب . وكان لحسن الحظ يفقه الإنجليزية ، فأدرك أن الحديث هو ذلك الذي أذاعه شو في الليلة السابقة . وأدرك أهمية ما حدث ، وأرسل خطاباً بشأنه لصحيفة طبية

قال المدير : « وكان مبدأ التعليم أثناء النوم أو هينوبيديا قد اكتشفت من قبل » ثم سكت فترة كان لها أثرها في النفوس  
لقد اكتشف المبدأ ، ولكن كان لابد من أن تنقضي سنوات عدة قبل أن يطبق بطريقة نافعة .

إن حادثة روبن الصغيرة هذه وقعت بعد ثلاثة وعشرين عاماً فقط بعدما عرض في السوق طراز فوررد الأول رقم (ت) (وهنا رسم المدير حرف التاء على معدته وتبعه الطلبة جميعاً باحترام) ومع ذلك

وخط الطلبة على عجل هذه العبارة وهم محققون : « استعملت الهينوبيديا رسمياً أولاً في عام ٢١٤ ف . ولم تستعمل قبل ذلك لسببين : أولهما . »

وكان المدير يقول : هذه التجارب الأولى كانت تسير في طريق خاطئ . إنهم كانوا يظنون أن الهينوبيديا يمكن أن تكون أداة من أدوات التربية العقلية

ينام الولد الصغير على جانبه الأيمن ، ويمد ذراعه اليمنى ، ويعلق يده اليمنى مسترخية على حافة السرير . ويتحدث صوت ناعم خلال نافذة مستديرة في جانب أحد الصناديق

ويقول الصوت : النيل أطول أنهار أفريقيا ، وثاني أنهار العالم طراً في طوله وهو أقصر من المسيسيبي والمسوري غير أنه أول الأنهار من حيث طول حوضه الذي يمتد خلال ٣٥ درجة من درجات العرض

وفي ساعة الإفطار في صبيحة اليوم التالي يسأل سائل : « هل تعلم يا تومي أطول نهر في أفريقيا ؟ » فيهز تومي رأسه . ولكن ألا تذكر عبارة تبدأ بهذه الكلمات : النيل أطول

فيجيب تومي : « النيل - أطول - أنهار - أفريقيا - وثاني - أنهار - العالم - طراً - في - طوله . » ثم تتدفق الكلمات متلاحقة فيقول : « وهو - أقصر - من . »

- إذن ما هو أطول نهر في أفريقيا ؟

- لا أدري . ولاتنم عيناه عن شيء

- ولكن النيل يا تومي .

- النيل - أطول - أنهار - أفريقيا - وثاني

- إذن ما أطول الأنهار يا تومي ؟

فينفجر تومي باكياً ويقول : « لست أدري » ثم يصيح

ووضح المدير للطلبة أن هذه الصيحة ثبّطت همم الباحثين الأوائل . فتخلوا عن التجارب . ولم يبق أحد بعدئذ بمحاولات لتعليم الأطفال طول النيل أثناء النوم . وقد أصابوا . إنك لاتستطيع أن تتعلم علماً إلا إن عرفت في أي شيء يبحث

ثم تقدمهم المدير نحو الباب وتبعه الطلبة وهم يدونون كلام المدير على عجل وفي اهتمام شديد خلال سيرهم وأثناء ارتفاعهم بالمصعد . قال المدير : في حين أنهم لو بدؤوا بالتربية الخلقية ، تلك التربية التي لاينبغي . تحت أي ظرف . أن تكون عقلية

وإذ هم يخرجون إلى الطابق الرابع عشر سمعوا مضخماً من مضخمت الصوت يهمس قائلاً : « الصمت ، الصمت » . وأفواه الأبواق تكرر هذا اللفظ « الصمت ، الصمت » في الردّهات الفينة بعد الفينة دون أن يصيبها كلال . فنهض الطلبة . بل والمدير نفسه . من تلقاء أنفسهم فوق أطراف أصابعهم . وكانوا بطبيعة الحال من النوع ( ١ ) ، ولكن حتى هذا النوع كان حسن التكييف . ودوى الفضاء كله في الطابق الرابع عشر بهذا الأمر المقدس : « الصمت ، الصمت »

وبعد مسير خمسين ياردة على أطراف الأصابع بلغوا باباً فتحة المدير في حرص شديد . ووطؤوا المدخل ، فإذا بهم في غرفة نوم ذات نوافذ خشبية موصدة ، ضوؤها كالشفق . ورأوا ثمانين سريراً صغيراً قائمة إلى جوار الحائط . وطرق آذانهم صوت أنفاس منتظمة خافتة ومتممة متصلة ، كأنها أصوات خافتة جداً تهمس من بعيد

وعند دخولهم نهضت إحدى المربيات ووقفت أمام المدير تصفي إليه  
سألها : ما موضوع الدرس بعد ظهر اليوم ؟

فأجابت : كان عندنا في الأربعين دقيقة الأولى شيء ، عن مبادئ الشؤون الجنسية . أما الآن فقد غيرنا الموضوع وأخذنا ندرس مبادئ شعور الطبقات وسار المدير متباطئاً حذاء صف الأسرة الطويل ، فرأى ثمانين ولداً وبتناً مستلقين نياماً ، متوردين مسترخين ، يزفرون أنفاساً خافتة . وسمع المدير همساً تحت كل وسادة ، فكف عن المسير ، وانحنى فوق أحد الأسرة الصغيرة وأنصت مصغياً

وقال : هل قلت مبادئ شعور الطبقات ؟ لنكرر هذه العبارة بالهوق بصوت أكثر ارتفاعاً

وكان في نهاية الغرفة مضخم للصوت يبرز من الحائط . فسار المدير نحوه وضغط على زر من الأزرار

وسُمع صوت ناعم ، غير أنه واضح كل الوضوح ، يقول : « كلهم يلبس الأخضر » وقد بدأ العبارة من وسطها . ثم قال : « والأطفال من النوع (د) يلبسون الكاكي كلا ، إنني لأحب أن ألعب مع هؤلاء الأطفال . والأطفال (هـ) أسوأ حالاً إنهم أغبى من أن يستطيعوا القراءة أو الكتابة . وفوق ذلك ، فهم يلبسون الأسود ، وهو لون وحشي . أحمد الله إنني من النوع (ب)

ثم كانت فترة سكون . وبدأ الصوت من جديد . قال : إن الأطفال (ا) يلبسون الرمادي ، وهم أكثر منا عملاً لأنهم مهرة جداً . إنني حقاً جد سعيد لأنني من الطراز (ب) لأنني لأعمل كثيراً . ونحن خير من (ح) و(د) . فطراز (ح) أغبياء . كلهم يلبسون الأخضر والأطفال من نوع (د) يلبسون الكاكي كلا . إنني لأحب أن ألعب مع هؤلاء الأطفال . و(هـ) أسوأ حالاً . إنهم أغبى من أن يستطيعوا

ودفع المدير الزر إلى الوراء ، فصمت الصوت . ولم يبق إلا صدها الخفيف يدق تحت الوسادات الثمانين

إنهم يكررون ذلك أربعين أو خمسين مرة أخرى قبل أن يستيقظوا ، ثم يكررونه يوم الخميس مرة ويوم السبت مرة أخرى . مائة وعشرون مرة ، ثلاث مرات كل أسبوع ، لمدة ثلاثين شهراً . وبعد ذلك ينتقلون إلى درس أرقى

الورود والبهزات الكهربائية ، واللون الكاكي الذي يلبسه الطراز (د) ونفحة من نبات « أبي كبير » . هذه وتلك تقترن اقتراناً لا ينفك قبل أن يستطيع الطفل الكلام ولكن التكيف بغير لفظ ساذج إجمالي لا يظهر الفروق الدقيقة ، ولا يقرر في ذهن طرق السلوك شديدة التعقيد . الألفاظ ضرورية هنا ، ولكنها ألفاظ لاتقوم على العقل . هي - بإيجاز - هنبويديا

أعظم قوة خلقية واجتماعية في جميع العصور

ودون الطلبة ذلك في كراساتهم الصغيرة رأساً من قم المدير  
ولمس المدير الزر مرة أخرى .

وكان الصوت الناعم الملقن الذي لا يفتر يقول : « مهرة جداً . إني حقاً  
جد سعيد لأنني من الطراز (ب) . لأنني . »

حقاً إن الماء . وإن يكن لا يشبه القطرات . يستطيع أن يشق الثقوب في أشد  
أحجار الجرانيت صلابة . كما أن القطرات من سائل الشمع الأحمر تلتصق بما تقع  
فوقه وتغلغه وتتحد به ، حتى يصبح الصخر في النهاية كتلة واحدة قرمزية .

« حتى يصبح عقل الطفل في النهاية هو هذه الإحياءات . ومجموع هذه  
الإحياءات هو عقل الطفل . وليست عقل الطفل فحسب ، إنما عقل الراشد كذلك .  
طوال حياته . إن العقل الذي يحكم ويشتهي ويقرر يتكون من هذه الإحياءات .  
ولكن كل هذه الإحياءات هي من إحيائنا ! » وكاد المدير يصيح من نشوة الظفر ، ثم  
قال : « من إحياء الدولة » وضرب على أقرب منضدة ضربة شديدة وقال : « ويتبع  
ذلك . »

وسمع ضجيجاً فالتفت حول نفسه .  
ثم قال بنغمة أخرى : يا لله ! لقد أيقظت الأطفال

## الفصل الثالث

حانت ساعة اللعب خارج البناء في الحديقة . فكنت ترى ستمائة أو سبعمائة ولد وبنت عرايا في شمس يونيو الدفيئة ، يجرون فوق الحقول مجلجلين بالصياح ، أو يلعبون بالكور ، أو يجلسون القرفصاء صامتين اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة بين الشجيرات المزهرة . وكانت الورود متفتحة . وبالعابة عندليان يناجيان نفسيهما ، وبين أشجار الزيزفون وقواق يصدح أنغاماً غير منسجمة . والهواء يبعث على النوم بما فيه من طنين النحل ودوي الطائرات .

ووقف المدير وتلاميذه هنيهة قصيرة يرقبون شوطاً من لعبة تشبه التنس . وقد تجمع عشرون طفلاً في دائرة حول برج من معدن الكروم يقذف أحدهم الكرة إلى أعلى كي تستقر على إفريز بأعلى البرج ، ثم تندرج إلى الداخل ، وتسقط على قرص سريع الدوران ، ثم يلقي بها خلال إحدى الفتحات العديدة التي تخترق الغلاف الاسطواني ، وتمسك بعد ذلك .

وبينما كان الطلبة ينصرفون قال لهم المدير متأملاً ، ألا يدهشكم أن أكثر الألعاب . حتى يوم عيد فورد . لاحتاج من الأجهزة أكثر من كرة أو اثنتين وعدداً قليلاً من العصي وربما قطعة من الشبك . تصوروا أن الناس يسمح لهم أن يلعبوا ألعاباً معقدة لاتعمل البتة على زيادة الاستهلاك . أليس ذلك حقاً ؟ إنه جنون . إن المراقبين اليوم لايسمحون بأي لعبة جديدة إلا إن ظهر أنها تحتاج من الأجهزة على الأقل مثل ما تحتاج أشد الألعاب الموجودة تعقيداً

وقاطع نفسه قائلاً : « هذه مجموعة صغيرة فاتنة » وأشار إليها

وكان هناك في منحنى معشوشب بين مجموعة من أشجار الخليج الطويلة التي تنمو في منطقة البحر الأبيض المتوسط طفلان ، ولد صغير في نحو السابعة من عمره ، وفتاة صغيرة قد تكبره بعام واحد ، يلعبان لعبة جنسية أولية ، وهما



جاذان ، وعليهما سيما العلماء الذين يركزون كل اهتمامهم في عمل كشفي  
وكرر المدير قوله : « يا للفتنة ، يا للفتنة ! » وقد هزته العاطفة  
وأيده الطلبة في أدب قائلين مثله « يا للفتنة ! » . ولكن بسماتهم كانت تنم  
عن رعاية الكبير للصغير . لأنهم تخلوا عن مثل هذه الملامية الصبائية من عهد  
قريب جداً حتى لقد شق عليهم أن يرقبوها دون شيء من الاحتقار . ما الذي  
يفتنهم ؟ لقد كانا طفلين يلهوان ، وهذا كل ما في الأمر ، طفلين فقط  
وواصل المدير حديثه في نفمة النشوان التي بدأ بها وقال : « إنني أظن  
دائماً . » ثم قاطعه صوت مرتفع يجهش بالبكاء  
وبرزت من الغابة المجاورة مربية تقود بيدها ولداً صغيراً يصيح أثناء المسير  
وفي إثرها فتاة صغيرة عليها سيما الاهتمام والقلق  
سألها المدير : ما الأمر ؟  
فهزت المربية كتفها وأجابت : الأمر يسير . إن هذا الولد الصغير كان يحجم  
قليلاً عن الاشتراك في المفازلة العادية . وقد لحظت ذلك من قبل مرة أو مرتين  
ولحظت ذلك اليوم مرة أخرى وقد بدأ الآن يصيح  
وعقبت على ذلك الفتاة الصغيرة القلقة قائلة : إنني - وأيم الحق - لم أقصد أن  
أؤذيه ، أو أن أصيبه بأي شيء ،  
وقالت الممرضة وهي تطمئننها : « إنك لم تقصدي ذلك بالطبع يا عزيزتي »  
ثم واصلت حديثها وقد التفتت نحو المدير ثانية ، وقالت : . ولذا فأنا سوف  
أخذه إلى مراقب علم النفس المساعد ، لكي يرى إن كان به شذوذ  
قال المدير : « لقد أصبت . خذيه ، وأبقي هنا أيتها الفتاة الصغيرة »  
وانصرفت المربية في صحبة الولد الباكي الذي عهد به إليها . وسأل المدير الفتاة : ما  
اسمك ؟

قالت : بولي تروتسكي  
قال المدير : إنه اسم جميل جداً . انطلقي الآن وحاولي أن تعجدي ولداً صغيراً  
آخر تلعبين معه  
فهرولت الفتاة بين الأشجار واختفت عن الأنظار  
وتابعها المدير بالنظر قائلاً : « يا لها من مخلوق صغير نفيس ! » ثم التفت إلى  
تلاميذه وقال : إن ما سأحدثكم عنه الآن قد يبدو لكم أمراً لا يحتمل التصديق .  
ولكن المرء إذا لم يتعود العلم بالتاريخ يحسب أن أكثر حقائق الماضي مما لا يحتمل  
التصديق  
ثم نطق بحقيقة تدعو إلى الدهشة حقاً . قال : قبل عصر فورد بزمان طويل  
جداً ، بل ويعد عصره بضعة أجيال ، كانوا يحسبون الغزل بين الأطفال أمراً شاذاً

(فقهه الطلبة ضاحكين) . لم يحسبوه شاذاً فحسب ، بل كذلك أمراً لا يتفق وقواعد الأخلاق (قال الطلبة ، لانظن ذلك!) ولذا فقد حرموه تحريماً باتاً وبدت على وجوه المستمعين له نظرة الدهشة وعدم التصديق . لقد أدهشهم أن يسمموا أن الأطفال المساكين لم يسمح لهم بإمتاع أنفسهم . ولم يسعهم إلا عدم التصديق .

قال المدير ، حتى المراهقون من أمثالكم مستحيل!

كانوا يحرمون قليلاً استمتاع الفرد بنفسه خفية استمتاعاً جنسياً أو تبادل المتعة الجنسية بين أفراد الجنس الواحد . المتعة الجنسية محرمة كل التحريم . كل التحريم! عجباً! أجل ، هو كذلك في أكثر الأحوال ، حتى يربو الفرد على العشرين من العمر

فردد الطلبة هذه الكلمات «العشرين من العمر» في صوت واحد ينم عن عدم التصديق .  
كرر المدير كلمة «العشرين» ثم قال ، لقد قلت لكم إنكم سوف تجدون الأمر بعيد التصديق .

فسأل الطلبة ، وما الذي حدث ؟ وماذا كانت النتيجة ؟  
« كانت النتيجة مزعجة » . ثم رن وسط حديثهم صوت عميق أثار فيهم الذعر الشديد

والتفتوا خلفهم ، فإذا برجل غريب ربة ، أسود الشعر ، ذي أنف مدبب ، وشفتين حمراوين ممتلئتين ، وعينين سوداوين نافذتين يقف عند طرف تلك المجموعة الصغيرة .

وكان المدير في تلك اللحظة قد جلس على أحد المقاعد المصنوعة من الصلب والمطاط ، التي كانت تنتشر بصورة مريحة خلال الحدائق . ولكنه عند مرأى هذا الرجل الغريب ، نهض واقفاً واندفع إلى الأمام ويداه مبسوطتان ، يبتسم بملء فيه ، مبدياً كل أسنانه

فصاح به المدير ، أهلاً بالمراقب! يا له من سرور غير منظور! فيم تفكرون أيها الأولاد ؟ هذا هو المراقب . هذا صاحب السيادة مصطفى مند

حينئذ دقت الرابعة في وقت واحد أربعة آلاف ساعة كهربية في الأربعة آلاف حجرة التي يتألف منها المركز . وخرجت من أفواه الأبواق أصوات كأنها صادرة من أجسام حية . وكانت تردد هذا القول ، الآن ينتهي عمل الدور الأول من النهار ، ويبدأ عمل الدور الثاني . انتهى دور النهار الأول

وكان هنري فستر ومدير المصانير المساعد بالمصعد في طريقهما إلى الغرف العليا للتبادل . وقد وليا برنارد ماركس من رجال مكتب علم النفس ظهوريهما فجأة . فابتعدا عن رجل له سمعة سيئة .

وما برح طنين الآلات الخافت ودويها يتردد في الجو القرمزي داخل مخزن الأجنحة . والرجال الذين يتناوبون العمل يروحون جيئة وذهاباً ، هذا وجه يمانى السل الجلدي يخلي السبيل لوجه آخر والحمالون يزحفون قدماً بأنوف شامخة وبغير انقطاع يحملون رجال المستقبل ونساءه

وسارت لينتا كراون مسرعة نحو الباب .

كان ذلك الرجل صاحب السيادة مصطفى مندو وكادت أعين الطلبة أن تخرج من رؤوسهم تحية له . ذلك هو مصطفى مند المراقب المقيم بغرب أوروبا . وهو أحد مراقبي العالم المششرة . وقد جلس مع المدير على المقعد . وسوف يمكث معهم ويتحدث إليهم فعلاً ، فيدونون مذكراتهم رأساً من فيه ، أي رأساً من فم فورد نفسه .

وبرز من الغابة المجاورة طفلان في لون برغوث البحر البني . فحدقا فيهم لحظة بأعين واسعة دهشة ، ثم عادا إلى لهوهم بين أوراق الأشجار وقال المراقب بصوته القوي العميق ، « أحسب أنكم تذكرون جميعاً قول فورد الجميل الذي أوحى له به وذلك أن التاريخ أكذوبة لذيدة » . وكرر هذه العبارة في بطة شديد

ثم لوح بيده ، وكأنه يزيل التراب بمذبة من الريش لاترى . ذلك التراب هو ما يروى عن هاربا Harappa وأور Ur في كلديا . وكأنه كذلك يبدد نسيج العنكبوت ، وذلك النسيج هو ما يروى عن طيبة وبابل وكنسس Cnossos وميسيني Mycenae . وكأنه بالمذبة كذلك يبدد الأوديسي ، وأيوب ، والاله جوبتر وجوتما

Gotama وبسوع . وكأنه بالمذبة كذلك يزيل تلك البقع القذرة العتيقة التي نسميها أثينا وروما وبيت المقدس والمملكة الوسطى . وكأنه بها كذلك يحو المكان الذي كانت تقوم عليه إيطاليا . وبها كذلك يحو الكنائس الكبرى ، والملك لير ، وآراء باسكال . وبالمذبة كذلك يبدد العواطف ، وصلاة الجنائز ، والسفوفوني و

3

وسأل مساعد مدير المصانير هنري قائلاً ، هل أنت ذاهب هذا المساء إلى دار الصور المحسة ؟ لقد سمعت أن الصورة الجديدة في الهمبرا ممتازة . وأن بها منظر حب فوق سجادة من جلد الدب . يقولون إنه جد عجيب ، وإن كل شعرة من شعر

الدب أمكن إخراجها وهذه أعجب الصور المحسة .  
قال المراقب ، وذلك هو السيب في أنكم لاتتعلمون التاريخ أما الآن فقد حان الوقت

ونظر إليه المدير وهو في حالة عصبية . فقد نمت إليه تلك الشائعات العجيبة عن الكتب القديمة المحرمة المخبأة في إحدى الخزانات في مكتب المراقب ، كالإنجيل ودواوين الشعر ، وغير ذلك مما لايعلمه إلا فورد واعترض مصطفى مند نظرتة الخائنة ، والتوت زوايا شفتيه الورديتين تهكماً وسخرية . وقال في نعمة تنم عن الازدراء الخفيف ، حقاً أيها المدير إنني لن أفسدهم

وغلب على المدير الارتباك  
إن أولئك الذين يشعرون باحتقار الآخرين لهم محقون حين ينظرون إلى غيرهم بعين الاحتقار . ولقد ارتسمت على ثغر برنارد ماركس ابتسامة الازدراء هل أمكن حقاً إخراج كل شعرة من شعرات الدب!  
وقال هنري فستر : سوف أهتم بالذهاب  
وانحنى مصطفى مند إلى الأمام ، وهز لهم إصبعه وقال وقد بعث صوته في حجبهم الحاجزة هزة غريبة مثيرة : حاولوا أن تدركوا كيف كانت الحال حينما كانت الأمهات تتناسل ؟  
تلك الكلمة الفاحشة مرة أخرى! ولكن أحداً منهم لم يدر بخلده هذه المرة أن يبتسم .

- حاولوا أن تتصوروا معنى « عيش الفرد مع أسرته »  
ولقد حاولوا . وكان من الواضح أنهم لم يصيبوا أدنى نجاح  
- وهل تعرفون ما « البيت » ؟  
فهزوا رؤوسهم .

وصعدت لينتا كراون سبعة عشر طابقاً من غرفتها السفلى المظلمة القرمزية وخرجت من المصعد ، ثم التفت يمينا ، وسارت بحذاء ممر طويل ، وفتحت الباب الذي كتب عليه « حجرة اللبس للنات » ، وغاصت في خضم مضطرب من الأذرعة والصدور والأردية الداخلية . وكان هناك مائة حمام تندفع فيها أو تنبجس منها سيول من الماء الساخن . وكنت تسمع الدوي والأزيز يصدر عن ثمانين آلة من آلات التدليك المفرغة المذبذبة ، وهي تدلك وتحفف في وقت واحد الأجسام الصلبة التي لفحتها الشمس بحرارتها لثمانين نموذجاً رقيقاً من نماذج الإناث . وكانت كل منهن تتكلم بأعلى صوتها . وكانت هناك كذلك آلة للموسيقا المركبة تنشد نغمة فردية كأنها من بوق عظيم

وقالت ليننا إلى الشابة التي كان إلى جوارها المشاجب والصندوق المقفل : أهلاً فاني

وكانت فاني تعمل بغرفة القوارير ، وكان اسم أسرتها كذلك كراون . ولكن حيث أن الألفي مليون من السكان الذين يقطنون هذا الكوكب لم يكن لهم سوى عشرة آلاف اسم لهم جميعاً ، فإن تشابه الأسماء لم يكن أمراً عجيباً وجذبت ليننا مشبك سترتها إلى أسفل ، وقد أشارت بيديها إلى الفتاتين اللتين أمسكتا بالسراويل أن تخلعاهما ، وأشارت إلى غيرهن أن يحلن رداءها السفلي . ثم انطلقت نحو الحمامات وما برحت تلبس حذاءها وجواربها البيت وما أدراك ما البيت : هو بضع حجرات صغيرة ، يزدحم إلى حد الاختناق بساكنيه ، وهم رجل ، وامرأة تلد بين الحين والحين ، وثلة من البنين والبنات من مختلف الأعمار . الهواء فيه منعدم ، والفضاء منعدم كأنه سجن قدر ، ينتشر فيه الظلام والمرض والروائح الكريهة .

(وكان تعبير المراقب شديد الوضوح جداً ، حتى أن ولداً من الأولاد ، أشد حساسية من الآخرين ، شحب لونه عند مجرد الوصف ، وأوشك أن يخر عليلًا) . وخرجت ليننا من الحمام ، وجففت نفسها بالمنشفة ، وأمسكت بأنبوبة طويلة مرنة مثبتة في الحائط ، ووضعت طرفها فوق ثديها كأنها تزعم الانتحار ، ثم ضغطت على المفتاح الضابط إلى أسفل . فإذا بزوبعة من الهواء الدافئ تنثر فوقها مسحوق تالكم الدقيق . وكان فوق حوض الفسيل ثمانية أنواع مختلفة من العطور والكولونيا تتدفق من الصنابير . وقد فتحت الصنبور الثالث من جهة الشمال ، وبللت نفسها «بالشبر» . وحملت حذاءها وجواربها في يدها ، ثم خرجت لعلها تجد إحدى الآلات المفرغة المذبذبة خالية من العمل

والبيت قذر من الوجهة النفسية كما هو قذر من الوجهة المادية . فهو من الوجهة النفسية أشبه ما يكون بجحر الأرنب أو كومة القاذورات . الحياة فيه مكدسة أشد التكديس ، ولذا يكثر فيه الاحتكاك وتضطرم العواطف . وما أكثر ما ينشب بين أعضاء الأسرة من تقارب خائف وعلاقات خطيرة جنونية فاسدة! والأم تحنو على أطفالها (وأقول أطفالها هي) كالمجنونة . إنها تحنو عليهم كما تحنو الهرة على الهريرات . ولكنها هرة تستطيع الكلام ، وتستطيع أن تقول وتكرر قولها «ولدي ، ولدي ، هيه يا ولدي إنه فوق صدري . ما أصغر يدي . إنه جانع . ما أشد سروري به رغم إيلامي وأخيراً ينام ولدي وعلى جانب فمه فقاعة من اللبن الأبيض . إنه ينام .»

قال مصطفى مند وقد أوما برأسه : نعم ، لكم أن ترتعدوا وعادت ليننا من عملية الآلة المفرغة المذبذبة كأنها لؤلؤة تضيء من داخلها ،

وتومض بهريق قرنفلتي ، ثم سألت « مع من سوف تخرجين هذا المساء ؟  
لا أحد .

فرمقت ليننا حاجبها من الدهش  
قالت فاني « لقد شعرت أخيراً بشيء من التوكل . فنصحني الدكتور ولز أن  
أخذ « عوضاً عن الحمل »  
ولكنك بلغت التسع عشرة من العمر فقط يا عزيزتي . وعوض الحمل الأول  
لا يتحتم إلا في الحادية والعشرين

« أعرف ذلك يا عزيزتي . ولكن من الناس من يتحسن لو بكر به . لقد  
خبرني الدكتور ولز أن السمراوات ذوات الحوض الواسع من أمثالي يجب أن يأخذن  
عوض الحمل الأول في السابعة عشرة . ولذا فاني في الواقع تأخرت عامين . ولم  
أهكر بهما » . وفتحت باب خزانتها وأشارت إلى صف من الصناديق وإلى القوارير  
ذوات البطاقات فوق الرف العلوي

وقرأت ليننا العبارات بصوت مرتفع . هذه عصارة بعض خلايا المبيض  
أوفارين ، طازج مضمون ، لا يستعمل بعد أول أغسطس من عام ٦٣٢ ف . خلاصة  
الفدة الحديدية . تؤخذ ثلاث مرات كل يوم ، قبل الوجبات ، مع قليل من الماء .  
المشيمة ٥ ح ، يستعمل للحقن مرة كل ثلاثة أيام فارتعدت ليننا وقالت « أوه  
إنني أكره حقن الوريد . ألسنت مثلي ؟

قالت فاني وهي فتاة حساسة جداً ، أجل ، ولكنها حين تنفع المرء  
كان فورد . أو فرويد كما كان يحب أن يسمى نفسه (للسبب لانفهمه) كلما  
تحدث عن الشؤون النفسية . أول من كشف عن الأخطار المروعة في الحياة العائلية .  
كان العالم مليوناً بالآباء . ولذا كان مليوناً بأسباب الشقاء . وكان مليوناً بالأهمات .  
ولذا كان مليوناً بكل نوع من أنواع الشذوذ من الساذم (أو الولع بتعذيب  
الآخرين) إلى العفة . وكان مليوناً بالإخوة والأخوات والأعمام والعلمات . ولذا فهو  
مليء بالجنون والانتحار

ومع ذلك فمتوحشو ساموا ، في بعض الجزر البعيدة عن ساحل غينيا  
الجديدة .

وسطعت الشمس الاستوائية كالشهد الدافئ فوق أجساد الأطفال العارية  
الذين يتقلبون بغير نظام بين زهرات البامية . وكان البيت في أي منزل من المنازل  
العشرين ذات السقوف المصنوعة من النخيل . وكان الحمل عند أهل طروبراند  
عمل الأسلاف الباندين . ولم يسمع أحد بالأب .

قال المراقب « إن المتناقضات تتلاقى ، لا شيء إلا لأنها خلقت لكي تتلاقى  
. يقول الدكتور ولز إن الاستعاضة عن الحمل ثلاثة شهور يكون لها أثر كبير

في صحتي خلال السنوات الثلاث أو الأربع المقبلة .  
قالت ليننا : أرجو أن يكون مصيباً ، ولكن هل تقصدين حقاً أن تقولي يا فاني  
إنك خلال الأشهر الثلاثة المقبلة لا يصح أن .  
- كلا يا عزيزتي . إنما يكون ذلك لمدة أسبوع أو أسبوعين فقط سأقضي هذا  
المساء في النادي ألعب الريديج الموسيقي . وأظن أنك ستخرجين ، أليس كذلك ؟  
فأومأت لننا برأسها  
- مع من ؟  
- مع هنري فستر .

« مرة أخرى ؟ » وبدا على وجه فاني الشفيق الشاحب كالقمر تعبير غير ملائم  
ينم عن ذهشة الألم وعدم الموافقة . ثم قالت : هل تقصدين أن تقولي إنك ما زلت  
تخرجين مع هنري فستر ؟  
الأمهات والآباء ، الأخوة والأخوات . وكان هناك كذلك الأزواج والزوجات  
والعاشقون . وكان هناك كذلك الزواج من واحدة والهيام .  
قال مصطفى مند : « وإن كنتم ربما لاتعرفون ما هذه الأشياء » . فهزوا  
رؤوسهم

الأسرة والزواج من واحدة . والهيام . في كل هذا تلمس التحديد والاهتمام  
المركز ، وتوجيه الدوافع النفسية والنشاط في قناة ضيقة  
ثم اختتم حديثه مردداً المثل الهنويدي : كل فرد يتعلق بكل فرد آخر .  
فأوما الطلبة برؤوسهم بالموافقة مؤيدين عبارة سمعوها أكثر من ٦٢ ألف مرة  
في الظلام ، مما جعلهم لا يقبلون صدقها فحسب ، بل يعدونها بديهة توضح نفسها ،  
لا جدال البتة فيها  
واحتجت ليننا قائلة : ولكي لم ينقص علي أكثر من أربعة أشهر تقريباً منذ  
رفقتي لهنري .

قالت فاني : أربعة أشهر فقط ! إنني أحب ذلك » . ثم واصلت حديثها مشيرة  
بأصبعها كأنها تتهم غيرها ، وقالت : وأكثر من ذلك ، لم يكن هناك غير هنري  
طوال هذه المدة . أليس كذلك ؟

فاحمرت ليننا خجلاً وتوردت وجنتاها ، ولكنها تحدث زميلتها بنظرة عينيها  
ونفمة صوتها . وأجابت في شراسة شديدة . قالت : كلا . لم يكن هناك رجل  
آخر . ولست أرى البتة لماذا يكون هناك ثان

ورددت فاني عبارتها : « لست أرى البتة لماذا يكون هناك ثان » . وكأنها  
توجه الخطاب إلى منصت غير مرئي خلف كتف ليننا اليسرى . ثم غيرت نفمة  
صوتها فجأة وقالت : ولكنني أظن حقاً . وأنا جادة . أنك ينبغي أن تحرصي إن دوام

صحبتك لرجل واحد سيئ جداً إذا كنت في الأربعين أو الخامسة والثلاثين فإن الأمر لا يكون سيئاً إلى هذا الحد . ولكنه لا يليق بك البتة في سنك يا ليننا . وأنت تعلمين كيف يعترض المدير بشدة على كل تركيز أو مواصلة في أي شأن من الشؤون . أربعة شهور مع هنري فستر ، دون أن يكون لك رجل آخر أحسب أنه يغضب لو عرف

قال المراقب : « تخيلوا الماء تحت الضغط في أحد الأنابيب » . فتخيل الطلبة ذلك . ثم قال : سأطعنه مرة ، وسوف ترون مقدار انبثاقه وطلعنه عشرين مرة ، فتفجرت عشرون نافورة صغيرة تتحدر منها قطرات صغيرة من الماء

. ولدي ، ولدي !

« أمّا ! » إن الجنون معد

. حبيبي ، وحيدي ، عزيزي ، عزيزي

الأم والزواج من واحدة والهيام . وانبثقت مياه النافورات إلى أعلى . وكان انبجاسها مزبداً شديداً . ولم يكن للدافع سوى مخرج واحد . حبيبي ، ولدي . لا عجب إن كان هؤلاء القوم المساكين السابقون لبناء العصر الحديث مجانين خبيثين تفساء . فإن دنياهم لم تسمح لهم أن يكونوا أصحاء العقول فاضلين سعداء . ذلك أنهم كانوا يعانون وجود الأمهات والمحبين ، والمحرمات التي لم يألّفوا اقترافها ، ووسائل الإغراء ووخزات الضمير عند الوحدة ، والأمراض وآلام العزلة التي لا تنتهي ، والشكوك والفقر . وإذا كان إحساسهم بذلك شديداً ، يزداد في حالات العزلة الفردية التي لا رجاء فيها ، فكيف يستقرون ؟

. ليس ثمة حاجة بك إلى التخلي عنه . ولكن ليكن لك غيره من حين إلى آخر . هذا كل ما في الأمر . فإن لديه بنات أخريات . أليس كذلك ؟ فاعترفت بذلك ليننا

. بالطبع . وثقي أن هنري فستر هو الرجل المهذب الكامل . وهو دائماً على صواب . ثم هناك المدير تعبرين به . أنت تعرفين أنه يصير على أن وأومات ليننا برأسها وقالت : لقد ضربني من الخلف ضربة خفيفة اليوم بعد الظهر

فانتصرت فاني وقالت : هأنذا . إن هذا يبين لك عقيدته . التقيد بالقديم إلى أبعد الحدود

وقال المراقب : « الاستقرار ، الاستقرار لا حضارة بغير استقرار اجتماعي ولا يكون الاستقرار الاجتماعي بغير استقرار الفرد » . وكان صوته كالقوق . استمع إليه الطلبة فأحسوا بالعظمة وبالدفء



إن الآلة تدور ثم تدور . إنها تدور إلى الأبد بغير انقطاع . والموت إن وقفت إن ألف مليون نقشوا قشرة الأرض . ثم بدأت العجلات تسير . وفي خلال مائة وخمسين عاماً كان هناك ألفا مليون . ولو وقفت العجلات جميعاً هبط العدد مرة أخرى إلى ألف مليون فقط في مائة وخمسين أسبوعاً ، فإن ألف ألف رجل وامرأة يهلكون ويفنون

يجب أن تدور العجلات بغير انقطاع ، ولكنها لاتدور بغير رقابة . لا بد من وجود الرجال الذين يرقبونها . رجال في ثبات العجلات فوق محاورها ، رجال عقلاء ، مطيعون ، ثابتون في قناعتهم

ولكنهم يصيحون : ولدي ، أمي ، وحيدي ، حبيبي الأوحـد . ويننون قائلين خطيتي ، إلهي الجبار . ويصيحون متألّمين ، ويدمدمون من الحمى ، ويولولون من الشيوخوخة والفقر . فكيف يعنون بالعجلات ؟ وإذا لم يعنوا بها . إن جثث ألف ألف رجل وامرأة يشق دفنها أو إحراقها

قالت فاني متلطفة : وفي النهاية ليس هناك ما يؤلم أو ينفر إن كان لك إلى جانب هنري رجل آخر أو رجلان . فإن أدركت هذا ، فإنه ينبغي لك أن تكوني على شيء من الفوضى

وأصر المدير على أن « الاستقرار هو حاجتنا الأولى والأخيرة . الاستقرار هو سبب كل هذا »

ولوح بيده مشيراً إلى الحقائق ، وإلى البناء الضخم مركز التكييف ، وإلى الأطفال العارين وقد تواروا بين الأشجار أو انطلقوا خلال الحقول .

وهزت لنا رأسها وقالت : إنني لم أحس أخيراً بالرغبة الشديدة في الفوضى . إن الإنسان لا يحس ذلك في بعض الأحيان . ألم تصلي إلى هذا أنت كذلك يا فاني ؟

فأومأت فاني برأسها دليلاً على العطف والإدراك . ثم قالت في إيجاز ، ولكن لا بد للمرء من بذل الجهد لا بد له من تمثيل الدور فكل فرد يتعلق بكل فرد آخر وكررت لنا هذه العبارة « أجل ، إن كل فرد يتعلق بكل فرد آخر » في بطنه شديد . ثم تنهدت وصمتت لحظة . وتناولت يد فاني وضغطت عليها بخفة وقالت لقد أصبت يا فاني . سأبذل الجهد كالمعتاد

وبعدما تتدفق القطرات المحبوسة ، التي تسبب الانفعال ، ينبثق فيض من الشعور ، أو فيض من العواطف ، أو حتى من الجنون . فإن ذلك يتوقف على قوة التيار ، وعلى ارتفاع الحاجز وقوته . فالتيار الذي لا يقف في سبيله شيء يتدفق ببسر خلال مجاريه المعينة فيكون الهناء والهدوء . والجنين جائع . والأيام تتوالى ومضخة الدم تدور بغير انقطاع دوراتها الثمانمائة كل دقيقة . ويصيح الطفل في القارورة

فتظهر في الحال مربية ومعها زجاجة من الإفراز الخارجي . ويكمن الشعور في تلك الفترة من الزمن التي تقع بين الرغبة وإنجازها . وإذا قصرت تلك الفترة حطمت كل تلك الحواجز القديمة غير الضرورية

وقال المراقب : ما أسعد حظكم يا أبنائي ! إننا لم ندخر وسعاً في أن نجعل حياتكم سهلة من الناحية العاطفية . لكي نحفظكم . كلما أمكن ذلك . من أن يكون لكم أي نوع من أنواع العواطف

وتتم المدير قائلاً : إن فورد في سيارته الرخيصة<sup>(١)</sup> ، وكل شيء في الدنيا على مايرام .

وردد هنري فستر سؤال مساعد مدير المصائر وهو يزم سراويله «لننا كراون ؟» ثم قال : إنها فتاة عظيمة ، هوائية بدرجة تدعو إلى العجب . ويدهشني أنك لم تظهر بها

قال مساعد مدير المصائر : لأستطيع أن أتصور كيف كان ذلك . سوف أظفر بها في أول فرصة تسنح

وكان برنارد ماركس في الجانب الآخر من الممر في حجرة التغيير وقد استمع إلى ما كانا يتحدثان به . وشحب لونه .

قالت ليننا : «وأصدقك القول ، لقد بدأت أن أمل بعض الشيء ، ألا يكون غير هنري كل يوم» . وجذبت جوربها الأيسر وسألت بنفمة عرضية جداً كان من الجلي أنها اضطرت إليها اضطراباً . قالت : هل تعرفين برنارد ماركس ؟  
فبدأ الذعر على فاني وقالت : لعلك لاتقصدين ؟ .

ولماذا لا أقصد ؟ فإن برنارد من النوع (+) . ثم إنه فوق ذلك طلب إلي أن أذهب معه إلى أحد الأماكن المخصصة للمتوحشين وكنت دائماً أتوق إلى أن أرود أحد تلك الأماكن

ولكن سُمعته ؟

فيم تهمني سمعته ؟

يقولون إنه لايجب لعبة جُلّف الموانع

وقالت لننا ساخرة : إنهم يقولون ويقولون

وقالت فاني في صوت ينم عن الرعب : ثم هو يقضي أكثر وقته وحيداً منعزلاً

لكنه لن يكون وحيداً وهو معي . ثم إنني لأدري لماذا تغلظ قلوب الناس معه

---

(١) هذه إشارة إلى بيت من الشعر القديم ترجمته «الله في سمائه وكل شيء في الدنيا على مايرام» فاستبدل الكاتب هنا فورد بالله والسيارة بالسما . متحكماً من العالم الجديد البديع

إلى هذا الحد ؟ أظن أنه على كثير من الظرف . ثم ابتسمت لنفسها . لقد كان يخبجل بدرجة غير معقولة . بل قل كان يخشاها . كأنها مراقبة عالمية وهو عامل من نوع (-ح) من عمال الآلات

قال مصطفى مند : فكروا في حياتكم . هل اصطدم أحدكم مرة ما بعقبة لا يمكن التغلب عليها ؟

فكانت الإجابة بالصمت الذي يدل على النفي . وهل اضطر أحدكم إلى أن يعيش فترة طويلة من الزمن بين الإحساس بالرغبة وتحقيقها ؟

وهم أحد الأولاد بالإجابة ، ثم تردد فقال له المدير : انطق ولا تجعل صاحب السيادة في انتظارك . اضطرت مرة أن أنتظر نحو أربعة أسابيع قبل أن تسمح لي فتاة اشتيتها بحيازتها

. وهل أحسست بعاطفة قوية نتيجة لذلك ؟  
. بل مزعجة .

قال المدير : هي حقاً مزعجة . ولقد بلغ بأسلافنا الغباء وقصر النظر أنهم قاطعو المصلحين الأوائل الذين تطوعوا لإنقاذهم من هذه العواطف المزعجة واصطكت أسنان برنارد وهو يقول : « إنهم يتحدثون عنها كأنها قطعة من اللحم . يظفر بها هذا أو يظفر بها ذاك كأنها لحم الضأن . إنهم ينحطون بها فيعاملونها كأنها ضأن . لقد قالت إنها سوف تفكر في الأمر . وقالت إنها سوف تجيبني هذا الأسبوع . أي فوردي ، يا فوردي . » وكان يحب أن يتوجه إليهما ويضربهما على وجههما ضرباً شديداً مرة بعد أخرى

وكان هنري فستري يقول : نعم إنني حقاً أنصح لك أن تجربها . خذوا مثلاً ميلاد الأطفال بغير حمل . لقد رسم بفتسنر وكواجوشي الطريقة الفنية لذلك كاملة . ولكن هل أعارتها الحكومة اهتماماً ؟ كلا . فلقد كان هناك شيء اسمه المسيحية . وكانت النساء يرغمن على أن يبقين من الكائنات التي تتناسل بالحمل .

قالت فاني : ما أقبحه

. ولكنني أحب ملامحه .

« وهو صغير الحجم جداً » . وقطبت فاني وجهها . لأن صغر الحجم كان دليلاً على انحطاط النوع وبشاعته

قالت لينا : أظن ذلك محبباً نوعاً ما . فالمرء يحس بالميل إلى تدليه ، كأنه قط .

وكانت تلك صدمة لفاني . قالت : يقولون إن أحد العمال أخطأ معه وهو

لا يزال في القارورة . حسب من (ح) ووضع الكحول في دمه وهذا هو السبب في نقص نموه

فقلت لننا حائقة : ماهذا الهراء!

. كان التعلم أثناء النوم محرماً بالفعل في إنجلترا . وكان هناك شيء اسمه الحرية . وأصدر البرلمان - إن كنتم تعرفون ما هو - قانوناً ضدها . وما زالت السجلات باقية . لدينا خطب عن حرية الموضوع . والحرية في أن تكون عاجزاً بانساً . والحرية في أن يضع المرء نفسه موضعاً شاذاً

وريت هنري فستر على كتف مساعد مدير المصائر وقال : ولكن أؤكد لك يا عزيزي أنك سوف تلقى ترحيباً . وعلى كل حال فإن كل فرد يتعلق بكل فرد آخر وفكر برنارد ماركس وهو متخصص في التعليم أثناء النوم (هنبويديا) في التكرار مائة مرة ثلاث مرات في الأسبوع لمدة أربع سنوات . إن التكرار ٦٢٤٠٠ مرة يكون حقيقة واحدة . يا لهم من بلهاء!

. أو نظام الطبقات كانوا يقترحونه دائماً ، وينبذونه دائماً . وكان هناك شيء اسمه الديمقراطية . كان الناس كانوا متساوين في ناحية أخرى غير مساواتهم الاجتماعية الكيميائية .

. كل ما أستطيع أن أقوله إنني سوف أقبل دعوته

وكان برنارد يمتص كل المقت . ولكنهما اثنان ، عظيمان ، قويان

. بدأت حرب السنوات التسع عام ١٤١١ف

. إن ذلك لن يكون حتى لو صدق ما قيل عن الكحول في دمه

. فسجين وكلوروبكرين وإثيلويد واكتيت وديفينيلكيانارسين وتركلورمثيل كلورفورميت وكلوروثيل سلفايد . ولا داعي لذكر حامض هيدروكيانك .

واختتمت ليننا الحديث قائلة : وهو ما لأصدق

. الفجة التي تحدثها أربعة عشر ألف طائفة تتقدم بنظام صريح ولكن في

كورفرستندام وارندسمنت الثامن ، لا يكاد صوت انفجار قنابل الحجرة يعلو على

فرقة كيس من الورق منفوخ

ذلك لأنني أحب أن أرى أحد الأماكن المخصصة للمتوحشين

ك ٣ ك ٦ ٢د (٢ا) + (ك ٢ا) = ماذا ؟ جحر كبير في الأرض ، وكومة

من البناء ، وقطع من اللحم والمخاط ، وقدم مازالت تلبس الحذاء . تطير في الهواء

ثم تسقط على الأرض ، وتحدث صوتاً وسط نباتات إبرة الراعي . القرمزي منها

خاصة . لقد كان معرضاً فاخراً في ذلك الصيف!

. لا رجاء منك يا ليننا . لقد ينست منك

. وكانت الطريقة الروسية الفنية لإفساد موارد المياه طريقة فريدة تدل على النبوغ

واستمرت فاني وليننا في التغيير صامتين ، وقد ولت كل منهما الأخرى ظهرها  
حرب السنوات التسع ، والانهيال الاقتصادي الكبير ، كان الناس أمام أمرين ،  
إما السيطرة على العالم وإما دماره . إما الاستقرار وإما  
وقال مساعد مدير المصائر : إن فاني كراون فتاة جميلة كذلك  
انتهى الدرس الأول في شعور الطبقات في حجرات الأطفال ، وكانت الأصوات  
توانم بين الطلبة والإمداد الصناعي في المستقبل . وتهمس قائلة : أحب الطيران ،  
أحب الطيران ، أحب الحصول على الملابس الجديدة ، أحب  
ماتت الحرية بالطبع من أثر قبلة الحجرة . ولكنك مع هذا لاتستطيع أن تفعل  
شيئاً بالقوة

ليست هوائية كليتنا

واستمر الهمس الذي لايفتر يقول : ولكن الملابس العتيقة رديئة جداً . إننا  
دائماً نطرحها جانباً . الاستغناء عنها خير من إصلاحها . الاستغناء عنها خير من  
إصلاحها . الاستغناء عنها خير

الحكم يتم بالجلوس لا بالضرب . فأنت تحكم بالعقل والاراداف . ولاتحكم  
بقبضة اليد . فكان هناك مثلاً تجنيد الاستهلاك

قالت ليننا : «أنا مستعدة . دعينا نقيم الصلح يا عزيزتي فاني » . ولكن فاني  
بقيت صامتة متحولة عنها

كل رجل وكل امرأة وكل طفل يرغم على استهلاك قدر معين كل عام . وذلك  
لمصلحة الصناعة . والنتيجة الوحيدة

الاستغناء خير من الإصلاح كلما زاد الرتق قلت الثروة كلما زاد  
الرتق

قالت فاني مؤكدة في نغمة محزنة : سوف يشكل عليك الأمر في يوم من  
الأيام

اعتراض الضمير الحي بدرجة هائلة . أي شيء لا يستهلك . عود إلى الطبيعة

إنني أحب الطيران . إنني أحب الطيران .

عود إلى الثقافة . نعم إلى الثقافة فعلاً . إنك لاتستهلك كثيراً إذا جلست

صامتاً وأخذت تقرأ الكتب

وسألت ليننا : «هل أنا حسنة المظهر ؟» وكانت سترتها مصنوعة من قماش

حامض الزجاج الأخضر وعلى سوارها وبنيتها فراء لزج

إن ثمانمائة رجل ممن يعيشون عيشاً بسيطاً حصدهم المدافع الآلية عند

جولدرز جرين

الاستغناء خير من الإصلاح . الاستغناء خير من الإصلاح

سراويل قصيرة من المخمل المخطط الأخضر وجوارب بيضاء من الصوف اللزج مطوية إلى أسفل تحت الركب  
ثم جاءت مجزرة المتحف البريطاني الشهيرة . ألفا مروحة ثقافية مزودة بغاز دكلورثيل سلفايد  
وكانت تظلل عيني ليننا قبة خيال ملونة بالأخضر والأبيض . وحذاؤها أخضر لامع ، شديد الصقل  
قال مصطفى مند ، أدرك المراقبون في النهاية أن القوة لاتفيد . إن طريقة التناسل بغير حمل والتكيف على طريقة بأقلوف الجديدة والتعلم أثناء النوم أبطأ ولكنها أكد جداً  
وأدارت حول خصرها حزاماً موشى بالفضة أخضر اللون مصنوعاً من جلد كجلد مراكش ، يبرز منه المدد المقرر من المواد التي تمنع الحمل (لأن ليننا لم تكن خنثى) .  
- إن مكتشفات بفتسنر وكاواجوشي أُنْتُفَع بها أخيراً . والدعاية الكبيرة ضد التناسل بالحمل .  
وصاحت فاني متحمسة : « ما أكملك! » إنها لم تستطع مرة من المرات أن تقاوم سحر ليننا طويلاً . ثم قالت : وما أحلى هذا الحزام المالتسي!  
- مصحوبة بجملة ضد الماضي ، وبإغلاق المتاحف ، وتحطيم الآثار التاريخية (ولحسن الحظ تحطم أكثرها في حرب السنوات التسع) ، وبإعدام كل الكتب التي نشرت قبل عام ١٥٠ ف .  
قالت فاني : لا بد لي من الحصول على واحد مثله .  
كانت هناك . مثلاً - أشياء تسمى الأهرام .  
- إن حزامي القديم الأسود اللامع  
- ورجل يسمى شكسبير . إنكم بالطبع لم تسمعوا بهم  
- إن حزامي هذا شائن لي جداً  
- هذه هي مزايا التربية العلمية الحقيقية .  
- كلما زاد الرتق قلت الثروة كلما زاد الرتق قلت  
- إن إدخال نموذج فورد الأول رقم (ت)  
- إنه عندي منذ ثلاثة أشهر تقريباً  
- اختير بداية لتأريخ العهد الحديث .  
- الاستغناء خير من الإصلاح . الاستغناء خير  
- وكان هناك . كما قلت من قبل - شيء اسمه المسيحية .  
الاستغناء خير من الإصلاح

. إن قواعد الخلاق والفلسفة التي تتعلق بنقص الاستهلاك  
. أحب الملابس الجديدة ، أحب الملابس الجديدة ، أحب .  
. كانت ضرورية جداً عندما كان الإنتاج ناقصاً . أما في عصر الآلات وتشييت  
النتروجين . فهي قطعاً جريمة ضد المجتمع .  
. لقد أعطاني إياه هنري فستر  
. لقد أزيلت رؤوس الصلبان جميعاً فأصبحت كالحرف . وكان هناك شيء  
يسمى الله .  
. إنه من جلد مراکش الجديد الأصلي  
. عندنا الآن حكومة عالمية . وعندنا الاحتفالات بيوم فورد ، وأغانى الجماعة ،  
وصلوات التماسك .  
وكان برنارد ماركس يفكر ويقول لنفسه : «حق فورد إنني لأمقتها أشد المقتة»  
. وكان هناك شيء اسمه السماء . ولكنهم كانوا برغم ذلك يشربون كميات  
كبيرة من الكحول .  
. مثل اللحم مثل كمية من اللحم  
. وكان هناك شيء اسمه الروح . وشيء اسمه الخلود  
. أسألي هنري من أين أتى به  
. ولكنهم كانوا يتعاطلون المورفين والكوكايين  
. ومما يزيد الأمر سوءاً أنها تحسب نفسها كاللحم  
. وفي عام ١٧٨ف أعين بالمال ألفا عالم من علماء العقاقير وعلماء الكيمياء الحيوية .  
قال مساعد مدير المصائر مشيراً إلى برنارد ماركس : «إنه عابس»  
. وبعد ست سنوات أصبحوا ينتجون هذه العقاقير كاملة التركيب ويعرضونها  
في السوق  
. دعنا نفرجه  
. مخدر سار يبعث على اختلاط العقل  
«إن ماركس عابس كالح الوجه» ، وقد نبهته ضربة على الكتف فنظر إلى أعلى ، فإذا  
بذلك الرجل القاسي هنري فستر يقول : «إنك بحاجة إلى جرام من السوما»<sup>(١)</sup>  
. كل مزايا المسيحية والكحول . ولا شيء من عيوبهما  
«حق فورد أنني أتمنى أن أقتله» ولكنه اكتفى بقوله : «كلا . أشكرك»  
ونبه أنبوية الأقراص التي قدمت له .  
. تأخذ من الواقع عطله كلما أردت وتعود بغير صداع أو خرافة .

(١) السوما هي المخدر الذي يتناوله أبناء العالم الجديد كلما أصابهم حزن أو غضب .

وأنح هنري فستر قانلاً ، خذها ، خذها ،  
لقد تأكد الاستقرار عملياً

قال مساعد مدير المصائر مردداً عبارة من الحكم الهنوبيديّة المألوفة : إن  
ستيمتراً مكعباً واحداً يشفي عشراً من العواطف الحزينة  
- ولم يبق إلا أن تتغلب على الشيوخة  
وصاح برنارد ماركس قانلاً : تباً لك  
- على رسلك .

- هرمونات جوناډال Gonadal ، ونقل دم الشباب ، وأملاح المغنيزيوم  
« أذكر أن الجرام خير من التباب » ، ثم انصرفوا ضاحكين .

- إن كل الوصمات الجثمانية للشيوخة قد أزيلت وزالت معها بالطبع  
قالت فاني : لاتنسي أن تسأليه عن ذلك الحزام المالتسي

- وزالت معها كل الخصائص العقلية عند الشيوخ . فالشخصية تبقى ثابتة طوال الحياة .

- بقي شوطان من جولف الموانع تنمها قبل الظلام . لا بد أن أطير

- العمل واللعب . إن قوانا وذوقنا تبقى في الستين على ما كانت عليه في

السابعة عشرة . لقد اعتاد الشيوخ في الأيام السالفة السيئة أن يبتعدوا

ويعتزلوا ، ويتدينوا ، وينفقوا الوقت في القراءة والتفكير - التفكير!

وكان برنارد ماركس يقول لنفسه وهو يسير في الممر صوب المصعد : يا لهم  
من حمقى خنازير!

- نعم هذا هو التقدم . الشيوخ يعملون ، والشيوخ ينكحون . إن الوقت

لا يتسع للشيوخ . فهم لا يفرغون من المتعة . ولا يجدون لحظة واحدة يجلسون فيها

للتفكير . وإذا سنحت لهم . لسوء حظهم فرجة من الوقت تشق لهوهم المتصل ،

فهنالك السوما اللذيذة . يتناولون منها نصف جرام لعطلة نصف اليوم ، وجراماً لعطلة

نهاية الأسبوع ، وجرامين لرحلة إلى بلاد الشرق العظيمة ، وثلاثة لرحلة أزيلية

مظلمة في القمر . ثم يعودون من فراغهم آمنين مطمئنين إلى عملهم اليومي المستقر

والى لهوهم ، يفرون من دار من دور الصور المحسة إلى أخرى ، ومن فتاة إلى أخرى

هوائية . ومن شوط من الجولف الممغنطس الكهربائي إلى . . .

وصاح المدير غاضباً : انصرفي أيتها الفتاة الصغيرة . انصرف أيها الغلام! ألتما

تريان أن صاحب السيادة منهمك في العمل ؟ انصرفا وتلهيا بالحب في مكان آخر

وقال المراقب : يا لهم من أطفال مساكين

وسار الجمالون مبطين متعاطفين ، مصحوبين بدوي الآلات الخفيف ، يقطعون ثلاثة

وثلاثين ستيمتراً في الساعة . وتألّق في الظلام الأحمر عدد من الياقوت لا يحصى



## الفصل الرابع

كان المصعد يفص بالرجال من حجرات (١) للتغيير ، وقد قوبلت ليننا عند دخولها بالإيماء الودي والابتسام تحية لها . فلقد كانت فتاة محبة إلى الجميع ، قضت مع كل منهم تقريباً ليلة في وقت من الأوقات

وقالت لنفسها وهي ترد التحية إنهم أولاد أعزاء . لهم سحر وقتة! وبرغم هذا فكم كانت تود لو لم تكن أذنا جورج ادزل بهذا الحجم الكبير (ربما أعطى نقطة أكثر مما ينبغي من باراثيرويد عند المتر ٢٢٨) . ونظرت إلى بنتو هوفر فلم يسمعها إلا أن تذكر أنه حقاً يبدو كثيف الشعر عندما يخلع ملابسه .

والتفتت إلى إحدى الزوايا بعين حزينة لذكرى شعر بنتو الأسود المجمع فرأت برنارد ماركس بجسمه الصغير النحيل ووجهه المكتئب الحزين فتوجهت نحوه وقالت : « برنارد! لقد كنت أبحث عنك » . ورن صوتها في وضوح وعلا على دوي المصعد وهو يرتفع . والتفت الآخرون مستطلعين الخبر

قالت : « كنت أود أن أتحدث معك عن خطة المكسيك الجديدة التي وضعناها » واستطاعت أن ترمق بطرف عينها بنتو هوفر وهو فاغر فاه من الدهشة . فسأها انفراج فمه . وقالت لنفسها : « يدهشني أنني لم أتوسل إليه أن أرافقه مرة أخرى! » ثم رفعت عقيرتها بالكلام مرة أخرى وقالت بحرارة لم تألفها : « إنني أحب أن أرافقك أسبوعاً في شهر يولييه . (وكانت على أي حال تبرهن علانية على خيانتها لهنري . وينبغي أن تسرفاني لذلك : حتى إن كانت الخيانة مع برنارد) . وابتسمت له ليننا ابتسامة حلوة لها معناها وقالت : هذا إن كنت لاتزال تحب رفقتي فتدفق الدم في وجه برنارد الشاحب . وساءلت ليننا نفسها متسجبة مندهشة :

« ما الذي يدعو إلى ذلك ؟ » ولكنها في الوقت نفسه تأثرت لهذه الاستجابة العجيبة لنفوذها

وقال برنارد وهو يتلجلج : « ألا يجدر بنا أن نتحدث في ذلك في مكان آخر ؟ » وبدأ عليه عدم الارتياح بصورة مزعجة .  
وقالت ليننا لنفسها : كأنني أتحدث عن شيء منفر . لأحسب أنه يشتمز أكثر من ذلك لو أنني تفككت بنكتة قذرة . كأن أسأله من تكون أمه ، أو ما شابه ذلك .

وارتبك واضطرب ثم قال : أقصد ، أنه مع وجود كل هؤلاء حولنا وضحكت ليننا ضحكة صريحة لاتمم عن شيء من الحقد وقالت : « يا لك من رجل مضحك » وكانت بالفعل تحسبه رجلاً مضحكاً . وقالت بنفحة أخرى : إنك سوف تنذرني قبل الموعد بأسبوع على الأقل . أليس كذلك ؟ أظن أننا سوف نستقل الصاروخ الهادي الأزرق . هل يبدأ من برج شارنج . ت أو من هامستد ؟  
وقبل أن يستطيع برنارد الإجابة وقف المصعد  
ونادى صوت له صرير : السطح !

وكان عامل المصعد مخلوقاً صغيراً كالفرد ، يرتدي قميصاً أسود من قمصان أنصاف المعتوهين من نوع (-هـ)  
السطح !

وفتح الأبواب على مصاريعها . وقد ارتعد قليلاً واهتزت جفونه عندما التقت عيناه بضياء الشمس الدافئ الزانع بعد ظهر ذلك اليوم . فكرر لفظة « السطح ! » في صوت المبتهج . وكأنه تنبه فجأة من سبات مهلك مظلم فسر لذلك كثيراً وصاح :  
السطح !

وابتسم في وجه الراكبين ابتسامة المترقب المعجب . فبرزوا إلى الضياء وهم يتكلمون ويتضحكون . وكان عامل المصعد يرعاهم وهم يخرجون  
وقال مرة أخرى متسائلاً : هذا هو السطح ؟

ثم دق أحد الأجراس ، وكان بسقف المصعد مكبر للصوت أخذ يصدر أوامره بصوت ناعم ثابت

قال الصوت : اهبطوا . اهبطوا . الطابق الثامن عشر . اهبطوا . اهبطوا الطابق الثامن عشر . اهبطوا

وأغلق عامل المصعد الأبواب محدثاً صوتاً عالياً ، ثم مس بيده أحد الأزرار ، وهبط المصعد في الحال في فجوة تدوي بالطنين . وعاد العامل إلى ضوء كالشفق ، هو ضوء السبات الذي ألف

وكان الجو على السطح دافئاً مضيئاً . وكانت ساعة الأصيل في فصل الصيف

تبعث على النعاس لما يتردد فيها من طنين السيارات الطائرة helicopters. والدوي الشديد الذي تحدثه الطائرات الصاروخية وهي تخترق السماء اللامعة بسرعة غير مرئية على ارتفاع خمسة أميال أو ستة. كان أشبه ما يكون بملاطفة الهواء اللين . وشوق برنارد ماركس شهيقاً عميقاً . ورفع بصره نحو السماء وحول الأفق الأزرق ثم في النهاية إلى وجه ليننا

وقال بصوت مرتعش : أليس هذا جميلاً!

فتبسمت له معبرة عن إدراكها لما يعنيه مع عطفها الشديد عليه . وأجابت وهي في نشوة من السرور : « الجو أصلح ما يكون للعبة جولف الموانع . والآن لا بد لي من أن أطيّر يا برنارد . إن هنري يفضّب إذا خليته منتظراً . أخبرني في الوقت المناسب عن التاريخ » . ثم لوحّت بيدها وجرت إلى الجانب الآخر من السطح الفسيح المستوي صوب حظائر الطائرات . ووقف برنارد يرقب بريق الجوارب البيضاء وهي تعود القهقري ، والركبتين المحترقتين من حرارة الشمس وهما تثنّيان ثم تستقيمان بنشاط بالغ مرة بعد أخرى ، والسراويل القصيرة المخملية المخططة المتصقة بجسمها وهي تدور برفق تحت سترتها التي هي في خضرة القوارير . وارتسمت على وجهه ملامح الألم .

وسمع خلفه صوتاً مرتفعاً مبتهجاً يقول : لا بد لي أن أعترف بجمالها .

فتنبه برنارد وتلفت حوله ، فإذا بوجه بنتو هوفر الأحمر المنتفخ يشرق عليه بشيء من الإخلاص البادي . وكان بنتو معروفاً بطبعه الطيب ، مؤاخذاً عليه . ويقول عنه الناس إنه يستطيع أن يشق طريقه في الحياة دون أن يمس السوما . ولم يصب قط بالحقّد وحدة المزاج التي تصيب غيره من الناس فيستأجزونها . وكانت الحقيقة تسطع دائماً لبنتو مشرقة كالشمس

قال بنتو : « هو هوائي أيضاً ، ولكن كيف كان ذلك! » وبنفمة أخرى قال : « ولكنني أراك مكتئباً! إنك في حاجة إلى جرام من السوما » . ودفع يده في الجيب الأيمن من سرواله ، وأخرج منه قنينة ، ثم قال : « إن ستيتمتراً واحداً مكعباً يشفي عشرة مكتئبين . ولكن اسمع يا والتف برنارد فجأة ثم انطلق .

وتابعه بنتو بالنظر محدقاً فيه وقال متعجباً : « ماذا عسى أن يكون بهذا الرجل ؟ » ثم هز رأسه ، وقرر أن قصة صب الكحول في دم هذا المسكين لا بد أن تكون صادقة . ثم قال : « أظن أنه مس ذهنه » .

ثم أعاد قنينة السوما إلى جيبه وأخرج صندوقاً صغيراً من لبان الهرمونات

الجنسية ، زملاً أحد شذقيه بقطعة منه وسار متباطناً نحو حظيرة الطائرات ، وهو يعض اللبان

وكانت طائرة هنري فستبر قد أخرجت على عجالاتها من مخبئها ، وكان وقتما وصلت ليننا معتلياً مكان السائق منتظراً

ولما اتخذت مكانها إلى جانبه لم يزد على قوله : « لقد تأخرت أربع دقائق » ثم سير الآلات وأعد طائرتها للتخليق . فاندفعت الآلة رأساً في الفضاء . وزاد هنري من سرعتها . وتحول طنين المحرك من صوت الدبور الكبير إلى صوت الدبور الصغير ثم إلى صوت الناموسة . وأظهر مقياس السرعة إنهما كانا يرتفعان ما ينيف عن الكيلومتريين في الدقيقة وتضاءلت لندن تحت بصرهما . وأصبحت المباني ذات السطوح المستوية . بعد بضع ثوان . كحوض من نبات الفطر هندسي الشكل ينبت وسط خضرة البساتين والحدائق . ووسط تلك المباني كان برج شارنجر . ت وهو كساق نبات الفطر الدقيق غير أنه أطول منها وأرق . يرفع صوب السماء قرصاً من الخرسانة اللامعة

وانطلقت في السماء الزرقاء فوق رؤوسهم كسف من السحاب كاللحم المترهل وهي أشبه ما تكون بجذوع الرياضيين الخياليين ذات الأشكال الغامضة قال هنري : « ذلك هو الصاروخ الأحمر . قدم الآن من نيويورك . ونظر إلى ساعته وهز رأسه قائلاً : لقد تأخر سبع دقائق . هذه الطائرات التي تعبر الاطلانطيق تخلف مواعيدها بدرجة شائنة .

ورفع قدمه عن محرك السرعة ، فهبط دوي اللوالب فوق رأسه ثماني درجات صوتية ونصف ، فسمع مرة أخرى صوت كصوت الدبور الصغير فالدبور الكبير فالنملة فالخنفساء . وهبطت سرعة الاندفاع إلى أعلى . وبعد لحظة كانا معلقتين في الفضاء بلا حراك . ودفع هنري أحد الروافع ، فسمعت طقطقة . وبدأ المحرك يدور أمام أعينهما ، في حركة بطيئة أول الأمر ، ثم أخذ يسرع شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح كالضباب المستدير . وأخذت الريح تهب من سرعة الانطلاق الأفقي وتصفى في الحواجز ويعلو صفيرها شيئاً فشيئاً . وثبت هنري نظره في عداد الدورات . فلما سمت الإبرة العلامة التي تدل على ١٢٠٠ أوقف لوالب الطائرة . ولكن الآلة كانت تحتفظ بقوة اندفاع تكفي طيرانها بغير محرك

ونظرت ليننا إلى أسفل خلال النافذة السفلية بين قدميها . فعرفت أنهما كانا يطيران فوق منطقة الستة كيلومترات من الحدائق التي تفصل وسط لندن عن الحلقة الأولى من ضواحيها التابعة لها . وقد بدت الأحياء فوق الخضرة كالديدان لبعدها عن النظر . وكانت العمدان المتكاثفة للعبة التنس الجديدة تتألق بين الأشجار . وعند شجيرة الراعي كان ألفا شخص من طراز (-ب) يختلطون أزواجاً أزواجاً ويلعبون

تنس ريمان . واصطف في الطريق الرئيسي من تنتج هل إلى ولزذن صف مزدوج من نوع خاص من الدرج المتحرك . وفي ملعب إيلنج عرض لألعاب جماعية من طراز (د) وغناء جمعي

وقالت لنا : « ما أقبح اللون الكاكي » مرددة ما أوحى إلى أبناء طبقتها بطريقة التعلم أثناء النوم .

وكانت مباني مسرح هاونسلو للصور المحسة تغطي سبعة هكتارات ونصف<sup>(١)</sup> وإلى جوارها جيش من العمال يرتدون الأسود والكاكي منهمكين في إعادة تزجيج سطح طريق الغرب الكبير . وكانت إحدى البوتقات الضخمة تقرر وهما يطيران فوقها . ويصب الحجز المنصهر في مجرى يعبر الطريق من جانب إلى آخر ويتوهج توهجاً يبهز العين . واسطوانات الاسبتس (وهو مادة لا تحترق) تتحرك جيئة وذهاباً وفي ذيل عربة للري معزولة كانا يريان البخار يرتفع على هيئة سحب بيضاء

وعند برنتفورد بدا مصنع شركة التلفزيون كالمدينة الصغيرة

قالت : « لاشك أنهم يغيرون الدور

وتجمع النبات من طراز (ج) اللاني كن في خضرة أوراق الشجر ، وأنصاف المعتوهين السود ، حول المداخل كما تتجمع الندوات العسلية أو النمال . ووقف بعضهم في صفوف كي تأخذ كل متهم مكانها بدورها في عربات الترام التي تسير على قضيب واحد . أما الأشخاص من طراز (ب) الذين كانوا في لون التوت فكانوا ينسحبون جيئة وذهاباً بين الجمهور المحتشد . وكان سقف البناء الرئيسي يوج بحركة الصعود في طائرات الهليكتر والرحيل على متنها

قالت لنا : « كم أنا مسرورة لأنني لست من الطراز (ج) »

وبعد عشر دقائق بلفوا ستوك بوجز وبدؤوا الشوط الأول من لعبة جولف

الموانع

## ٢

أسرع برنارد إلى الجانب الآخر من السطح ، وعيناه في أكثر الوقت منكستان . وإذا وقعتا على زميل ما تحولا عنه بفتة وخلسة . وكأنه رجل مطارده يقتفي أثره أعداء لا يحب أن يراهم خشية أن يظهر له أشد عداوة مما كان يحسب ، وخشي أن يزيد إحساسه بالإثم وبالغزلة التي ليس له فيها معين . هناك مثلاً بنتو هوفر . ذلك الرجل البشع كان رجلاً حسن النية . ولكن ذلك

(١) الهكتار يساوي عشرة آلاف متر مربع .

كان يزيد الأمر سوءاً من ناحية ما . فإن أولئك الذين حسنت نياتهم كانوا لا يختلفون في سلوكهم عن أولئك الذين ساءت نياتهم . ولقد كان يقاسي حتى من ليننا . وتذكر تلك الأسابيع التي لازمه فيها الجبن والتردد ، حينما كان يتطلع ويتشوق ولكنه يانس من التشجيع على سؤالها . هل كان يجزؤ على مواجهة الخطر الذي ينشأ عن إذلاله برفض مشوب بالازدراء ؟ ولكنها إن قالت نعم شاع في قلبه السرور . والآن هاهي ذي تقول نعم ، ولكنه لا يزال بانساً حزيناً لأنها رأت مساء ذلك اليوم خير الأمسية للعبة جولف الموانع ، فهرولت للقاء هنري ، ولأنها حسيت رجلاً غريب الأطوار لأنه لم يرد أن يتحدث علناً في أخص شؤونهما . إنه - بمباراة أخرى - بانس لأنها سلكت كما تسلك أي فتاة انجليزية صحيحة البدن ، ولم تسلك سلوكاً آخر شاذاً غير عادي .

وفتح باب محبسه ونادى خادمين مسترخيين من طراز (د) وطلب إليهما أن يدفعا طائرته إلى الخارج فوق السطح . وكان يقوم بالعمل في حفاظن الطائرات جماعة بوكانوفسكية واحدة ، والرجال هناك توائم ، متشابهون ، صفار الحجوم ، سود يبعثون التققز والاشمنزاز . وألقى برنارد أوامره في نفمة حادة تشف عن الاستعلاء بل والاعتداء . وهي النفمة التي يتحدث بها الرجل إذا لم يكن مطمئناً إلى سجموه على غيره . وكان برنارد دائماً يشعر بالضيق الشديد عند التعامل مع أفراد الطبقات الدنيا . لأن تركيبه الجسماني - لسبب ما - لم يكد يتفوق على التركيب الجسماني للفرد المتوسط من طراز (ج) . (ويحتمل جداً أن تكون الشائفة الساندة عن وجود الكحول في دمه صحيحة ، لأن أمثال هذه الحوادث قد تقع) . كان طوله ينقص ثمانية سنتيمترات عن رجل أصيل من الطراز (ا) . وكان نحيفاً نسبياً . وكان اتصاله بالأفراد من الطبقات الدنيا دائماً يذكره بهذا النقص الجسماني ويؤله . وكان يردد في نفسه هذا القول : «وددت لو لم أكن كما أنا» . وكان إحساسه بنفسه شديداً وباعثاً على الضيق . وكلما التقى برجل من طراز (د) ورأى أنهما في مستوى واحد ، وأنه لا ينظر إليه من عل ، أحس بالذلة والخنوع . وتساءل هل يعاملني هذا المخلوق بالاحترام الواجب لأبناء طبقتي ؟ وكان هذا السؤال يؤرقه في كل حين . وله في ذلك المعضرة . لأن (هـ ، د ، هـ) قد تكيفوا إلى حد ما على ربط ضخامة الجسم بعلو المكانة الاجتماعية . وفي الحق إن شيئاً من الإعجاب بالضخامة كان شائعاً من أثر الإيحاء أثناء النوم . ومن ثم كانت النساء اللاتي يتقرب إليهن يسخرن منه ، وأضرابه من الرجال يهزؤون به . فكان من أثر السخر يحس بأنه رجل غريب . ويدفعه هذا الإحساس إلى أن يسلك سلوك الغريب ، فكان ذلك يزيد من التحيز ضده ويقوي الاحتقار والازدراء والعداوة التي تشيرها عيوبه الجسمانية . وهذا بدوره يزيد من إحساسه بالفراة والعزلة . . وتوكد لديه

خوفاً دائماً من استخفاف الناس به فكان يتحاشى أضرابه ، ويقف من دونه موقف الرجل لايفارقه الإحساس بكرامته . وكان شديد الحسد للرجال من أمثال هنري فستر وبنيتو هوفر . أولئك الذين لايشعرون بضرورة الصياح للناس من طراز (هـ) كي يطاع لهم أمر ، أولئك الذين لايفكرون في مراكزهم ، أولئك الذين يتحركون وسط هذا النظام الطبقي كما تتحرك السمكة في الماء . فهم مطمئنون أشد الاطمئنان حتى إنهم لايدركون وجود أنفسهم ، ولايدركون العناصر النافعة المريحة التي نشؤوا في أحضانها

وظن برنارد أن الخادمين التوأمين أخرجاً طائرته إلى السطح على عجلاتها متباطئين متمنعين

فقال ثائراً : «أسرعوا» فرمقه أحدهم بنظرة . وهل كان مايراه في أعينهم الرمادية التي لايرتسم عليها شيء . ضرباً من ضروب الاحتقار الدنيء ؟ فعلا صوته بالصياح قائلاً : «أسرعوا» وكان بصوته خشونة قبيحة . واعتلى الطائرة ، وحلق بها بعد دقيقة واحدة جنوباً صوب النهر .

كان مقر مكاتب الدعاية المختلفة وكلية هندسة العواطف في بناء واحد من ستين طابقاً في شارع فليت . وكنت ترى بالدور السفلي وفي الطوابق الدنيا مطابع ومكاتب صحف لندن الثلاث الكبرى وهي : «راديو الساعة» ، وهي صحيفة للطبقة العليا ، والغازيت (ح) ذات اللون الأخضر الشاحب «والمرأة (د)» وهي صحيفة لونها كاكبي وكل كلماتها من مقطع واحد . وتأتي بعد ذلك على التتابع مكاتب الدعاية بالتلفزيون ، وبالصورة المحسنة ، وبالصوت الصناعي والموسيقا . وهي تشغل اثنين وعشرين طابقاً . وتعلوها معامل البحث والحجرات المبطنة التي يؤدي فيها كتاب الشارات الصوتية والمؤلفون الصناعيون عملهم الدقيق . أما الطوابق الثمانية عشر العليا فكانت تشغلها كلية هندسة العواطف .

وهبط برنارد بطائرته على سطح بيت الدعاية ثم نزل منها وأمر حملاً من طراز (هـ) أن يدق الجرس لمستمر هلمهلتز واطسن ويخبره أن برنارد ماركس بانتظاره فوق السطح

ثم جلس وأشعل لفافة تبغ وكان هلمهلتز واطسن يكتب حينما بلقته الرسالة .

فرد قائلاً : «قل له إنني أت في الحال» ثم علق السماعة . والتفت إلى سكرتيرته وقال لها محتفظاً بنغمة الكلام الرسمية غير الشخصية : «سأتركك لتحفظي أشياءني هذه» وتجاهل ابتسامتها المشرقة ونهض وسار بهمة نحو الباب .

كان رجلاً قوي البنية ، واسع الصدر ، عريض المنكبين ، ضخماً غير أنه سريع الحركة ، خفيف لذن العود ، ويرتكز فوق عمود رقبتة القوي المستدير رأس جميل

التكوين .. شعره اسود مجعد ، وملامحه واضحة القسّات . شديد الأناقة ، قوي التأثير في الناظر إليه . وكل ستيتمتر منه يدل على أنه (+) كما تقول سكرتيرته وتكرّر القول بغير كلال . مهنته محاضر بكلية هندسة العواطف (قسم الكتابة) وفي فترات تتخلل أعماله التعليمية يشتغل كمهندس للعواطف . وكان يكتب بانتظام في «راديو الساعة» ويؤلف صوراً للسينما المحسة ، بارعاً أشد البراعة في صياغة كلمات الشعار ونظم عبارات الإيحاء الهيبوبيدي .

يحكم عليه رؤساؤه أنه «قدير . وربما كانت قدرته أشد مما ينبغي» . ويقولون عنه ذلك وهم يهزون رؤوسهم ويخفضون أصواتهم تخفيضاً له مغزاه أجل لقد كانت قدرته أشد مما ينبغي . ولقد أصابوا فيه الحكيم . وقد أحدث التفوق العقلي في هلمهلتز واطسن آثاراً شديدة الشبه بما أحدثه النقص الجثمانى في برنارد ماركس . كان برنارد قليل العظام كثير العضلات فانهزل عن قرائنه . ولما كان هذا الإحساس بالعزلة بكل المعايير السائدة تفوقاً عقلياً فقد أصبح بدوره سبباً في زياد الاعتزال . وكذلك شدة اقتدار هلمهلتز جعلته شديد الإحساس بنفسه ويهزلته بدرجة مقلقة . فكان الرجلان يشتركان في العلم بأنهما فريدان بين أضرابهما . كان برنارد ذو العيب الجثمانى يعاني طوال حياته من إحساسه بالعزلة ، ولكن هلمهلتز واطسن لم يدرك تفوقه العقلي إلا منذ عهد قريب جداً فأصبح كذلك يدرك الخلاف بينه وبين الناس المحيطين به . كان هذا الرجل بطلاً في لعبة السكواش على الدرج المتحرك . كان عاشقاً لايفتر (يقال إنه اتصل بستمانة وأربعين فتاة مختلفة في أقل من أربع سنوات) كان عضواً في الجماعات يدعو إلى الإعجاب . يتقن الاختلاط . ولكنه أدرك فجأة أن الألعاب والنساء والنشاط الاجتماعى بالنسبة إليه مزايا ثانوية . أما في الواقع وفي حقيقة الأمر فقد كان يهتم بشيء آخر . ولكن بماذا ؟ تلك هي المشكلة التي أتى برنارد ليناقشها فيها . أو قل إنه أتى ليستمع إلى صديقه مرة أخرى وهو يناقشها ، لأن هلمهلتز كان دائماً يقوم وحده بالحديث ..

والتقت به وهو يخرج من المصعد ثلاث فتيات فانتات من مكتب الدعاية بالصوت الصناعى

فتعلقن به وتوسلن إليه قائلات : عزيزنا هلمهلتز ، رجاؤنا أن ترافقنا إلى أكسمور وتتناول معنا طعام العشاء

فهز رأسه وشق طريقه وسطهن قائلاً : كلا ، كلا ،  
لنا لن ندعو رجلاً آخر ..

ولكن هلمهلتز لم يهتز حتى بعد هذا الوعد الجميل . فأجاب قائلاً : « كلا  
إنني مشغول » . وواصل سيره في عزم شديد ، فتعلقت البنات بأذياله . ولم ييئسن



من متابعتة إلا بعدما اعتلى فعلاً طائفة برنارد وأغلق بابها . ولم يخل من تأنيبهن وارتفعت الطائر في الفضاء وهو يقول : « عجباً لهؤلاء النسوة ! » وهز رأسه وقطب جبينه . ثم قال : « ما أشد إزعاجهن » وواقفه برنارد نفاقاً ودهاناً ، متمنياً . وهو يتفوه بالكلام . أن يكون له من البنات ما لهلمهلتز ويقليل من المشقة مثله . ثم استولت عليه فجأة رغبة ملحة في الزهو بنفسه فقال : « إنني سوف أصطحب ليندا كراون إلى المكسيك الجديدة » وقد تكلف أن يكون الحديث عرضياً غير مقصود ولم يهتم لهلمهلتز البتة لذلك فقال : « أفهذا صحيح ؟ » وصمت هنيهة ثم قال : « لقد انقطعت . خلال الأسبوع أو الأسبوعين السابقين عن جميعاتي وفتياتي جميعاً ولاستطيع أن تتصور الضجة التي أحدثوها في الكلية من أجل ذلك . ولكن الأمر كان يستدعي ذلك فيما أظن . والنتائج . » وهنا تردد في الكلام ثم قال : « ماذا أقول ؟ إنها عجيبة جداً »

إن النقص الجثمانى قد يسبب فيض النشاط العقلي . والظاهر أن العكس صحيح ، فالنشاط العقلي المتوفر يجوز . لأغراضه الخاصة . أن يؤدي بصاحبه إلى عزلة مقصودة يتكلف فيها العمى والصمم ، كما يؤدي إلى الزهد الذي يتصنع فيه المعجز المطلق

ولبثا بقية الرحلة الهوائية القصيرة صامتتين . ولما بلغا غرفة برنارد واستلقيا مسترخيين فوق الأرائك الهوائية عاد لهلمهلتز إلى الحديث . فقال في بطنه شديد : « هل أحسست مرة كأن شيئاً بداخلك ينتظر منك أن تتبجح له الفرصة كي ينطلق ؟ ضرباً من ضروب القوة الفائضة التي لاتستخدمها . كالماء الذي يتدفق من المساقط بدلاً من أن يتخلل الآلات البخارية » . وألقى على برنارد نظرة المستفهم

تقصّد العواطف التي يحس بها المرء حينما تسير الأمور على غير ما يهوى ؟ فهز لهلمهلتز رأسه وقال : « ليس هذا بالضبط ما قصدت إليه ، إنما أقصد ذلك الشعور العجيب الذي يتأبني أحياناً ، وهو الشعور بأن لديّ أمراً مهماً أريد أن أعبر عنه ، كما أن لديّ القدرة على التعبير غير أنني لأدري ما هو ، فلا أستطيع أن أستفيد من قدرتي على التعبير . لو كانت هناك طريقة أخرى للكتابة . . أو لو كان هناك شيء آخر أكتب عنه . . » . وسكت عن الكلام لحظة ثم عاد يقول : « إنني بارع في اختراع التعابير . إنك تعرف ذلك الضرب من الكلمات التي تجعلك تثب بفتة كأنك جالس على دهبوس . لقد بلغت هذه الكلمات درجة كبيرة من الجدة والقدرة على الإثارة والتنبية حتى إن كان كانت تعبر عن شيء واضح من وجهة الإيحاء النومي . ولكن هذا لا يكفي لا يكفي أن تكون العبارات جيدة . وإنما ينبغي كذلك أن تؤدي بها عملاً طيباً »

. ولكن أعمالك طيبة يا هلمهلتز ؟

فهز هلمهلتز كتفيه وقال : هي كذلك إلى حد ضئيل . فهي ليست من الأهمية بمكان . وإني أحس أنني أستطيع أن أؤدي عملاً أكثر من ذلك أهمية ، وأكثر غزارة وأشد عنفاً . ولكن ماذا عسى أن يكون ذلك ؟ وماذا عساي قاتل مما هو أكثر أهمية ؟ وكيف يستطيع المرء أن يكون عنيفاً في الأشياء التي ينتظر منه أن يكتب عنها ؟ إن الكلمات يمكن أن تكون كأشعة إكس إذا أحسنت استعمالها . إنها تخترق أي شيء . تقرأها فتطعنك . وهذه أحد الأشياء التي أحاول أن أعلمها تلاميذي : كيف يكتبون كتابة تلمن القارئ . ولكن ما الجدوى من إحساس القارئ بالطمع من مقال عن الفناء الجمعي أو عن أحدث التحسينات في أعضاء الشم ؟ ثم هل تستطيع أن تجعل الكلمات طاعة حقاً . كأقوى أشعة إكس . حينما تكتب عن مثل هذه الأشياء ؟ هل تستطيع أن تقول شيئاً عن لا شيء ؟ هذا ما يؤول إليه الأمر في النهاية . إني أحاول وأحاول . . .

وقال برنارد بفتة : « أنصت » ورفع إصبعه منذراً صاحبه . وأصغيا ، ثم همس قائلاً : أعتقد أن أحداً ما عند الباب .

فنهض هلمهلتز ، وسار على أطراف أصابعه إلى الجانب الآخر من الغرفة ، وفتح الباب على مصراعيه بحركة حادة سريعة . ولكنه بالطبع لم يجد أحداً فقال برنارد وقد أحس بسخفه وبدا عليه هذا الإحساس : آسف . وما أحسب إلا أن أعصابي مضطربة بعض الاضطراب . إذا ارتاب الناس في أمرك داخلتك الريبة في أمورهم .

وحرك يده فوق عينيه ، ثم تنهد ، وقال يبرر نفسه في صوت الشاكي : « لو عرفت ما كان ينبغي لي أن أقاسي في العهد الأخير . لو علمت ذلك . . . » وامتلات عيناه بالدموع ، وأشفق على نفسه إشفافاً أنبثق منه كما تنبثق مياه النافورة إذا أطلقتها بفتة .

واستمع إليه هلمهلتز واطسن وقد أحس بشيء من القلق . وقال محدثاً نفسه : « مسكين برنارد ! » ولكنه أحس في الوقت نفسه بالتحجل من أجل صاحبه . وود لو أن برنارد أظهر شيئاً من الكبرياء أكثر من ذلك .

## الفصل الخامس

لما بلغت الساعة الثامنة أخذ الضوء يتلاشى ، وبدأ مضخم الصوت في برج نادي ستوك بوجس يعلن انتهاء أشواط اللعب في صوت أقوى من صوت الإنسان . فكفت ليننا وهنري عن اللعب وسارا عاندين نحو النادي . وسمع خوار آلاف الماشية صادراً من ميادين « اتحاد الأفرار الداخلي والخارجي » ، وهي الماشية التي تمد بهرموناتا وألبانها المواد الخام للمصنع العظيم في فارنهام الملكي وملاً الجو ساعة الأصيل دوي طائرات الهليكبتر الذي لا ينقطع . وكان دق الجرس وصياح الصفاير يعلن كل دقيقتين ونصف قيام إحدى القاطرات الخفيفة التي تسير على قضيب واحد حاملة لاعبي الجولف من الطبقات الوضيعة من ميدانهم المنفصل إلى العاصمة .

واعتلت ليننا وهنري طائرتهما ثم انطلقا . وعلى بعد ثمانمائة قدم مس هنري المفاتيح ليبطئ سرعة الطائرة . ولبثا معلقين دقيقة أو دقيقتين فوق المناظر الطبيعية المتلاشية . ووقعت أبصارهما على غابة برنام من أشجار لازان وكأنها بركة عظيمة من الظلام تمتد نحو الأفق الغربي المشرق بالضياء . واختفت الشمس الغاربة تحت الأفق القرمزي خلال اللون البرتقالي الذي تعلوه الصفرة فاللون الأخضر الشاحب المائي . وفي الشمال خلف الأشجار وفوقها كان النور الكهربائي القوي اللامع يشع من نوافذ الطوابق العشرين التي يتألف منها مصنع الافرازات الخارجية . وتحتها تقع مباني نادي الجولف . المكنتات الضخمة للطبقة الدنيا . وعلى الجانب الآخر من حائط فاصل البيوت الصغيرة المحجوزة للأعضاء من طراز (أ) و(ب) . واسودت مشارف محطة القطار الذي يسير على قضيب واحد بأبناء الطبقة الدنيا الذين كانوا يدبون كالنمل

المتكاثرة . ومن تحت القبو الزجاجي اندفع في الفضاء قطار مضئ ، وسار في طريقه الجنوبي الشرقي يخترق السهل المظلم ، فاجذبت عيون الناس نحو المباني الفخمة التي كانت تستخدم كحماة لإحراق الجثث . وكان لها أربع مداخن طويلة تنعكس عليها الضوء ، وعلى قممها علامات الخطر القرمزية لهذاية الطائرات التي تخلق أثناء الليل . فكان المكان علماً من معالم الطريق .

وسألت ليننا قائلة : لماذا وضعت حول المداخن هذه الأشياء التي تشبه الشرفات ؟

فأخذ هنري يشرح لها في عبارة موجزة إيجاز البرقيات . قال : «استرداد الفسفور . إن الغازات في مسيرها إلى أعلى المداخن تمر بأربع عمليات . كان فر ٢/٢ فيما مضى يخرج من الدورة رأساً كلما أحرقوا شخصاً من الأشخاص . أما الآن فهم يستردون أكثر من ٩٨ في المائة منه . وذلك أكثر من كمية ونصف من جثة الرجل البالغ . ويكون ذلك أكثر من أربعمئة طن من الفسفور كل عام في إنجلترا وحدها » . وكان هنري يتحدث في سرور وإعجاب ، مبتهجاً بكل قلبه بهذه النتيجة كأنها نتيجة عمله الخاص . ثم قال : ما أجمل أن نعرف أننا نبقى نافعون للمجتمع حتى بعد الممات . إننا نساعد النبات على النمو

وكانت ليننا في تلك الأثناء قد حولت عينيها عن هذا المنظر . وصوبت نظرها عمودياً إلى أسفل عند محطة القطار الذي يسير على قضيب واحد . وقالت : أجل هذا جميل . ولكن من العجب أن الأفراد من (أ) و(ب) لا ينبتون زرعاً أكثر من أفراد (جـ) و(د) و(هـ) الصغار القذرين الذين أراهم تحت بصري

فقال هنري موجزاً : كل الناس متساوون في التركيب الطبيعي والكيميائي ثم إن الأفراد جميعاً حتى من طراز (هـ) يؤدون خدمات لا غنى عنها .

وذكرت هذه العبارة « حتى الناس من طراز (هـ) . » ليننا فجأة بحادث وقع لها أيام أن كانت طفلة بالمدرسة . وذلك أنها تيقظت مرة في منتصف الليل وأدركت لأول مرة الهمس الذي كان لا يبارحها كلما نامت . عاد إلى ذاكرتها شعاع القمر ، وصف الأسرة الصغيرة البيضاء ، ورن في أذنها ثانية ذلك الصوت الناعم الذي كان يردد هذه العبارة « كل فرد يعمل للأفراد الآخرين . إننا لانستغني عن أحد . حتى أبناء (هـ) نافعون . لسنا بغنى لأنهم كل فرد يعمل للأفراد الآخرين . إننا لانستغني عن أحد . » (وقد ذكرت الكلمات بنصها . ولم تغب عن ذاكرتها . ولن تغيب . بعد تكرارها عدة ليال طوال) . وتذكرت ليننا أول صدمة من صدمات الخوف والاندھاش ، وتأملاتها خلال نصف ساعة من ساعات اليقظة . ثم تذكرت ما كان يحدث لها تحت تأثير ذلك التكرار الذي لا ينتهي من هدوء عقلي تدريجي ، هدوء يزحف عليها خفية وخلصنة

وقالت بصوت مرتفع ، أظن أن أفراد (هـ) لا يهتمهم فعلاً أنهم من طراز (هـ) .  
طبعاً لا يهتمهم ذلك . وكيف يهتمون وهم لا يعرفون كيف يكون المرء غير ذلك . نحن طبعاً يهمنا الأمر ، ولكن ذلك لأننا تكيفنا بطريقة أخرى . ثم إننا فوق ذلك نبدأ بوراة تختلف عن وراثتهم .

قالت ليننا وهي واثقة : أحمد الله أنني لست من (هـ) .  
قال هنري : «ولو كنت من (هـ) لتكيفت على صورة تجمعك محمدنين الله على أنك لست من الألف أو الباء » وأدار المحرك الأمامي ودفع بالطائرة نحو لندن . وكاد يتلاشى خلفهم في الغرب لون السماء القرمزي والبرتقالي . وزحفت سحب الظلام إلى كبد السماء . وبينما كانا يطيران فوق محرقة الجثث اندفعت الطائرة إلى أعلى في عمود الهواء الساخن المرتفع من المداخل ، ثم هبطت بفتة عندما مرت بالمنطقة الباردة خلف المداخل .

وضحكت ليننا مسرورة وقالت : ما أعجب هذه الحركة الرجعية !  
ولكن هنري أخذ يتحدث في اكتئاب فترة وجيزة من الزمن . قال : «هل تعلمين ما هذه الحركة الرجعية ؟ هي كائن بشري اختفى نهائياً . لقد ارتفع في دفعة من الغاز الساخن . وإنك لتعجبين من يكون ذلك الشخص - رجل أو امرأة ، من الألف أو الهاء . » ثم تنهد وختم حديثه بصوت ينم عن الابتهاج والعزيمة قائلاً :  
«على أي حال ، هنالك أمر واحد نستطيع أن نكون منه على ثقة . أيّاً كان ذلك الشخص فقد كان سعيداً حينما كان على قيد الحياة . فإن كل إنسان اليوم سعيد ورددت ليننا عبارته قائلة : «أجل إن كل إنسان اليوم سعيد » . فقد سمعا هذه الكلمات تتكرر مائة وخمسين مرة كل مساء مدة اثني عشر عاماً

وهبطت الطائرة فوق سطح بيت هنري ذي الطوابق الأربعين في وستمنستر ، فتوجهتا توأ إلى قاعة الطعام حيث تناولا معاً وجبة فاخرة وهما يصيحان من فرط السرور . أخذت ليننا قرصين زنة الواحد منهما نصف جرام ، وأخذ هنري ثلاثة . ولما بلغت الساعة التاسعة والثلث عبرا الشارع إلى مرقص (كاباريه) وستمنستر أبي الذي افتتح من عهد قريب . وكانت ليلة غير مقمرة صافية مرصعة بالنجوم . ولكن هنري وليننا لم يدركا . لحسن الحظ . هذه الحقيقة المقبضة ، لأن «علامات السماء» الكهربائية أخفت الظلام الخارجي كل الإخفاء . وطالعا هذه العبارة «كالن ستوبز وفرقة المكونة من ستة عشر عازفاً على السكسوفون» وقد كتبت خارج مرقص أبي الجديد بخط عريض براق يجذب المارين . وطالعا كذلك هذه العبارة : «أجمل أراغين لندن للمطور والألوان . أحدث موسيقا مركبة»

ودخلا المرقص . وكان الهواء حاراً ساكناً تشم فيه عبير العنبر وخشب الصندل . وعلى قبة سقف الردهة كان أرغن الألوان في تلك اللحظة يشع ضياء

كضياء الشمس الغاربة في المناطق الحارة ، وكان العازفون على السكسوفون الستة عشر ينشدون الأغنية القديمة المحبوبة التي تبدأ بهذه العبارة « ليس في العالم كله قارورة مثل قارورتي الصغيرة العذبة » . وكان بالقاعة أربعمئة زوج يدورون حول أرض الردهة الصقيل وهم يرقصون الرقصة ذات الخمس خطوات . وسرعان ما انضم هنري ولينا إلى هذه المجموعة الراقصة . وكانت آلات السكسوفون تنوح كأنها القلط ذات الصوت الرخيم تحت القمر ، وتتن بصوت مرتفع مرة ومنخفض مرة أخرى كأن الموت يقترب منها . والجوقة ذات الصوت المرتجف . وهي غنية بما تعرف عن علم قواعد الألحان . علت نغماتها حتى بلغت القمة . لقد أخذت تلعو ثم تلعو حتى لوح في النهاية رئيس الفرقة بيده ، فانطلقت النغمة الأخيرة للموسيقا الأثيرية وقضت على غيرها من النغم ، وبذا بدد الرئيس الستة عشر عازفاً من البشر العادي من الوجود . وقصف الرعد من أحد المفاتيح . ووسط الضجيج والأضواء ارتفعت بالتدريج نغمة عجيبة ، وأخذت نغمة أخرى في الانخفاض شيئاً فشيئاً ، وظلت خافتة فترة ما . فكانت مجموعة عجيبة من الأنغام . وأخيراً حدث انفجار فجائي ، صاحبه الستة عشر عازفاً منشدتين :

قارورتي . كنت دائماً بحاجة إليك

قارورتي . لماذا أفرغوني منك ؟

السنوات بداخلك زرقاء

والجو هناك دائماً جميل

إذ ليس في العالم بأسره قارورة

مثل قارورتي

وما عثم هنري ولينا يرقصان رقصة الخطوات الخمس مع الأربعمئة الآخرين حول وستمنستر أبي ، وكأنهما يرقصان في عالم آخر . . . . عالم إجازة السوما الدفيء الفني بالألوان ، العالم الودي إلى أقصى الحدود . كان كل امرئ شقيقاً ، جميل المحيا ، مسلياً يبعث على السرور! « قارورتي ، كنت دائماً بحاجة إليك . . » . ولكن هنري ولينا ظفرا بما كانا يطلبان . فهما في الداخل ، في تلك اللحظة وفي ذلك المكان . مطمئنين في الداخل مع الهواء العليل ، والسماء ذات الزرقة الدائمة . ولما أنهم الموسيقيون الستة عشر طرخوا سكسفوناتهم جانباً ، وأخذ جهاز الموسيقا المركبة يترنم بأحدث الأنغام والأغاني . حينئذ شعر هنري ولينا كأنهما جنينان توأمان يترجحان معاً فوق محيط قنيني من الدم الجديد وألقت مضخمتا الصوت أوامرها مستترة في أدب موسيقي بهيج . قالت : عموا مساء يا أصدقائي الأعزاء ، عموا مساء يا أصدقائي الأعزاء ، عموا مساء . . . وخلف هنري ولينا المكان طائنين مع الآخرين جميعاً . وكانت النجوم

التي تبعث في النفوس الضيق قد تقدمت في مسيرها مسافة طويلة في السماء . ومع أن الستار الحاجز من «علامات السماء» قد تبعد الآن إلى حد كبير ، غير أن الفتى والفتاة ما برحا ينعمان بجهلهما حقيقة السماء

وقبل موعد الإغلاق بنصف ساعة كانا قد تناولا الجرعة الثانية من السوما ، فأقامت بين عقليهما وبين العالم الواقعي سداً منيعاً . وعبرا الطريق وهما يحسان كأنهما في القوارير ، وكذلك اعتليا المصعد إلى حجرة هنري في الطابق الثامن والعشرين . كانت لينتا تحس كأنها في القارورة ، وكانت قد تناولت جرماً ثانياً من السوما . ولكنها برغم ذلك لم تنس أن تتخذ كل احتياطات ضد الحمل وفقاً للقواعد المتبعة . وكانت تتخذ هذا الاحتياط بطريقة آلية كلمح البصر من أثر الإحياء أثناء النوم الذي تعرضت له سنوات عدة ومن أثر التدريب المالتسي الذي خضعت له بين الثانية عشرة والسابعة عشرة ثلاث مرات كل أسبوع .

وقالت وهي عائدة من الحمام : إن هذا يذكرني بأن فاني كراون تريد أن تعرف أنني لك هذا الحزام الأخضر الجميل المصنوع من جلد كابلج المراكشي الذي أعطيتني .

## ٢

كانت أيام الخميس الجديدة هي الأيام التي يؤدي فيها برنارد صلاة الجماعة . يتناول عشاءه مبكراً في الإفروديتيم (التي انتخب لها هلمهولتز من عهد قريب وفقاً للبند الثاني) ثم يستأذن صاحبه ، وينادي سيارة أجرة فوق السطح ، ويطلب إلى سائقها أن يطير به إلى بيت الغناء الجمعي لصاحبه فوردسن . فترتفع السيارة مائتي متر ، ثم تتجه رأساً نحو الشرق . وعند دورانها يرى برنارد أمام عينيه بيت الغناء ، وهو بناء ضخم جميل ، من المرمم الأبيض طوله ٣٢٠ متراً ينعكس فوقه الضوء فيشرق فوق لدجيت هل متوهجاً كالثلج الناصع . وله رصيف للطائرات ، عند كل ركن من أركانه الأربعة حرف T ضخم يتلألأ باللون القرمزي أثناء الليل . وبالمكان أربعة وعشرون بوقاً ذهبياً كبيراً تتجلجل من أهوانها موسيقاً مركبة مقدسة .

ولما وقعت عينا برنارد على «ساعة هنري الكبيرة» في بيت الغناء قال محدثاً نفسه : «ألا لعنة الله عليّ! لقد تأخرت» . ودقت الساعة فعلاً وهو يدفع للسانق أجره . ورددت الأبواق الذهبية في صوت منخفض غليظ هذه الكلمة : «فورد ، فورد ، فورد . . .» . وترنمت بها تسع مرات ، وركض برنارد صوب المصعد .

وكانت قاعة الاجتماعات الكبرى التي يقام فيها الاحتفال بعيد فورد كما تلقى فيها الأناشيد الدينية الجمعية في أسفل البناء . وفوق هذه القاعة سبعة آلاف حجرة ،

مائة في كل طابق ، تستخدمها «فرق الجماعة» في صلواتهم التي يؤدونها مرة كل أسبوعين . وهبط هنري إلى الطابق الثالث والثلاثين ، وانطلق في دهليزه مسرعاً ثم وقف خارج الغرفة رقم ٣٢١٠ بركة من الزمن متردداً . ثم التوى بجسمه وفتح الباب ثم ولج الغرفة

وحمد برنارد فوراً أن لم يكن آخر الداخلين . فقد بقيت ثلاثة مقاعد من الاثني عشر المنظمة حول المائدة المستديرة فارغة . فدخل إلى أقربها ، وأحاول ما استطاع ألا يلاحظه أحد ، وتأهب للفضب عند دخول القادمين بعده في أي وقت يصلون

والتفتت نحوه الفتاة التي كانت غلى يساره وسألته : ماذا كنت تلعب بعد ظهر اليوم ؟ الموانع أو المفنطيسية الكهربائية ؟

ونظر إليها برنارد ، ولشد ما كانت دهشته لما عرف أنها مرجانة رستشيلد واعترف لها في خجل شديد أنه لم يلعب هذه أو تلك . فحدقت فيه مرجانة في دهشة شديدة . ثم كانت فترة من الصمت يسودها القلق . والتفتت بفتة إلى الرجل الرياضي الذي كان إلى يسارها ووجهت إليه الخطاب .

واكتأب برنارد وظن أن تلك اللحظة كانت بداية صالحة لصلاة الجماعة وارتقب لنفسه الفشل مرة أخرى في أن يظفر بالتكفير . وكان يود لو أنه أعطى لنفسه الفرصة كي يتلفت حوالبه بدلاً من الإسراع إلى أقرب المقاعد . كان يستطيع أن يجلس بين فيفي برادلاف وجوانا ديرل . ولكنه استقر إلى جوار مرجانة بغير تفكير . لك الله يا مرجانة! يا حاجبيها الأسودين . أو حاجبيها على الأصح . لأنهما كانا يلتقيان فوق أنفها . عجباً! وعلى يمينه كلارا دتردنغ . حقاً إن حاجبيها لم يلتقيا ، ولكنها كانت هوائية جداً . في حين أن فيفي وجوانا كانتا كاملتين من جميع النواحي . كانتا ممتلئتين ، شقراوين ، متوسطتي الجسم . . وقد ظفر بالمقعد المتوسط بينهما ذلك اللفظ الغليظ توم كاواجوشي

وكانت ساروجيني المنجلز آخر من حضر فقال لها رئيس الجماعة في قسوة شديدة : لقد تأخرت . وأرجو ألا يحدث ذلك مرة أخرى .

فاعترضت ساروجيني واتخذت لنفسها مقعداً بين جم بوكانوفسكي وهربرت باكونن . واكتملت الفرقة الآن ، وأمسّت جماعة الصلاة تامة لايشوبها نقص . وقد جلسوا حول المائدة في دائرة كاملة ، كل رجل إلى جوار امرأة ، وكل امرأة إلى جوار رجل . كانوا اثني عشر شخصاً مستعدين لأن يندمجوا في واحد ، ويرتقبون



التماسك والاندماج التام . فيفقد كل منهم مميزاته الشخصية ويتلاشى في كائن واحد كبير

ونهب الرئيس على قدميه ، ورسم علامة الحرف T ، وأدار الموسيقى المركبة ، وأطلق دق الطبول المستمر ، وجوقة من الآلات الموسيقية المختلفة ، التي أخذت تردد في نغمة مشيرة الألمان القصيرة ذات الأثر الشديد في النفوس من نشيد الجماعة الأول . وتكرر النشيد مرة بعد أخرى ، ولم يستمع الحاضرون إلى نغمة النابض بأذانهم ، وإنما استمعوا إليه بحجبهم الحاجزة . ولم يؤثر عويل تلك النغمات المتكررة ورنينه في العقول ، وإنما كان يلعب بعواطف الرحمة والشفقة في نفوسهم . ورسم الرئيس حرف T مرة أخرى ثم جلس . وبذلك بدأت الصلاة . وقد وضعت أقراص السوما المهداة وسط مائدة الطعام . ودارت كأس الحب من يد إلى أخرى ، وقد أترعت بعصير الشليك المثلج المزوج بالسوما . ونهلوا منها جميعاً مرددين هذه العبارة « أنى أشرب نخب فناني » ثم ترنموا جميعاً بنشيد الجماعة الأول على إيقاع جوقة الموسيقى المركبة . وهذا هو النشيد ،

أي فورد ، نحن اثنا عشر ، اللهم فاجعل منا واحداً

فنصبح كقطرات الماء يتكون منها تيار الجماعة

اللهم مكننا الآن من أن نجري معاً

مسرعين كسيارتك الرخيصة اللامعة .

وأنشدوا اثنتي عشرة فقرة في شغف شديد . ثم دارت عليهم كأس الحب مرة أخرى ، فتناولوها مرددين الآن هذه العبارة : « أنى أشرب نخب الكائن العظيم » وشربوا جميعاً . وأخذت الموسيقى تصدح بغير انقطاع . ودقت الطبول . وعلت النغمات وتضاربت واشتد تأثيرها في العواطف حتى أشبعتها . وأخذوا يترنمون بنشيد الجماعة الثاني قائلين :

هيا ، أيها الكائن الأكبر ، يا صديق الجماعة

يا من فئتنا فيك وحدك نحن الاثني عشر

إننا نشتهي الموت ، لأن حياتنا الكبرى

لا تبدأ إلا بعد الممات .

وأنشدوا اثنتي عشرة فقرة أخرى . وبعدئذ أخذت السوما تفعل فعلها فأبرقت العيون ، وتوردت الخدود ، وأشرقت الوجوه ببسمات السعادة والود ، وقد بعثها ضياء الخير العام . حتى أن برنارد نفسه أحس بشيء من النشوة . فلما التفتت إليه مرجانة وستشيلد وأشرقت عليه ، سعى جهده أن يبادلها الإشراق . ولكن حاجبها . ذلك الحاجب المزدوج . كان للأسف لا يزال ملحوظاً لا يستطيع تجاهله مهما حاول ذلك . ولم تبلغ النشوة به حدّاً كبيراً

وربما لو كان جالساً بين فيفي وجوانا . وللمرة الثالثة دارت كأس الحب . وقالت مرجانة رستشيلد : « إنني أشرب نخب قرب مجينه » وقد جاء دورها أن تكون هي من بين أعضاء الدائرة جميعاً هي البادئة بالشعائر . وكان صوتها مرتفعاً متهللاً . وشربت وسلمت الكأس ليرنارد فكرر بعدها هذه العبارة : « إنني أشرب نخب قرب مجينه » وقد حاول مخلصاً أن يحس بقرب المجيء . غير أن الحاجب ما عثم متسلطاً على ذهنه . و« المجيء » بالنسبة إليه جد بعيد . وشرب وناول الكأس كلارا دتردلج . وقال محدثاً نفسه : « إنني واثق من فشلي مرة أخرى » ولكنه مابرح يبذل جهده كي يبدو مشرق الجبين .

ودارت كأس الحب دورة كاملة . فأشار الرئيس للجمع رافعاً يده . فصاحت الحوقة فجأة مترنمة بنشيد الجماعة الثالث :

ألا تشعرون كيف يقبل علينا الكائن الأكبر!

ابتهجوا ، حتى تموتوا من شدة الابتهاج!

ولتذب نفوسكم في موسيقا الطبول!

ذلك لأنني أنا أنت وأنت أنا

وتلاحقت الفقرات المنظومة ، وأخذت أصواتهم تشف عن التأثير العميق . وكان إحساسهم بقرب المجيء شبيه بالتوتر الكهربائي في الهواء . وأسكت الرئيس الموسيقى ، وعند النغمة الأخيرة من الفقرة الأخيرة ساد الصمت الشامل . صمت الارتقاب الطويل الذي يسري في النفس ويهزها كأنه الكهرباء . ومد الرئيس يده ، وإذا بصوت مفاجئ يسمعونه فوق رؤوسهم . صوت قوي عميق ، فيه نغم موسيقا لايتوفر للصوت الإنساني المجرد ، صوت غير بشري ، غني ، حار ، يدل على الحب والشوق والرأفة ، صوت عجيب غريب غير مألوف . قال الصوت : « أي فورد ، فورد ، فورد » في بطن شديد ، وبنغمة تنخفض شيئاً فشيئاً . وشع من الشباك العصبية المعوية إحساس بالدفع ، أثار كل الأطراف من أجسام المستمعين . وتحدر الدمع في أعينهم ، وأحسوا كأن قلوبهم وأمعاءهم تتحرك في داخلهم . كأن بها حياة مستقلة وذابوا وتحللوا عند سماعهم هذه الكلمة « فورد ، فورد » . ثم صدر الصوت مرة أخرى وكأنه من بوق وقال بغثة وبنغمة أخرى تغير الذعر : « أنصتوا ، أنصتوا! » فأنصتوا . وبعد فترة سكون وجيزة تحول الصوت إلى همس . ولكنه همس أهد نفاذاً من أعلى صياح . وأخذ يكرر هذه العبارة : « هذا وقع أقدام الكائن الأكبر » . ثم كاد الهمس يتلاشى ثم قال : « إن أقدام الكائن الأكبر فوق الدرج » . ثم ساد الصمت مرة أخرى . وكانت الأعصاب قد توترت من الانتظار ، ثم استرخت برهة ، فتوترت الآن مرة أخرى ، وكادت أن تتمزق من شدة التوتر ارتقاباً للقادم . فلقد سمعوا أصوات الكائن الأكبر وهي تدب دباباً خفيفاً فوق الدرج ، وتقترب شيئاً

فشيئاً فوق السلم غير المرئي . وظلوا ينصتون إلى وقع أقدام الكائن الأكبر ، وأخيراً بلغ بهم التوتر أقصاه ، ووثبت مرجانة رستشيلد على قدميها ، وحملت بعينيها ، وانفجرت شفتاها . ثم صاحت قائلة :  
- اني أسمعها !

وصاحت ساروجيني المجلز وقالت : إنه آت .  
وهب توم كاواجوشي وفيغي برادلاف على الأقدام في وقت واحد معاً وقالوا :  
أجل إنه آت ، وإنني لأسمعه .

وأكدت جوانا صدق قولهما في لفظ غير واضح  
وصرخ جم بوكانوفسكي قائلاً : إنه آت .  
وانحنى الرئيس إلى الأمام ، ويلمسة خفيفة أطلق الأصناج تهذي والآلات  
النحاسية ترن ، ودقت الطبول كأنها محمومة .

وصاحت كلارا دترنج قائلة : « آه إنه آت » . وكان أحداً يحز رقبتها  
وأحس برنارد أنه قد حان له أن يفعل شيئاً ما قفز إلى أعلى وصرخ قائلاً :  
« اني أسمعها . إنه آت » . ولم يكن صادقاً ، فإنه لم يسمع شيئاً ، ولم يكن هناك  
بالنسبة إليه أحد مقبل ، برغم الموسيقى وبرغم الاضطراب المتزايد . ولكنه هزّ  
ذراعيه ، وصاح مع خيارهم ، ولما بدأ الآخرون يرقصون ويدبون ويتنقلون ، رقص  
وتنقل معهم .

وساروا في موكب مستدير وهم يرقصون ، وقد وضع كل منهم يديه على  
مؤخرة الراقص السابق . وأخذوا يدورون في المكان صانحين معاً ، وهم يدبون على  
أنغام الموسيقى ، ويرقصون على توقيعها وأيديهم فوق أذبار السابقين . وكانت  
أيديهم جميعاً تضرب معاً كأنها يد واحدة ، والأذبار ترد صدى الضربات معاً كأنها  
ألواح . فكان الاثنان عشر شخصاً كأنهم شخص واحد . ثم قالوا معاً : « اني أسمعها ،  
اني أسمع قدومه » وأسرعت الموسيقى ، ودبت الأقدام مسرعة ، وأسرعت الأيدي  
الموزونة في وقعها على الأذبار . وانفجرت بفتة نفمة مركبة عظيمة معلنة اقتراب  
التكفير وبلوغ الاتحاد حده الأقصى ، وقدم الاثني عشر موحدين في فرد واحد ،  
والكائن الأكبر المجسد . وردد النغم هذه الكلمات : « شولم ، شولم » بينما واصلت  
الطبول دقها كأنها محمومة .

شولم ، شولم ، يا فورد يا مبعث السرور  
قبل البنات واجعل منهن واحدة .  
وانشر السلام فوق البنات والبنين موحدين  
شولم ، شولم . إنك تحرر النفوس .  
وردد الراقصون هذه العبارات الدينية وكرروها . وبدأت الأضواء تتلاشى

مبطنة وهم يغنون . وتلاشت الأضواء وازدادت في الوقت نفسه دفناً وغنى وحمرة ، حتى باتوا في النهاية يرقصون في الشفق القرمزي الذي يشاهد في مخزن الأجنة وفي هذا الظلام الدموي الذي يشبه الضوء في بيوت الأجنة ، وأصل الراقصون دورانهم وظلوا يرقصون على هذا النغم الذي لايفتر مرددين تلك العبارات الدينية « شولم ، شولم . . » . ثم ترنحت دائرتهم وانحلت وانشطر عقدها فوق حلقة الأرائك التي كانت تحيط بالمائدة ومقاعد الاثني عشر . دائرة حول أخرى . وتغنى « الصوت » العميق برفق وترنم بالنشيد الديني مردداً : « شولم شولم . . » . وكان حمامة ضخمة سوداء كانت في ذلك الشفق الأحمر تنشر جناحي الخير وهي تحلق فوق الراقصين وقد انبطحوا الآن أرضاً واستلقوا على ظهورهم . كانوا واقفين فوق السطح وقد دقت ساعة هنري الكبرى الحادية عشرة منذ لحظة . وكان المساء هادئاً دفيناً .

وقالت فيفي برادلاف : « ألم يكن الأمر جد عجيب ؟ » ونظرت إلى برنارد وفي عينيها نشوة السرور . ولكنه السرور الذي لاتلمس فيه بارقة من الاضطراب أو التائر . لأن الاضطراب معناه أن الشخص لايزال يتطلب المزيد . وأحسّت بالنشوة الهادئة التي يشعر بها كل من يبلغ مأرباً ، كما أحسّت بنوع من الطمأنينة التي لايعبثها مجرد الإشباع أو الفراغ ، وإنما تلك الطمأنينة التي تبعثها الحياة المترنة ، والنشاط المستقر المعتدل . وهي طمأنينة قوية حية . لأن صلاة الجماعة قد أعطتهم بمقدار ما أخذت ، وسحبت من نفوسهم لتعيد امتلاءها . فكانت ممتلئة النفس ، كاملة ، وما برحت تحس كأنها أكبر من نفسها . وأصرت على سؤالها السابق لبرنارد وهو : « ألست تظن أن الأمر كان عجيباً ؟ » وحدقت في وجهه بعينين لامعتين خارقتين للطبيعة .

وقال كاذباً : « أجل ، لقد ظننت الأمر عجيباً » ثم أشاح بوجهه . وكان منظر وجهها الذي تغيرت ملامحه تهمة له بانفصاله ومذكراً ساخراً بذلك . وأحس حينئذ بعزلة البائس كما أحس بها عندما بدأت الصلاة ، بل لقد أحس بزيادة العزلة من جراء فراغ نفسه الذي لم يمتلئ وشبهه القاتل . كان منفصلاً بذاته لم يشعر بغفران ذنوبه ، في حين أن الآخرين قد اندمجوا في الكائن الأكبر . أحس بالعزلة حتى وهو بين أحضان مرجانة . بل أشد عزلة من أي عهد سبق له في حياته ، وشعر بأنه لم يتغير بتاتاً فشاغ اليأس في نفسه . ولقد خرج من ذلك الشفق القرمزي إلى الضوء الكهربي العام وقد تعزز شعوره بنفسه إلى حد الإيلام . كان بانساً كل البؤس ، وربما كانت تلك غلطة الشخصية (وقد اتهمته بذلك عيناها البراقتان) . وكرر قوله : « كان الأمر عجيباً جداً » . ولكنه لم يفكر إلا في حاجب مرجانة .

## الفصل السادس

لقد حكمت ليننا على برنارد ماركس بالشذوذ الخارق . وقد بلغ به الشذوذ أنها ساءلت نفسها خلال الأسابيع التالية أكثر من مرة هل لاتستطيع أن تغير رأيها في عطلة المكسيك الجديدة ، وتستبدل بها رحلة إلى القطب الشمالي مع بنتو هوفر ولم يقلقها إلا أنها كانت تعرف القطب الشمالي ، وأنها زارته مع جورج إدزل في الصيف الماضي ، وأنها . فوق ذلك . وجدته مكاناً شديد العبوس . لم تجد هناك ما يشغلها ، والفندق قديم الطراز جد عتيق . ولم يكن بحجرات القوم تلفزيون . ولم يكن هناك أرغن العطور ، ولم تسمع غير الموسيقى المركبة الفاسدة ، ولم يكن هناك أكثر من خمسة وعشرين ملعباً للعبة «سكواش السلم المتحرك» لأكثر من مائتي زائر كلا . لقد قر رأيها علي أنها لاتستطيع أن تجابه القطب الشمالي مرة أخرى . ثم إنها . فوق ذلك . لم تزر أمريكا غير مرة واحدة . وحتى تلك الزيارة لم تكن كافية . لقد زارت نيويورك في عطلة من عطلات نهاية الأسبوع الرخيصة ، ولم تذكر إن كانت تلك الزيارة برفقة جين جاك حبيب لله أم بوكانوفسكي جونز . غير أنها كانت . على أية حال . عديمة الأهمية . فكان الأمل في الطيران غرباً مرة أخرى مدة أسبوع كامل شديد الإغراء لها . ثم إنهما . فوق ذلك . سوف يقضيان ما لا يقل عن ثلاثة أيام من هذا الأسبوع في الأماكن المخصصة للمتوحشين . ولم يَزُرْ هذه الأمكنة أكثر من ستة أشخاص في المركز كله . وكان برنارد بوصفه عالم نفس من درجة (١٢) أحد الرجال القلائل الذين يستطيعون . فيما تعلم . الحصول على التصريح بالزيارة . وكانت تلك فرصة نادرة لليننا . ولكن شذوذ برنارد كذلك نادر جداً ، حتى لقد ترددت في انتهاز الفرصة ، وفكرت فعلاً في المخاطرة بزيارة القطب

الشمالي مرة أخرى مع بنتو الصديق المضحك القديم . فلقد كان بنتو على الأقل رجلاً طبيعياً في حين أن برنارد

وكانت فاني تعمل شذوذه بوجود الكحول في دمه . ولكن هنري شبه برنارد المسكين بوحيد القرن ذات مساء وهو في الفراش مع ليننا عندما تباحثا معاً بشأنه في شغف شديد لأنه كان عشيق ليننا الجديد

قال هنري بأسلوبه الموجز القوي : « إنك لاتستطيعين أن تعلمي وحيد القرن حيلة جديدة . ومن الرجال من يشبه هذا الحيوان ، فهم لايستجيبون استجابة صحيحة لعملية التكيف . مساكين أمثال هؤلاء ، وبرنارد واحد منهم . ولكنه . لحسن حظه . ممتاز في عمله ، وإلا لما احتفظ به المدير » . ثم قال معزياً : « ولكني أظن . على أية حال . أنه عديم الأذى .

ربما كان عديم الأذى ، ولكنه كان كذلك شديد الإزعاج . فعنده أولاً ذلك الجنون الذي يحجب إليه العمل وهو منعزل . ومعنى ذلك عملياً أنه لايعمل البتة شيئاً ، لأن المرء لايستطيع أن يؤدي عملاً وهو وحيد (إذا استثنينا طبعاً ساعات النوم ، ولايستطيع أن يقضي فيها المرء عمره) . أجل لم يكن هناك ما يستطيع المرء أن يؤديه وحيداً إلا القليل النادر . وكان أول يوم خرجت فيه ليننا مع برنارد ساعة الأصيل معتدلاً جميلاً . فاقترحت ليننا أن يسبحا في نادي توركي الريفي ثم يتناولوا العشاء في اتحاد اكسفورد . ولكن برنارد خشي كثرة الزحام . فاقترحت ليننا شوطاً من لعبة الجولف المغناطيسي المكهرب في سنت أندروز . ولكن برنارد رفض مرة أخرى ، لأنه كان يعد هذه اللعبة مضيفة للوقت

فسألته ليننا في شيء من الاندهاش : وما فائدة الوقت إذن ؟

الوقت عنده . على ما يبدو . ينبغي أن ينفق في النزهة سيراً على الأقدام في منطقة البحيرات . وقد اقترح ذلك الآن . وأراد أن يهبط فوق قمة سكودو ثم يسيرا ساعتين فوق العشب في العراء . « معك وحدك يا ليننا »

ولكننا سنقضي الليل كله وحدنا يا برنارد

فاحمر برنارد خجلاً وأشاح بوجهه . وتتم قانلاً : « إنما قصدت أننا سنكون وحدنا نتحدث .

« نتحدث ؟ فيم ؟ » المشي والحديث . تلك طريقة شاذة جداً في قضاء اليوم

بعد الظهر

وأغرته في النهاية . برغم إرادته . على أن يطيرا إلى أمستردام ليشهدا المباراة الشبيهة بالنهاية بين النساء لبطولة المصارعة بين ربات الوزن الثقيل وتذمر قانلاً : « هذا زحام كالاعتاد » . وبقي طول عصر ذلك اليوم مكتئباً معانداً . لم يتحدث إلى أصدقاء ليننا (وقد قابلا منهم عشرات في مقصف السوما

الممزوجة بالقشدة المثلجة بين أشواط المصارعة) . وبرغم بؤسه رفض رفضاً باتاً أن يتناول نصف الجرام من كاسات التوت الذي قدمته له قائلاً : «إني أؤثر أن أكون أنا نفسي ، في اكتسابي ، على أن أكون شخصاً آخر مهما يكن مرحاً فأجابت ليننا قائلة : «إن الجرام الواحد في حينه يفنيك عن تسعة إذا فات الأوان» . وهي في هذا التعبير إنما تستعيد ثروتها القيمة من الحكمة التي لقتها أثناء النوم .

ولكن برنارد أبعد الكوب الذي قدم إليه وقد عيل صبراً فقالت له : «لا تحمد ، واذكر أن سنتيمتراً واحداً مكعباً يشفي عشريناً من العواطف الحزينة .

فضاح بها ، وحق فورد لتسكتن .

فهزت ليننا كتفيها وقالت : «إن الجرام خير دائماً من ضيق النفس وختمت حديثها محتفظة بكرامتها ، وشربت الكاسات بنفسها

وأصر برنارد وهما في طريقهما عاندين فوق القنال الإنجليزي ، أن يوقف محرك طائرته وأن يحلق باللؤلؤ على ارتفاع مائة قدم من الموج ، لأن الجو قد ساء ، وعصفت ريح جنوبية غربية ، وتكاثفت السحب في السماء وقال أمراً : «انظري!»

قالت ليننا : «الجو مريع» ثم انكمشت وراء النافذة . فلقد راعها فراغ الليل المقبل ، والمياه التي رقص سطحها الزبد المكفهر وهي تجيش تحت بصريهما ، ووجه القمر الشاحب وقد بدا تحت السحب المسرعة نحيلاً مشتتاً . ثم قالت : «هيا بنا نفتح الراديو بسرعة» ومدت يدها نحو المفتاح فوق اللوحة الأمامية وأدارته حيثما اتفق .

فإذا بستة عشر صوتاً أجش مذبذباً تذيع : « . السموات زرقاوات بداخلكم ، أما الجو فدائماً . . . »

ثم أعقب ذلك فواق (زغطة) وصمت . وأوقف برنارد تيار الإذاعة . وقال : «إني أحب أن أنظر إلى البحر وأنا هادئ مطمئن . إن المرء لا يستطيع أن ينظر إليه وسط الضجيج المزعج

ولكنه متع ، وأنا لأحب أن أنظر إلى البحر

» ولكنني أحب . ويجعلني ذلك كأني . . . » . وتردد قليلاً باحثاً عن الكلمات التي يعبر بها عن نفسه ، ثم قال : «كأنني أكثر مما أنا . إذا كنت تفهمين ما أعني أكثر من نفسي على ألا تتغير طبيعة نفسي ، ولا أقصد أن أكون جزءاً من شيء آخر مختلف عني كل الاختلاف ، لأحب أن أكون خلية في جسم المجتمع فحسب . ألا يبعث فيك هذا المنظر شعوراً كهذا يا ليننا ؟

ولكن ليننا ما برحت تصيح مرددة : « إنه مزعج ، إنه مزعج » . ثم قالت :  
وكيف تستطيع أن تبوح بحديث كهذا وتقول إنك لا تحب أن تكون جزءاً في جسم  
المجتمع ؟ ألا ترى أن كل فرد يعمل لكل فرد آخر . إننا لانستغني عن أحد . حتى  
« الهاء »

قال برنارد بازدرأه : أجل إنني أعلم ذلك ، وأعرف (أن « الهاء » نفسها  
نافعة) بل حتى أنا . وكم وددت لو لم أكن  
وصعقت ليننا لهذا الكفران ، واحتجت عليه بصوت ينم عن الدهشة والضييق .  
قالت : برنارد ، كيف تستطيع ذلك ؟

وقال متفكراً وفي صوت مختلف مردداً عبارتها : كيف أستطيع ؟ كلا . إن  
المشكلة الحقيقية هي هذه : كيف لأستطيع . أو بمبارة أخرى (لأنني أعرف تمام المعرفة  
لماذا أستطيع) كيف تكون حالي لو استطعت ، ولو كنت حراً غير مستعبد لما كيف  
عليه .

. برنارد إنك تصرح بتصريحات خطيرة .  
. أأنت تمنين أن تكوني حرة يا ليننا ؟  
. لست أدرك ما تعني . إنني حرة . وأستطيع لو شئت أن أقضي وقتاً سعيداً  
كل فرد سعيد في هذه الأيام

فضحك وقال : أجل « إن كل فرد سعيد في هذه الأيام » . ونحن نعلم الأطفال  
هذه الحقيقة وهم في الخامسة . ولكن ألا تحبين يا ليننا أن تكون لك الحرية في أن  
تسعدي بطريقة أخرى ؟ ولتكن تلك مثلاً طريقتك الخاصة ، لا طريقة كل فرد آخر  
وكررت قولها : « لست أدرك ما تعني » . ثم التفتت إليه وقالت متوسلة  
إليه : هيا بنا نعود يا برنارد . إنني أمقت هذا المكان أمقتاً شديداً  
. ألا تحبين رفقتي ؟

. إنني طبعاً أحب ذلك يا برنارد! ولكني أمقت هذا المكان المريع .  
. ظننت أننا نكون ألصق رفقة هنا . وليس حولنا إلا البحر والقمر . هنا نكون  
ألصق صحبة منا وسط الزحام ، أو حتى في حجراتي . أأنت تفهمين ذلك ؟  
فأجابت مصممة : « لست أفهم شيئاً » وقد اعترمت أن تحتفظ بعدم إدراكها  
بغير مساس . وواصلت حديثها بنفمة أخرى . قالت : « لست أفهم شيئاً » وبخاصة  
لماذا لا تتناول السوما عندما تساورك هذه الأفكار المزعجة . إنك لو فعلت لنسيتها  
بتأناً . ويحل المرح الشديد في نفسك محل الشقاء » . ثم انفجرت شفتاها عن  
ابتسامة قصدت من ورائها أن تداهنه وترغبه وتشير شهوته ، برغم ما كان يجول في  
عينها من القلق والحيرة

ونظر إليها صامتاً بوجه لم يتأثر بها ، عليه سيما الجد . وحدث فيها ، وبعد



بضع ثوان حولت ليننا عنه عينيها وصدرت منها ضحكة يسيرة عصبية ، وحاولت أن تفكر في موضوع تتحدث فيه فلم تستطع . وامتد بهما الصمت زمناً وأخيراً تكلم برنارد بصوت منخفض متعب . قال : « سوف نعود كما أردت » وداس مفتاح السرعة بشدة فانطلقت الطائرة في الهواء . وعند رقم أربعة آلاف أدار المحرك . وطارا صامتين دقيقة أو اثنتين . ثم بدأ برنارد يضحك بقتة . وكان الضحك في رأي ليننا شاذاً ، ولكنه ضحك على كل حال .

ثم تجرأت ووجهت إليه هذا السؤال : « هل أنت الآن أحسن شعوراً ؟ » وبدلاً من أن يجيبها على ذلك رفع إحدى يديه من الآلات التي تدير الطائرة ووضع ذراعه حول خصرها وبدأ يداعب ثدييها .

فقال لنفسها : أحمد الله . لقد اطمأن ثانية .

وبعد نصف ساعة كانا في حجراته . وابتلع برنارد أربعة أقراص من السوما دفعة واحدة ، وأدار الراديو والتلفزيون وبدأ يخلع ملابسه . ولما تقابلا في عصر اليوم التالي فوق السطح سألته ليننا في مكر شديد قالت : هل تظن أننا نتمتعنا بالأمس ؟

فأوماً لها برنارد برأسه . ثم اعتليا الطائرة ، وبعد هزة خفيفة انطلقت بهما وقالت ليننا مفكرة ، وهي تربت على ساقها : يقول الناس جميعاً إنني هوائية جداً

قال هنري : « جداً » وفي عينيه تعبير عن الألم . ودار بخلد أنها « كاللحم » ورفعت بصرها في قلق شديد وقالت : « ولكن لعلك لاتراني سميثة جداً » فهز رأسه . وكانت في نظره كاللحم المكتنز . قالت : « هل تراني صالحة ؟ » فأوماً بالإيجاب . . . قالت : من جميع النواحي ؟

فقال بصوت مرتفع : « أنت كاملة » . ثم فكر في نفسه : إنها تحب نفسها كذلك ، وأنها لايهمها أن تكون كاللحم . وابتسمت ليننا ابتسامة الظافر . غير أن رضاها كان سابقاً لأوانه . وبعد فترة سكون واصل الحديث قائلاً : ولكني . برغم ذلك . كنت أحب أن ينتهي الأمر على خلاف ما حدث

« على خلاف ما حدث ؟ » هل هناك نهايات أخرى ؟ ففسر ما قصد إليه قائلاً : لم أر أن ينتهي الأمر بذهابنا إلى الفراش . فذهلت ليننا

لا يكون ذلك بقتة ، ولا يكون في اليوم الأول .

. وإذن لماذا ؟

فشرع يتحدث حديثاً لا معنى له خطراً غير مفهوم . وبذلت ليننا جهدها محاولة ألا تستمع إلى الحديث أو تتفهمه . ولكنه كان بين الفينة والفينة يصبر على أن يلقي عبارته بدرجة مسموعة . سمعته يقول : « كي أجرب أثر كبح دوافعي » وكأن هذه الكلمات مست زنبركاً في عقلها

فكانت جادة : لا توجل إلى الغد ما تستطيع اليوم من لهو فلم يجب على ذلك بأكثر من قوله : « التكرار مائتي مرة ، مرتين كل أسبوع ، من الرابعة عشرة إلى السادسة عشرة والنصف » . وهكذا واصل كلامه الجنوني السيئ بغير انقطاع . وسمعته يقول : أحب أن أعرف ما الهوى . أحب أن أحس بشيء . ما إحساساً قوياً

ونظمت ليننا هذه العبارة : إذا أحس الفرد ، ترنعت الجماعة .

. ولماذا لا تترنح قليلاً ؟

. برنارد ؟

ولكن برنارد لم يشعر بالخزي .

واستمر يقول : الكبار من الناحية العقلية وأثناء ساعات العمل ، والصفار فيما يس مشاعرهم ورغباتهم .

. إن الهنا لورد قد أحب الصفار

وتجاهل برنارد هذه المقاطعة وواصل حديثه . قال : لقد طرأ لي فجأة ذات يوم أنه من الجائز أن يبقى الإنسان راشداً كل الوقت .

وقالت ليننا بصوت ثابت : إنني لا أفهم .

. أعرف أنك لاتفهمين . ومن أجل هذا ذهبنا أمس إلى الفراش معاً . كالأطفال . بدلاً من أن نبقي راشدين فننتظر

قالت ليننا : ولكننا نمتعنا . أليس كذلك .

فأجاب بقوله : « أجل ، لقد كانت متعة كبرى » ولكن صوته كان حزيناً وقسمات وجهه جد بائسة ، حتى أن ليننا أحست أن كل انتصارها قد تبخر فجأة . ربما وجدها سميئة جداً .

ولما عادت ليننا وأسرت لفاني بمكنون صدرها ، قالت لها فاني : لقد قلت لك ذلك . إنه الكحول الذي وضعوه في دمه .

. فأجابت ليننا : « ولكني برغم ذلك أحبه . ما أجمل يديه . وما أرقه حينما يحرك كتفيه . إنه حينئذ يجذبني جذباً شديداً » . وتنهدت ثم قالت : ولكنني أود لو لم يكن شاذاً كما هو .

وقف برنارد لحظة خارج غرفة المدير ، ثم تنفس نفساً عميقاً ورفع كفيه . واستعد للقاء البغضاء والرفض داخل الغرفة . وقرع الباب ثم دخل . وقال وهو مبتهج قدر استطاعته : « هذا تصريح لتوقع عليه أيها المدير » . ثم وضع الورقة على المكتب .

ورمته المدير بنظرة مريرة . ولكنه لمح في أعلى الورقة ختم « مكتب المراقب العالمي » وفي أسفلها توقيع مصطفى مند بخط أسود كبير . وكان كل شيء على أتم نظام . فلم يكن للمدير بعد هذا خيار ، فوقع اسمه بالقلم الرصاص . وتوقيعه عبارة عن حرفين صغيرين باهتين حقيرين تحت توقيع مصطفى مند . وأوشك أن يرد الورقة بغير تعليق وبغير السرعة الفورية الطبيعية ، لولا أن جذبت عينه كلمة مسطورة خلال عبارة التصريح

قال : « إلى المنطقة المكسيكية الجديدة ؟ » وقد بدا في صوته وفي وجهه الذي رفعه إلى برنارد نوع من الاضطراب والاندھاش . ودهش برنارد لدهشته وأوماً برأسه ، ثم ساد الصمت .

واستند المدير إلى كرسيه مقطباً جبينه وقال وكأنه يحدث نفسه ولا يخاطب برنارد : « منذ متى كان ذلك ؟ أظن أنه كان منذ عشرين عاماً ، أو قرابة الخمسة والعشرين عاماً . لا بد أنني كنت في مثل سنك . » ثم تنهد وهز رأسه .

وأحس برنارد بالقلق الشديد . وتمعجب كيف أن رجلاً كهذا المدير محافظاً على التقاليد ، مستقيماً إلى درجة الوسوسة ، يخلط هذا الخلط في الكلام فكان برنارد يود لو أخفى وجهه أو يخرج من الغرفة مسرعاً لأنه كان هو شخصياً يعترض على حديث الناس عن الماضي في حد ذاته ، فإن ذلك كان من الأهواء الإيحائية التي خيل لنفسه أنه تخلص منها بتاتاً . وإنما الذي أخجله هو أنه أدرك أن المدير رفض الطلب . وبرغم هذا الرفض كان هو نفسه قد ارتكب هذا الأمر المحرم . ولكن تحت أي دافع باطني يا ترى ؟ لقد أنصت له برنارد بشغف وهو في قلق شديد

كان المدير يقول : « لقد طرأت لي مثلك هذه الفكرة بعينها . وأردت أن أشاهد المتوحشين . وحصلت على تصريح لزيارة المكسيك الجديدة ، وقضيت هناك عطلة الصيف مع الفتاة التي كنت أرافق في ذلك الحين . وكانت (ب) وأظن (وهنا أغمض عينيه) أنها كانت ذات شعر أصفر . وكانت على أي حال هوائية جداً . وإني لأذكر ذلك جيداً . ذهبنا معاً إلى هناك وألقينا على المتوحشين نظرة وركبنا الخيل وطفنا بالمكان وما إلى ذلك . وبعدئذ . وكان ذلك في آخر يوم من أيام عطلتي . ضلت سبيلها . لقد صعدنا راكبين أحد تلك الجبال الشائرة . وكان الجو شديد الحرارة

ثقيلاً ، ثم استغرقنا في النوم بعد الغداء . أو على الأقل استغرقت وحدي ، ولا بد أن تكون قد خلفتني ومشت وحدها . وعلى كل حال فاني لم أجدها إلى جوارتي عندما تيقظت . وقد بدأت تهب علينا أشد عاصفة شهدت في حياتي . وأمطرت السماء وأرعدت وأبرقت ، وانحلت الخيل وانطلقت وحدها . وحاولت أن ألحق بها ولكنني تعثرت وأذيت ركبتي وتمسر عليّ المسير . غير أنني لم أكف عن البحث والصياح ، ولكنني لم أعثر لرفيقتي على أثر . فرجحت أنها عادت وحدها إلى الاستراحة . فدللت إلى الوادي واتبعته الطريق الذي سلكناه عند مجيئنا . وكانت ركبتي تؤلني أشد الإيلاء . وكنت قد فقدت ما عندي من السوما . فاستغرق الطريق مني ساعات ، ولم أبلغ الاستراحة إلا بعد منتصف الليل . غير أنني لم أجدها . لم أجدها . ثم ساد الصمت

واستأنف الحديث أخيراً قائلاً : « وفي اليوم التالي واصلنا البحث . ولكننا لم نجدها ، ورجحنا أنها وقعت في أحد الخنادق في مكان ما ، أو ربما التهمها سبع جبلي . والعلم عند فورد كان الأمر عجيباً وقد أزعجني كثيراً في ذلك الحين . أزعجني أكثر مما ينبغي لأنه حادث قد يقع لأي إنسان . وجسم الجماعة بالطبع باق كما هو مهما تغيرت الخلايا التي يتركب منها » . ولكن يظهر أن هذا العزاء الذي تلقته أثناء النوم لم يكن شديد الأثر . فhez رأسه وواصل حديثه بصوت منخفض ، قال : « إني - في الواقع - أحلم بهذا الحادث أحياناً . أحلم كأنني أستيقظ على قصف ذلك الرعد فلا أجدها ، وأحلم كأنني أبحث عنها تحت الأشجار » . ثم استرسل في صمت الذكريات .

قال برنارد وهو يكاد يحسده : أحسب أنها كانت صدمة شديدة لك . ولما قرع صوته مسمع المدير تنبه إلى موقفه وأحس كأنه آثم ، فرمق برنارد بنظرة سريعة ثم حول عنه عينيه وأظلم وجهه خجلاً . ثم عاود النظر إليه بشيء من الريبة المباشرة ، وغضب لكرامته وقال : « لاتتصور أنني كتبت على صلة خبيثة مع هذه الفتاة . لم تتبادل العواطف ولم تتعمق في العلاقات . إنما كانت الصلة بيننا طبية طبيعية إلى كل حد » . ثم سلم برنارد الجواز قائلاً : « إني لست أعرف حقاً لماذا ضايقتك بهذه القصة التافهة » . وثار على نفسه لأنه أفشى سرّاً شائناً فأنفجر في برنارد غاضباً . واتقدت عيناه بالشر الصريح ، ثم قال : « وإني لأحب أن أنتهز هذه الفرصة يا مستر ماركس كي أذكر لك أنني لست راضياً البتة عن التقارير التي وردت إليّ عن سلوكك في غير ساعات العمل . قد تقول إن هذا ليس من شأني ، ولكنني أقول لك إنه . فإن سمعة المركز تهمني ، ولا بد أن يترفع عمالي عما يشير الريب وبخاصة إن كانوا من الطبقات الراقية . فنحن نكيف أبناء طبقة (أ) بحيث لا يضطرون إلى تكلف السلوك الصبباني في عواطفهم . ويقتضيهم ذلك أن يبذلوا

جهداً خاصاً في العمل وفقاً لما نريد . إن من واجبهم أن يكونوا كالأطفال ، حتى إن كان ذلك ضد ميولهم . ولذا فلست أظلمك إن أنا أذرتك يا مستر ماركس . واهتز صوت المدير هزة الغضب . وكان في غضبه عادلاً غير متحيز . فهو يعبر عن عدم رضا المجتمع نفسه . ثم قال : « فلو لمي إلي مرة أخرى أنك انحرقت عن المستوى الصحيح للسلوك الصبياني فسوف أطلب نقلك إلى مركز فرعي . وإني عندئذ أختار لك ايسلنده . والآن اذهب مع سلامة الله » . ثم استدار في كرسيه ، وأمسك بالقلم وشرع يكتب .

وقال محدثاً نفسه : « هذا درس له » . ولكنه أخطأ فيما زعم لأن برنارد خرج من الغرفة مترنحاً ثم أغلق الباب محدثاً خلفه صوتاً عالياً ، وهو مفتبط لأنه يقف وحده في كفاحه ضد النظم القائمة ، نشوان لأنه ثمل من إحساسه بأهمية شخصيته المستقلة وخطرها . حتى أن فكرة الاضطهاد نفسها لم ترعجه ، بل لقد أكسبته قوة أكثر مما أكسبته انقباضاً . وأحس بالقدرة الكافية على ملاقاته المصائب والتغلب عليها ، وعلى أن يواجه أي شيء حتى ايسلنده . وقد عزز هذه الثقة في نفسه لأنه لم يمتدح لحظة أنه سيدعى فعلاً لملاقاة أي خطر . إن الناس لا ينقلبون لمثل هذه الأسباب . وليست ايسلنده سوى وعيد وتهديد . وهو وعيد منبه للنفس وباعث على الحياة . وسار في الردهة وهو يصفر فعلاً .

وكان كالأبطال ذلك المساء وهو يروي ما دار بينه وبين المدير . وختم الرواية قائلاً : « ولذا فقد طلبت إليه أن يعود إلى الماضي السحيق ، ثم تركت الغرفة ، وهذا كل ما حدث » . ونظر إلى هلمهلتز واطسن يتربح منه ما يستحق من عطف وتشجيع وإعجاب جزاء له على ما فعل . ولكن هلمهلتز لم ينبس ببنت شفة ولبث صامتاً محدثاً في أرض الغرفة .

كان يحب برنارد ، وكان شاكراً له لأنه الصديق الوحيد الذي يستطيع أن يتحدث معه في الموضوعات التي يؤمن بأهميتها . ولكن برنارد . برغم ذلك . كانت له صفات لا يحبها ، منها . مثلاً . هذا الزهو ، وما يستتبعه من تحمسه في إشفاقه على نفسه إشفاقاً شديداً ، ومنها تعوده الجرأة عقب كل حادث ، وحضور بديته بدرجة غير مألوفة وهو بعيد عن ذلك الحادث وهي عادة ممقوتة . كان يكره منه هذه الصفات لأنه كان يحبه . ومرت الثواني وما فتئ هلمهلتز يصوب نظره نحو الأرض ، واحمر برنارد خجلاً ثم انصرف بفتة .

أورليانز مبكرة دقيقتين ونصف . . . وضيمت أربع دقائق في العاصفة التي هبت على تكساس ، ولكنها طارت في تيار هوائي ملانم عند خط الطول ٩٥ غرباً ، واستطاعت أن ترسو عند ساتنا فيه وقد تأخرت أقل من أربعين ثانية عن الموعد المقرر

قال : « أربمون ثانية في رحلة جوية دامت ست ساعات ونصف . لا بأس » . وأذعنت له لينتا

وناماً تلك الليلة في ساتنا فيه في فندق فاخر ، لا يقاس إليه البتة . مثلاً . فندق أورورا بورا بالاس المريع الذي عانت فيه لينتا كثيراً في الصيف السابق . كل غرفة هنا مزودة بالهواء السائل ، والتلفزيون وبآلة التدليك المفرغة المذبذبة ، والراديو ، ومحلل الكافيين المظلي ، وأدوية حارة ضد الحمل ، وثمانية أنواع مختلفة من الطيور . وكانت آلة الموسيقى المركبة تعزف عندما دخلا القاعة الكبرى ، ولم يبق لهما ما يشتهيان . وقرأ في المصعد إعلاناً بأن الفندق به ستون ملعباً لسكواش السلم ، وأن جولف الموانع والجولف المغناطيسي المكهرب يمكن أن يلعبا كلاهما في الحديقة .

فصاحت لينتا قائلة : ما أجمل هذا . وددت لو أقمنا هنا . ستون ملعباً لسكواش السلم . . .

فأندرها برنارد قائلاً : ولكنك لن تجدي في منطقة المتوحشين ملعباً واحداً ولن تجدي هناك عطوراً أو تلفزيوناً بل ولا ماء ساخناً . فإن كنت تعتقدين أنك لا احتملين ذلك فأبشي هنا حتى أعود

فامتعضت لينتا وقالت : أستطيع بالطبع أن أحتمل ذلك . وإنما قلت إن المكان جميل هنا لأن . لأن التقدم جميل . اليس كذلك ؟

فأجاب برنارد وكأنه يحدث نفسه من شدة الإنهاك : التكرار خمسماية مرة كل أسبوع من الثلاثة عشرة حتى السابعة عشرة . ماذا تقول ؟

قلت إن التقدم جميل . ومن ثم فلا ينبغي لك أن تأتي إلى منطقة المتوحشين إلا إن كنت حقاً تحبين ذلك .

إني لأحب ذلك .

فقال لها برنارد وكأنه يهددها : حسناً . وليكن ذلك .

وكان جوارهما يقتضي توقيع حارس المنطقة ، فقدما له نفسيهما في مكتبه في الوقت المناسب في اليوم التالي . وتسلم بطاقة برنارد بواب زنجي من طراز (+م) . وسمح لهما بالدخول فوراً .

وكان الحارس رجلاً أشقر اللون ، صغير الرأس ، من نوع (-)، قصيراً

متورداً ، وجهه كالقمر ، عريض المنكبين ، ذا صوت قوي مرتفع ، يلائم أصد الملاءمة النطق بحكم الإيحاء أثناء النوم . وكانت لديه ثروة من المعارف التي لا تتصل بالموضوع ، يسدي النصيحة الطيبة دون أن يطلب ذلك إليه أحد . وإن بدأ أخذ يتدفق بصوت كقصف الرعد

. خمسمائة وستون ألف كيلومتر مربع مقسمة إلى مناطق فرعية منفصلة ، يحيط بكل منها سور من الأسلاك الشديدة التوتر .

وفي هذه اللحظة ولغير ما سبب واضح تذكر برنارد فجأة أنه ترك منبهور الكولونيا في حمامه مفتوحاً . يتسبب منه العطر .

. . . . . وتستمد التيار من محطة المجرى المائي الكهربائي الكبير .

ورأى برنارد بمخيلته الإبرة فوق مقياس العطر تتقدم تدريجاً بسرعة النملة ولكنها لا تقتر . فقال : إن ذلك يكلفني ثروة طائلة حتى أعود فخابروا هلمهاتز تلفونياً على عجل .

. . . . . أكثر من خمسة آلاف كيلومتر من الأسوار بقوة ستين ألف فولت .

فقالت لينتا : « لا تقل ذلك » ولم تدرك البتة ما قاله الحارس ولكنها فهمت ما يعني تلميحاً من سكوته الذي كان يحاكي سكوت الممثلين . وكانت قد ابتلعت نصف جرام من السوما دون أن يراها أحد قبلما يشرع الحارس في الكلام بصوته المجلجل ، فكانت النتيجة أنها استطاعت الآن أن تجلس هادئة غير مصفية ، لا تفكر في شيء مطلقاً ، وعيناها الزرقاوان الواسعتان محدقتان في وجه الحارس كأنها متنبهة مشغوفة .

وقال الحارس جاداً : ومن يلمس السور يموت في الحال . وليس من منطقة المتوحشين مفر .

وقد أوحى هذه الكلمة الأخيرة « مفر » لبرنارد أن ينهض قليلاً ويقول : « يجب أن نفكر في الانصراف الآن » وقد تخيل الإبرة الصغير السوداء دائبة في مسيرها ، كالحشرة تأكل ما له قصفاً مع كل الساعات .

فرد الحارس إلى كرسيه وكرر قوله : « لا مفر » وحيث أنه لم يوقع بعد على الجواز فلم ير برنارد بداً من الطاعة . ثم قال الحارس : « إن أولئك الذين يولدون في المنطقة لابد لهم أن يموتوا فيها » . ثم قال وقد نظر إلى لينتا شزراً ورمقها بنظرة فاحشة وتحدث في همس غير مألوف : « اذكري يا أنستي العزيزة أن الأطفال لا يزالون يولدون في المنطقة . أجل إنهم ليولدون ، وقد يبدو لك ذلك أمراً منفراً . . . . » . (وكان يأمل أن تخجل لينتا هذه الإشارة إلى موضوع مخجل . ولكنها اكتفت بالابتسام وتكلفت الإدراك وقالت : « لا تقل ذلك » . فشر الحارس بالخذلان) .

لابد أن يموتوا . . عشرة ليرات من الكولونيا كل دقيقة . أي ستة لترات في الساعة . فحاول برنارد الكلام مرة أخرى . قال : يجب أن نفكر في . . .  
وانحنى المدير إلى الأمام وقرع المائدة بسبابته وقال : «تسالونني كم من الناس يمشي في المنطقة ، وأجيبكم أنني لأعرف ، لكنني أستطيع أن أحس»  
وأحس بإحساس الرجل الظافر  
لانتقل ذلك .

. أنستي العريضة . إنني أقول ذلك .

٢٤٣٦ . بل ما يقرب من ٣٦٣٦ . فاستولى القلق على برنارد وشحب وجهه  
وارتجف . ولكن جلجلة الحارس استمرت بغير انقطاع  
ما يقرب من ستين ألف هندي ومولد . في منتهى التوحش

ومفتشونا بين الفينة والفينة يزورون . والا انقطعت كل صلة لهم بالعالم  
المتمدن . . لايزالون يحتفظون بعاداتهم وطبائعهم المنفرة . . الزواج ، إن كنت  
تفهمين ما أعني يا أنستي العريضة ، والعائلات . . وعدم التكيف . . والخرافات  
الشيعة . . والمسيحية والطوطمية<sup>(١)</sup> وعبادة الأسلاف . . واللغات البائدة مثل  
لغة زوني والإسبانية والاثباسكانية . . والسبع الجبلي والقناذف والحيوانات المفترسة  
الأخرى . . والأمراض المعدية . . والقسس . . والسحليات السامة  
لانتقل ذلك!

وانصرفا أخيراً . فأسرع برنارد إلى التلفون ، ولكنه استغرق ما يقرب من  
خمس دقائق حتى استطاع أن يتصل بهلمهلتز وأحسن ، وشكا قائلاً : ربما كنا الآن  
بين المتوحشين بالفعل . ألا قاتل الله العجز!  
واقترحت عليه ليننا أن يتناول جرماً .

ولكنه رفض وأثر أن يبقى غاضباً . وأخيراً حمد فورد لأنه استطاع أن يتصل  
بهلمهلتز فشرح له ما حدث . ووعده بهلمهلتز أن يذهب رأساً إلى الصنبور فيغلقه .  
ولكنه انتهر هذه الفرصة وبلغه ما قاله المدير علناً مساء أمس

فقال برنارد في صوت ينم عن الألم : «ماذا ؟ لعله يبحث عن أحد يحله  
محلي . وهل انتهى الأمر على ذلك ؟ هل ذكر أيسلنده ؟ تقول إنه ؟ يا لله!  
ايسلنده . » ثم علق السماعة والتفت إلى ليننا . وكان وجهه شاحباً وعلى وجهه  
سيما الحزن الشديد

فسألته : ما الأمر ؟

(١) الطوطم حيوان أو نبات يقده الهنود الأمريكيون لأنهم يحثرونه شعاراً للأسر والقبائل التي يتسبون إليها



وأجابها : « الأمر أنني سوف أبعث إلى أيسلنده » . ثم خرّ على أحد المقاعد متفاقلاً

ولطالما تعجب في الماضي ماذا يكون إحساس المرء إذا أصابته محنة أو ألم أو تعرض لاضطهاد (وهو لا يتناول السوما ، ولا يعتمد إلا على موارد الباطنية) بل لقد كان يود لو أصابته إحدى الملمات . ومنذ أسبوع واحد فقط ، وهو في مكتب المدير ، تخيل أنه سوف يقاوم بشجاعة وسوف يتقبل المصيبة هادئاً دون أن يتفوه بكلمة واحدة . وقد جعله تهديد المدير يحس بعلو النفس فعلاً ، ويشعر كأنه أعظم من الحياة نفسها . ولكنه أدرك الآن أنه إنما أحس بذلك لأنه لم يتلق التهديد جاداً ولم يعتقد أن المدير سوف يبرم أمراً عندما يتخرج الموقف . والآن حينما أدرك برنارد أن المدير سوف ينجز بالفعل ما هدد به من قبل أصابه ذعر شديد . ولم تبقى بنفسه بارقة من ذلك الهدوء الذي كان يتخيله أو تلك الشجاعة النظرية

ثار في وجه نفسه . يا له من أحمق! . وثار ضد المدير . إنه لم يكن عادلاً لأنه لم يعطه الفرصة الأخرى التي لم يشك الآن في أنه كان دائماً يعترم انتهازها . ثم إن أيسلنده ، أيسلنده

وهزت ليننا رأسها وقالت : لقد جعلتني وسوف تجعلني عليلة سأتناول جراماً وأعود كما كنت

وفي النهاية أغرته أن يبتلع أربعة أقراص من السوما وبعد خمس دقائق اختفت الجذور والثمار<sup>(١)</sup> ، ولم تبقى إلا زهرة الحاضر متوردة متفتحة . ثم بلغها حارس الباب رسالة من الحارس فحواها أن حارساً من حراس المنطقة قد وصل بطائرته وهو بانتظارهما فوق سطح الفندق فصعدا في الحال . وحياهما رجل يجري فيه بعض دم الزوج ويرتدي زياً أخضر كزي طبقة (ح) ثم شرع يتلو برنامج الصباح

نظرة عاجلة لعشر قرى أو اثنتي عشرة قرية من قرى الزوج الكبرى ، ثم يهبطان للغداء في وادي مالبي في بيت مريح . وفي تلك القرية يحتمل أن يكون المتوحشون محتفلين بعيد الصيف . ويكون ذلك الاحتفال إذن خير مكان يقضيان فيه المساء

واتخذاً مكانهما من الطائرة وانطلقا . وبعد عشر دقائق كانا يعبران الحدود التي تفصل المدنية من الهمجية في الأودية وفوق التلال ، وعبروا الصحراوات الملحية والرملية ، وخلال الغابات ، وفي أعماق الأخاديد البنفسجية اللون ، وفوق القمم والصخور الناتئة والهضاب المستوية وكأنه الخط المستقيم أو الرمز الهندسي الذي يدل

(١) أي ما كان وما سيكون

على قوة الإرادة الإنسانية التي لاتقاوم . وعند سفح السور ، هنا وهناك ، كانت العظام البيضاء الشبيهة بالفسيفساء ، والجثث التي لم تتعفن بعد الملقاة على الأرض التي لفحتها الشمس ، تدل على أن الغزلان والعجول والسباع والقنافذ والذئاب وذكور الباز الشرهة قد جذبتها رائحة الجيف وكأن العدالة الإلهية قد أثارت سخطها فاقتربت جداً من الأسلاك المهلكة

قال السائق ذو الزي الأخضر : إنهم لايتعلمون أبداً . وأشار إلى الهياكل الملقاة على الأرض تحت أبصارهم . ثم قال : « ولن يتعلموا » . وضحك كأنه انتصر شخصياً على الحيوانات التي قتلها الكهرياء

وضحك برنارد كذلك . وكان قد تناول جرامين من السوما فتصور أن النكتة طيبة لسبب ما . ضحك ثم غلبه النعاس في الحال ، وحلق وهو نائم فوق تاووز وتسك ، وفوق نامب وبكيورس بوجوك ، وفوق سيا وكوشيتي ، وفوق لاجونا واكوما ميزا المسحورة ، وفوق زوني وكييولا وأوجو كالييتيه ، ثم تيقظ أخيراً فألقى الطائرة واقفة فوق الأرض وليننا تحمل حقائب الملابس في بيت صغير مربع ، والحارس الذي يجري فيه الدم الزنجي والذي يرتدي زي (ح) الأخضر يتحدث حديثاً غير مفهوم مع رجل هندي شاب

وقال قائد الطائرة حينما كان برنارد خارجاً منها : « نحن في مالبي ، وهذه هي الاستراحة . وفي عصر هذا اليوم رقص في قرية الزنوج » . وأشار إلى الرجل الهمجي الشاب المكتئب قائلاً : « إنه سوف يصحبك إلى هناك » . ثم قال متجهماً « إنه مضحك . وكل ما يفعله الناس من أمثاله يثير الضحك » . ثم نزل في الطائرة وأدار المحركات وقال : « سأعود غداً » . ثم قال لليننا مؤكداً عليها « واذكري أنهم في منتهى الألفة إن هؤلاء الهمج لن يصيبوك بأذى . إن لديهم تجارب كافية عن القنابل الغازية فهم يدركون أن العبث لايجوز » . وحرك لولب الطائرة وهو لايزال يضحك ، وزاد من سرعتها ، ثم اختفى

## الفصل السابع

كانت الهضبة شبيهة بسفينة راسية في بوغاز من رمال لونها كلون الأسد والقنار يلوي بين السواحل الرأسية ، وينحرف من حائط إلى آخر عبر الوادي شريط أخضر . وذلك هو النهر وما حوله من حقول . وفي مقدمة تلك السفينة الصخرية وسط المضيق كانت تقع قرية مالبي للزنوج وكأنها جزء من المقدمة ، وهي تنوء صخري عار ذو شكل هندسي . وكنت ترى البيوت سامقة طابقاً فوق طابق ، وكل طابق أصغر مما تحته ، كأنها أهرام مدرجة مبتورة تناطح السماء الزرقاء . وتقع عند سفوحها مبان منخفضة متناثرة ، وهي عبارة عن مجموعة من الحوائط المتقاطعة وجوانب الهضبة من ثلاث جهات تنحدر رأساً في قلب الوادي . وكانت بعض أعمدة الدخان ترتفع رأساً في الهواء الساكن ثم تختفي

فقال لي لنا : « يا للعجب ، يا للعجب ! » وقد اعتادت هذه الكلمات إذا سخطت على شيء . ثم قالت : « إنني لأحب هذا المنظر ، ولأحب ذلك الرجل » . وأشارت إلى المرشد الهندي الذي عين لمرافقتهم إلى القرية . وكان من الجلي أن الرجل يبادلها مقتاً بقت . حتى إن ظهره وهو يتقدمهم كان ينم عن العداوة والازدراء والغم الشديد وأخفضت صوتها وقالت : فضلاً عن ذلك فإن له رائحة كريهة

ولم يحاول برنارد أن ينكر ذلك . ثم تابعا المسير

وشعرا فجأة كأن الهواء قد تحرك ، ونبضت عروقهما بحركة الدم التي لا تفتقر وكانت الطبول تدق في مالبي . فوقعا بأقدامهما على ذلك النغم العجيب . ثم أسرعوا الخطأ . وأدى بهما الطريق إلى سطح الجرف . وكانت جوانب الهضبة تعلوهما وترتفع ثلاثمئة قدم

قالت ليننا وقد نظرت باستياء شديد إلى سطح الصخر المرتفع الأجرد وددت لو أننا أحضرنا معنا الطائرة ، فإني أكره المشي ، كما أن المرء يشعر بصفره الشديد وهو على الأرض عند سفح التل

وسارا معاً منسافة ما في ظل الهضبة ، ودارا حول نتوء صخري فإذا بهما عند أخذود شقته المياه ، فأخذوا يصعدان الدرج المرافق وكان الطريق إلى أعلى شديد الانحدار يلتوي من جانب إلى آخر فوق سطح الأخدود . وكان دق الطبول حيناً ضعيفاً غير مسموع ، وحيناً قوياً كأنه على مقربة شديدة منهما

ولما بلغا منتصف الطريق إلى أعلى طار إلى جانبهما نسر ، وكان قريباً منهما جداً حتى أن الريح التي حركتها جناحاه هبت باردة على وجهيهما . وفي فجوة من فجوات الصخر شاهدا كومة من العظام وكان كل شيء جد عجيب ، ورائحة الهندي الكريهة تشتت شيئاً فشيئاً ، وخرجوا أخيراً من الأخدود إلى ضوء الشمس القوي . وكانت قمة الهضبة سطحاً مستوياً من الصخور

فقالت ليننا : « ما أشبهه ببرج شارنج . ت » غير أن الفرصة لم تتح لها كي تستمتع بهذه المشابهة القوية طويلاً . فقد سمعا وقع أقدام لينة فالتفتا إليه ، فإذا باثنين من الهنود يركضان فوق الطريق ، وهما عاريان من العنق إلى السرة ، وجسماهما الأسمران القاتمان ملونان بخطوط بيضاء (وقد شبهتهما ليننا فيما بعد بملاعب التنس الأسفلتية) ، ووجهاهما أسودان كالحديد ملطخان باللوثات القرمزية ، فهما لا يشبهان الوجوه البشرية ، وشعرهما الأسود مضفور بفراء الثعلب والفانلة الحمراء . وتطايروا فوق أكتافهما عباءة من ريش الديكة الرومية ، ويتوجان رأسيهما بأكاليل الريش الضخمة الزاهية . وأساورهما الفضية وعقودهما الثقيلة المصنوعة من العظم ومن حبات الفيروز تجلجل وتخشخش كلما خطوا إلى الأمام وتقدما صامتين ، وأسرعاً هادين في أخفاف من جلد الغزال . وأمسك أحدهما بفرجون من الريش ، وحمل الآخر في كلتا يديه أشياء بدت على بعد كأنها ثلاث قطع أو أربع من الحبال . وأحد هذه الحبال يلتوي بعسر شديد ، وأدركت ليننا بفتة أن هذه الحبال إن هي إلا شعابين

واقترب الرجلان ، وحدقا فيهما بعيونهما السود ، ولكن دون أن تصدر منهما إشارة تبدل على معرفتهما ، أو أي علامة تشير إلى أنهما قد رأياهما فعلاً أو أدركا وجودهما . وارثخي الشعبان الملتوي مرة أخرى وتدلّى على بقية الشعابين . ثم مر الرجلان

قالت ليننا : إنني لا أحب هذا المنظر بتاتاً  
وكانت أشد مقتاً لما لقيته عند مدخل القرية حيث خلفهما المرشد ودخل البلد

كي يتلقى الأوامر . وتقززت ليننا أولاً من القاذورات ومن أكوام النفايات والتراب والكلاب والذباب . فتجمد وجهها والتوى أشمنزاً . ورفعت منديلها إلى أنفها وانفجر صوتها حانقة لاتكاد تصدق ما ترى وقالت كيف يمكنهم العيش هنا ؟ (ولقد كان العيش بالفعل مستحيلاً في ذلك المكان)

وهز برنارد كتفيه متفلسفاً وقال : على أي حال . إنهم عاشوا هنا حتى الآن خمسة آلاف عام أو ستة آلاف . ولذا فأني أظن أنهم الآن متعودون وأصرت ليننا قائلة : ولكن النظافة من الإيمان

واستمر برنارد قائلاً : «نعم والمدينة تعقيم» . مردداً في سخرية الدرس الإيحائي الثاني من مبادئ علم الصحة . ثم قال : ولكن هؤلاء الناس لم يسمعوا بفورد وهم غير متمدنين ، ولذا فلا يهم

وقبضت على ذراعه مذعورة وقالت : أنظر!

وكان حينذاك رجل هندي عار كله تقريباً يهبط على السلم المتنقل مبطناً من ردهة الطابق الأول في المنزل المجاور وأمسك بالقضيب تلو القضيب وهو يرتجف من الحرص كأنه شيخ عجوز . وكان وجهه أسوداً عميق التجاعيد كأنه قناع من الصخر اللامع . وانفراج ثغره عن فم بغير أسنان . وفي طرفي شفثيه وعلى جانب ذقنه أبرقت بضع شعرات خشنة طويلة بيضاء وسط البشرة السوداء . وتدلّى شعره الطويل غير مضفور في خصل رمادية حول وجهه . وقد احذوب ظهره وهزل جسمه حتى برزت عظامه وتففض لحمه . وهبط في بطن شديد ، وكان يقف عند كل قضيب من قضبان السلم قبل أن يجرؤ على الهبوط درجة أخرى

فهمست ليننا قائلة : «ما علته ؟» وقد انفرجت عينها فرعاً ودهشة فأجابها برنارد بقدر ما استطاع من إهمال قائلاً : «كل ما في الأمر أنه عجوز!» وقد أصابه هو كذلك الذعر ، غير أنه بذل الجهد في إخفاء تأثيره فرددت لفظه قائلة : عجوز ؟ إن المدير عجوز ، وكثير من الناس عجائز ، ولكنهم ليسوا كهذا الرجل

. ذلك لأننا لانسمح لهم أن يظهروا بهذا المظهر ، فنحن نحميمهم من الأمراض ، ونحفظ لهم إفرازهم الداخلي بطريقة صناعية على حاله كما كان أيام الشباب . إننا لانسمح لما عندهم من مغنزيوم الكلسيوم أن تهبط نسبته إلى أقل مما كانت عليه في الثلاثين . إننا ننقل إليهم دماء الشباب . وكذلك تقوي فيهم دائماً القدرة على تجديد ما يستهلكون من أبدانهم . ولذا فهم بالطبع لا يظهرون بهذا المظهر . ويرجع ذلك - إلى حد ما - إلى أن أكثرهم يموتون قبل أن يبلغوا سن هذا المخلوق العجوز . إنهم يحتفظون بفتوة الشباب كاملة حتى الستين ثم تنتهي حياتهم فجأة

ولكن ليننا لم تصغ إليه بل كانت ترقب الرجل العجوز وقد هبط في بطن.

شديد ومست قدماء الأرض ثم التفت ، ولملت عيناه ببريق غير معهود وهما غائرتان في محجرهما ، وصوبهما نحوها برهة طويلة ، لايدلان على شيء ، ولايعبران عن دهشة ، كأنها لم تكن هناك . ثم أخذ يحجل متباطئاً إلى جوارهما ببطء شديد وبظهر محدودب . ثم اختفى

فهمست ليننا قائلة : «إنه مريع إنه مخيف . وما كان ينبغي لنا أن نأتي إلى هذا المكان» . وفتشت في جيبتها عن السوما . فوجدت أنها تركت الزجاجاة في الاستراحة سهواً وهو ما لم يحدث لها من قبل . وكذلك كانت جيوب برنارد فارغة .

ولبثت ليننا في مالبى تواجه الفرع بغير معين . وقد تكاثرت أسباب الفرع حولها وتلاحقت . أخلجها مشهد سيدتين في سن الشباب وقد قدمتأ أئداءهما لصغارهما فأشاحت عنهما بوجهها . إنها لم تر في حياتها منظراً بشعاً كهذا . وما زاد الطين بلة أن برنارد بدلاً من أن يتجاهله بلباقة بدأ يعلق صراحة على هذا المنظر المنفر الذي يدل على التناسل بطريقة غير طريقة التفريخ . وكان أثر السوما قد زال ، فأحس بالخلج من الضعف الذي أبداه في الفندق ذلك الصباح ، وأراد أن يظهر قوته وعدم تقيده بالأصول المرعية

وقال في ثورة متكلفة : ما أجمل تلك العلاقة وما أحبها إلى النفوس ، وما أغزر ذلك الشعور الذي تولده هذه العلاقة! لطالما جال بخاطري أن المرء يفقد شيئاً ما إذا لم تكن له أم . ولربما فقدت الكثير يا ليننا لأنك لم تكوني أماً . تصوري نفسك جالسة هناك ومعك طفلك الصغير الخاص

وقالت : «كيف تجرؤ على هذا القول يا برنارد» . ثم صرفها عن غضبها مرور امرأة عجوز مصابة بالرمد وبمرض جلدي

ثم قالت : دعنا ننصرف . إنني لأحب هذه المناظر وعندئذ عاد مرشدهما وأشار إليهما أن يتقنيا أثره ، ثم تقدمهما وسار نحو الطريق الضيق الذي يقع بين البيوت . وساروا جميعاً حول أحد الأركان . وأبصرا كلباً ميتاً ملقى على كومة من المخلفات القذرة ، وامرأة تضخمت غدتها الدرقية تبحث عن القمل في شعر فتاة صغيرة . ثم وقف المرشد عند أسفل أحد السلالم المتحركة ، ورفع يده عمودية ثم دفعها أفقية إلى الأمام . وفلا ما أمرهما به بالإشارة دون الكلام ، فتسلقا السلم ، وولجا الباب الذي يؤدي السلم إليه ، فإذا بهما في غرفة طويلة ضيقة ، مظلمة تنتشر فيها رائحة الدخان والدهن المطبوخ والملابس البالية القذرة . وكان في الطرف الآخر من الغرفة باب آخر ينفذ منه شعاع من ضوء الشمس وضجيج الطبول القريبة

ووطأت أقدامهما عتبة الباب فألفيا نفسيهما في دهليز فسيح وتحت أبصارهما

ميدان القرية تتحوطه المنازل المرتفعة من جميع النواحي ويموج بالهنود . فلمحوا الأردية البراقة ، والريش في الشعر الأسود ، ولآلة الفيروز ، والجلود السوداء التي تلمع وتشع الحرارة . فوضعت ليننا منديلها على أنفها مرة أخرى . وكان بالفضاء الذي يقع وسط الميدان رصيفان مستديران مشيدان من الصلصال المضغوط . ومن الواضح أن تلك كانت سطوح حجرات تحت الأرض ، لأنهما شاهدا وسط كل رصيف باباً مفتوحاً يخرج منه سلم يبرز من الظلام السفلي . وطرق أسمعاهما صوت مزمار يعزف في باطن الأرض ، غير أنه يكاد يتلاشى في دق الطبول الثابت المتصل الذي لم يعبأ بأحد

وكانت ليننا تحب دق الطبول . فأغمضت عينيها واسترسلت مع ذلك الصوت المتكرر الذي يشبه قصف الرعد ، ومكنته من أن يتغلغل في شعورها وإحساسها شيئاً فشيئاً حتى لم يبق في العالم في نهاية الأمر سوى نبضات الطبل الشديدة المتوالية . وذكرها ذلك الصوت تذكيراً قوياً بالوضوء المصطنعة التي تحدث في صلاة الجماعة وفي الاحتفال بعيد فورد . فدمدت قائلة : « شولم ، شولم » إذ أن الطبل الذي طرق سمعها كان يدق على هذا النغم

ثم تفجر الغناء بغتة فتنبهت ليننا . كانت أصوات المئات من الذكور تصيح معاً بشدة وكأنها رنين المعدن الغليظ . وأنشد المغنون بضع نغمات طويلة ثم صمتوا ، وبقيت الطبول وحدها تجلجل كالرعد . ثم أجابت النسوة بصوت حاد كأنه الصهيل المرتفع . ثم عادت الطبول إلى دقها ، وعاد الرجال المتوحشون إلى غنائهم بصوت عميق يؤكد رجولتهم . عجيب حقاً كان ذلك المكان عجيباً ، وكذلك كانت الموسيقى . وكذلك كانت الأزياء والغدد الدرقية المتضخمة والأمراض الجلدية والشيوخ المسنون . أما الأداء نفسه فلم يكن فيه ما يستدعي العجب بصفة خاصة

وقالت لبرنارد : يذكرني هذا بالغناء الجمعي للطبقات الوضيعة

ولكن بعد فترة قصيرة لم يعد هذا الغناء يذكرها . كما كان يفعل من قبل . بغناء الطبقات الفقيرة الذي لا يعود على أحد بالضرر . إذ أنها شهدت بغتة جماعة شاحبة اللون من أولئك المتوحشين تخرج من تلك الحجرات السفلية وتتجمعهم وكان أفراد تلك الجماعة يبدون في هيئة زرية يختلفون عن البشر في مظهرهم كل الاختلاف . وقد بدؤوا يدبون حول الميدان وهم يرقصون رقصة غريبة مرتتجة وأخذوا يدورون حول الميدان مرة بعد أخرى مغنين وهم يرقصون . وكانوا يسرعون في كل رقصة عن الرقصة السابقة . وتغير دق الطبول وأسرع في النغم ، حتى أصبح مسمعها كنبض الحمى في الأذان . وشرعت الجماهير تغني مع الراقصين . وعلا غناؤهم . وقد صاحت إحدى النسوة ، ثم تبعتها ثانية فثالثة كأنهن يقتلن . وبعدئذ خرج عن الصف بغتة قائد الفرقة الراقصة واندفع نحو صندوق خشبي كبير قائم في

طرف من أطراف الميدان ، ثم رفع الغطاء وأخرج شعبانين أسودين فانفجرت الجماهير صائحة ، وجرى بقية الراقصين نحوه ومدوا له أيديهم . فألقى الشعبانين على أول القادمين ثم أدخل يده في الصندوق ليخرج غيرهما . وتكاثر الشعبانين ، منها الأسود ومنها البني ومنها المرقش . وقد طوحها جميعاً . ثم بدأ الرقص مرة أخرى على نفمة أخرى . فداروا حول الميدان يحملون الشعبانين ويتلونون مثلها ، ويتماوجون تماوجاً خفيفاً عند الركب والأرداف . ثم أشار لهم قائدهم ، فألقيت الشعبانين واحداً بعد الآخر وسط الميدان ، وظهر حينئذ رجل عجوز من تحت الأرض ونثر فوقها دقيق الحنطة ، وخرجت من الفتحة الأخرى امرأة رشت فوقها الماء من وعاء أسود وعندئذ رفع الشيخ يده فصمت الجميع مذعورين خائفين . وكفت الطبول عن الدق وكان الحياة قد انعدمت من كل شيء . وأشار الشيخ صوب الفتحتين اللتين تؤديان إلى العالم السفلي . وقد برز من إحدهما تمثال نسر ملون رفعت في بطنه شديدة أياها مخفية . وبرز من الفتحة الأخرى تمثال رجل عار مسمر فوق صليب . وبقيها هناك معلقين وكان كلا منهما يقيم نفسه ، وكأنهما يرقبان . وصفق الشيخ بيديه وتقدم من الجمع الحاشد غلام في الثامنة عشرة من العمر تقريباً عاري الجسد لايتستر إلا بقطعة من القماش عند ردفه ، ووقف أمام الشيخ ، ويدها متصالبتان فوق صدره ، ورأسه منحني . فرسم الشيخ فوقه علامة الصليب ثم انصرف فشرع الغلام يسير مبطناً حول كومة الشعبانين المتلوية . وبعد ما أتم الدورة الأولى وقطع من الثانية نصفها تقدم نحوه من بين الراقصين رجل طويل القوام يتقنع بجلد الذئب ويمسك في يده سوطاً من الجلد المضفور . فتحرك الغلام كأنه لا يعلم بوجود الرجل فرفع الرجل المستأذب سوطه . وتعلقت الأنفاس لحظة طويلة في ارتقاب ما عساه يحدث ، ثم تحرك الرجل حركة سريعة أعقبها صفير السوط وهو يهبط وصوته الضخم وهو يسجد الغلام . واهتز جسم الصبي ، ولكنه لم يحدث صوتاً ، بل واصل سيره محتفظاً بخطوته البطيئة الغائبة . وأخذ الرجل المستأذب يضربه مرة بعد أخرى . وعند كل ضربة يعلو من الجمهور اللهاث الذي يعقبه الأنين العميق وظل الغلام يدور للمرة الثانية ، فالثالثة ، والرابعة ، والدم يتدفق منه ثم دار للمرة الخامسة فالسادسة . فحجبت لينا لفورها وجهها بيديها ، ثم أجهشت بالبكاء وقالت متوسلة : « أوقفوهم ، أوقفوهم » . ولكن السياط توالى بغير انقطاع . ودار الغلام دورته السابعة ، ثم ترنح وخر على وجهه صريعاً دون أن ينبس ببنت شفة فانحنى فوقه الشيخ ومس ظهره بريشة طويلة بيضاء . ثم رفع الريشة ليرهاها الناس . فإذا بها قرمزية اللون ، ثم هزها ثلاث مرات فوق الشعبانين . وسقطت بضعة قطرات ، ثم شرعت الطبول تدق مرة أخرى مسرعة تثير الرعب . وسمعت صيحة عالية فاندفع الراقصون إلى الأمام والتقلعوا الشعبانين وجروا بعيداً عن الميدان . وتبعهم



الرجال والنساء والأطفال وكل الجمع المحتشد . وبعد دقيقة خلا الميدان ولم يبق به غير الغلام منكفئاً على وجهه ساكناً حيث خر . وخرجت ثلاث من النسوة المجازر من أحد المنازل ورفعنه في شيء من المشقة ثم أدخلته الدار . وبقي النسرة والرجل المصلوب برهة يحرسان القرية الخاوية . ثم هبطا مبطنين خلال الفتحتين واختفيا في العالم السفلي وكأنهما اكتفيا بما شاهدا

وما برحت ليننا تبكي وتكرر قولها : « هذا شيء مريع ! تلك الدماء ! » ولم يجدها عزاء برنارد نفعا ، وارتعدت رعباً وفزعاً ثم قالت : وددت لو تناولت السوما

وسمع في الغرفة الداخلية وقع أقدام . فلم تتحرك ليننا ، بل لبثت مكانها ووجهها بين يديها ، في عزلة عن العالم ، لا ترى شيئاً . والتفت برنارد وحده وبرز إلى الدهليز شاب في زي الهنود ، غير أن شعره المصفور كان في لون القش ، وعينه زرقاوان شاحبتان ، وجلده أبيض برونزي .

قال هذا الرجل الغريب في لغة الإنجليزية عجيبة برغم خلوها من الخطأ : أهلا عموا غداً . إنكم قوم متمددون . أليس كذلك ؟ أتيتم من العالم الآخر خارج هذه المنطقة

فدهش برنارد وبدأ الكلام بقوله : من ذا عسى أن يكون فتهد الشاب وهز رأسه وقال : « إنه رجل بانس ! » ثم أشار إلى لوثات الدم وسط الميدان وقال : « هل ترون تلك البقعة اللعينة ؟ » وقد تهدج صوته من شدة العطف

وقالت ليننا من خلف يديها بطريقة آلية : جرام واحد خير من اللعنة . وددت لو تناولت السوما !

واستمر الشاب في كلامه . قال : « كان ينبغي أن أكون هناك . لِمَ لم أكن ضحيّتهم ؟ إذن لاستطعت أن أدور عشر مرات . بل اثنتي عشرة ، بل خمس عشرة ، أما بالوهتوا فلم يَفدُ السبع كانوا يستطيعون أن يظفروا من دمي بضعف ما ظفروا منه . يظفرون ببحار واسعة من الدم القاني » . ومد ذراعيه بحركة عنيفة . ثم أرخاهما قانطاً وقال : « ولكنهم لم يرضوا بي . إنهم يمتنونني من أجل بشرتي وقد كانوا كذلك دائماً ، دائماً » . وتجمع الدمع في مقلتيه فخل وانصرف .

وأنسى الذهول ليننا حرمانها من السوما . ثم كشفت عن وجهها وألقت على الغريب أول نظرة وسألته : هل تعني أنك كنت تريد أن تضرب بذلك السوط ؟ وكان الشاب منصرفاً عنها ولكنه أشار بالإيجاب وقال : « من أجل القرية . كي تهطل الأمطار وينمو القمح . ولكي يرضى بوكونج ويسوع . ولكي أبرهن أنني أستطيع أن أتحمّل الألم بغير بكاء » . وتغيرت نغمة صوته ، وأدار منكبيه معجباً

ورفع ذقنه متحدياً متشامخاً وقال « كي أبرهن على رجولتي » . وشهق ثم صمت وفغر فاه . لقد كانت تلك أول مرة في حياته يشهد فيها فتاة وجهها ليس كالشكولاته أو جلد الكلب لوناً ، وشعرها مصفر دائم التموج ، وملامحها تنم عن الخير ، وذلك شيء عجيب غير مألوف . وابتسمت له ليننا ، وقد أعجبت أشد الإعجاب بحسن مظهره وجمال قوامه . فتدفق الدم في وجنتي الشاب . وأرخی جفنيه ، ثم رفعهما بعد لحظة فوجد أنها لاتزال تبتسم له ، فقلبه الخجل والتفت إلى وجهة أخرى وتظاهر بالتحديق في شيء ما في الجانب الآخر من الميدان وأنقذ برنارد الموقف بما وجهه إلى الشاب من أسئلة : من يكون ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ ومن أين ؟ وثبت الشاب نظره في وجه برنارد (لأنه كان يتحرق شوقاً ليرى ليننا وهي تبسم حتى إنه لم يجرؤ على مجاببتها بالنظر) وحاول أن يشرح حقيقة أمره . كان هو وأمه لندا (وقد بدا القلق على ليننا عندما سمعت لفظة الأم) غربيين في تلك المنطقة . فلقد أتت لندا قبل مولده مع أبيه من العالم الآخر وهنا رفع برنارد أذنيه مصغياً . ثم قال الشاب إن أمه تجولت في تلك الجبال وحدها وسارت نحو الشمال ، ثم سقطت من مكان مرتفع شديد الانحدار وأذت رأسها (قال برنارد متهيجاً : « أسرع ، أسرع ») فوجدها بعض الصيادين من مالبي وصحبوها إلى القرية . ولم تر لندا أباه بعد ذلك الحين . وكان اسمه توماكين (وتوماس هو الاسم الأول للمدير) . ولا بد أن يكون قد عاد طائراً إلى العالم الآخر بغير الأم . لقد كان سيي الخلق قاسياً شاذاً

وختم حديثه قائلاً : « وهكذا ترون أنني ولدت في مالبي » . ثم هز رأسه ما أقدر ذلك المنزل الصغير الذي يقع في ضاحية من ضواحي القرية! كانت تفصله عن القرية أرض فضاء تغطيها الرمال والغابات . وكان لدى كومة القاذورات عند الباب كلبان جانعان ينبحان نباحاً فاحشاً . ولما ولجوا الدار فاجأتهما رائحة كريهة وطنين الذباب

وصاح الشاب منادياً : لندا! فأجابته من الغرفة الداخلية بصوت نساني أجش قائلة : إنني آتية وانتظروا ، ووقعت أبصارهم على بقايا وجبة أو وجبات عديدة من الطعام في الأواني الملقاة فوق الأرض

وانفتح الباب ، فإذا بامرأة من الهنود الأمريكيين ، بدينة شقراء تطأ العتبة ، ثم تقف ناظرة إلى الغربيين محدقة فيهما ، فاعرة فاها لاتصدق ما ترى . وتقززت ليننا عندما لاحظت أن المرأة كان ينقصها اثنتان من الأسنان الأمامية ، وأن لون ما بقي لها من أسنان . واقشعر بدنهما . لقد كانت أسوأ من الشيخ ، بدينة ، وجهها مجعد ، مترهلة ، متفضنة . وقد تجوف خذاها وتلطخا بلوثات أرجوانية اللون

وظهرت الحمرة في عروق أنفها ، والتهبت عيناها . وما أقبح جيدها ، وذلك القماش الغليظ الذي غطت به رأسها ، ما أقدره وما أشد تمزيقه . وقد بززت بطنها وردفاها وثدياها تحت ذلك الرداء البني الذي يشبه الجوال . حقاً لقد كانت أسوأ من الرجل العجوز! وتفجر هذا المخلوق فجأة بتيار جارف من الكلام ، ثم اندفعت نحوها بذراعين ممدودتين . يا لله ، يا لله! لقد كانت منفرة جداً ، ولو بقيت لحظة أخرى لحزت ليننا علية . ثم التصق بها تنوء بطنها وثديها وقبعتها . يا لله! أفتقبلها ، وقد سال لعابها وانتشرت منها الرائحة الكريهة! لاشك أنها لم تستحم قط ، وكانت تفوح منها رائحة تلك المادة الكريهة التي توضع في قوارير (د) ، (هـ) (وليس صحيحاً ما يقال عن برنارد) . وتنتشر منها رائحة الكحول . فحاولت ليننا أن تفر بأسرع ما استطاعت ، فالتقت بوجه شائه باك ، فقد كانت المرأة تبكي بصوت مرتفع

وأخذت العجوز تتدفق في الكلام وهي تبكي . وقالت : « عزيزتي لو عرفت مقدار سروري . بعد كل هذه السنوات . لرؤية وجه متمدن . وزى متمدن . لقد كنت أحسب أنني لن أرى قطعة من حرير الحامض مرة أخرى » . ثم لمست بأصبعها كم قميص ليننا . وكانت أظافرها سوداء . ثم قالت : « وهذه السراويل القصيرة الباهرة من المخمل اللين! هل تعلمين يا عزيزتي أنني مازلت أحتفظ في أحد الصناديق بملابسي القديمة التي قدمت فيها أول مرة . وسوف أطلعك عليها فيما بعد وإن تكن الخروق قد كشرت في الحرير الحمضي ولكن ما أجمل حزام الكتف الأبيض ، وإن كنت أقر بأن حزامك المراكشي الأخضر أجمل منه . غير أنني لم أفد كثيراً من حزامي » . وبدأ الدمع ينحدر من عينيها ثانية ، ثم قالت : « أحسب أن جون قد أخبرك . لقد عانيت كثيراً . ولم يكن عندي جرام واحد من السوما . لم يكن لدي سوى شراب المسكال أتناول منه الفينة بعد الفينة ، كلما أتاني به بوبي . وبوبي هذا ولد عرفته . ولكن هذا الشراب له أثر سيئ على الحس فيما بعد . إنه يصيب شاربه بمرض البيوتل . وهو فوق ذلك يبعث في الشارب في اليوم التالي إحساساً شديداً بالحجل . ولقد خجلت جداً . هل تتصورون أنني حملت وأنا من (ب) . ضعوا أنفسكم مكاني (وهذه الإشارة المجردة أصابت ليننا بالردة) . ولكني أقسم لكم إن الخطأ لم يكن مني ، لأنني مازلت أجهل كيف حدث هذا ، وقد قمت بالتدريب المالتسي كله وهو بالعدد كما تعلمون ١ ٢ ٣ ٤ . وأقسم إنني ما قصرت ، ولكن الحادث برغم ذلك قد وقع . وبالطبع لم يكن هنا مركز للإجهاض . وبهذه المناسبة ، هل لا يزال مركز الإجهاض في شلسي (فأجابتها ليننا بالإيجاب) وهل لا تزال تنعكس فوقه الأضواء أيام الثلاثاء والجمعة (فأجابت ليننا بالإيجاب مرة أخرى) ما أجمل ذلك البرج الزجاجي القرنفل! » ورفعت لندا المسكينة رأسها ،

وبعنيين مغمضتين أعادت إلى مخيلتها . وهي مذهولة . صورة ذلك البرج اللامع . ثم قالت في همس : « وما أبدع النهر في المساء ! » وتسرب الدمع الغزير على مهل من بين جفنيها المغمضين . ثم قالت : « وأذكر أنا كنا نعود بالطائرة مساء من ستوك بوجس ، ثم نأخذ حماماً ساخناً ونستخدم آلة التدليك المذبذبة المفرغة . ولكن كفى كفى ! » وتنهدت تنهداً عميقاً ، وهزت رأسها ، وفتحت عينيها ثانية ، واستنشقت مرة أو مرتين ، ثم أفرغت مخاط أنفها فوق أصابعها ومسحته في الجزء الأسفل من رداثها ، وكشرت لنا اشمئزازاً وهي لاتشعر ، فأجابتها لندا قائلة : « إنني آسفة وما كان ينبغي لي أن أفعل ذلك . إنني آسفة . ولكن ماذا يفعل المرء إذا لم يكن لديه منديل ؟ أذكر كيف كنت أقرزز من مثل هذه القذارة . وليس عندي مطهر . ولقد أصبت بجرح كبير في رأسي عندما أتوا بي هنا أول مرة . وإنك لاتصورين المادة التي وضموها عليه . قذارة ، وليس غير . وكنت دائماً أقول لهم : « المدنية تعقيم » . وأخذت أرشدهم . كأنهم أطفال . محبة إلى نفوسهم النظافة والحمامات والمراحيض . ولكنهم بالطبع لم يفقهوا قولي . وكيف يفقهون ؟ ولكني أعتقد أنني اعتدت طيائعهم في نهاية الأمر . وعلى أي حال ، كيف يستطيع المرء أن يحتفظ بنظافة الأشياء إذا لم يكن لديه ماء ساخن . ثم انظري إلى هذه الملابس إن هذا الصوف الخشن ليس كالححرير الحمضي . إنه يتحمل كثيراً وعلينا أن نرتقه إن تمزق . ولكني من (ب) وكنت أعمل في حجرة التلقيح ، ولم أعلم شيئاً مثل هذا ، فلم يكن من عملي . ثم إنني تعلمت أن رتق الملابس ليس من الصواب في شيء . كنا نرميها إذا ظهرت فيها الخروق ونشتري غيرها ، ومبدؤنا « إذا كثر الإصلاح قل الثراء » أليس كذلك ؟ فإصلاح الأشياء ليس أمراً اجتماعياً . ولكن الأمور هنا تسير على غير ذلك . وكأننا نعيش مع المجانين . كل ما يفعلونه يدل على الجنون » . ثم تلفتت حولها . وعرفت أن جون وبرنارد قد تركاها وأخذوا يسيران جيئةً وذهاباً في التراب والقاذورات خارج البيت ، ولكنها برغم ذلك أخففت صوتها وأسرت إلى ليننا وقد مالت عليها والتصقت بها حتى إن هبوب دخان سم الجنين قد هز الشعر فوق خدها (وقد تصلبت ليننا وانكمشت) وهمست بصوت خشن قائلة : « خذي مثلاً علاقة أحدهم بالآخر هنا . إنهم مجانين كما قلت لك ، بل وفي منتهى الجنون . نحن نعلم أن كل فرد يتعلق بكل فرد آخر . أليس كذلك ؟ » ثم جذبت كم ليننا وهي تتحمس في كلامها . فحولت ليننا عنها رأسها وأومات إيجاباً ، ثم أطلقت نفسها المكتوم واستطاعت أن تتنفس تنفساً آخر غير ملوث نسبياً . وواصلت الأخرى حديثها قائلة : « أما هنا فإن الفرد لا يتعلق بأكثر من فرد واحد . فإذا كانت علاقة أحد الأفراد بالآخرين كما عهدنا ، ظنه الناس شريراً يعادي المجتمع . وكرهوه وازدروه . وقد حدث مرة أن جماعة من النسوة

أتين إلي وتشاجرن لأن رجالهن قد أتوني . ولماذا لا يأتون ؟ واندفعن نحوي ، وكان منظراً مريعاً ، لأستطيع أن أحدثك عنه » . وغطت لندا وجهها بيديها وارتعدت فرائصها ، ثم قالت : « إنني أمقت النساء هنا أشد المقت . إنهن مجنونات قاسيات . وهن بالطبع لا يعرفن شيئاً عن تدريب مالتس ، أو القوارير ، أو التفريغ ، أو ماشابه ذلك . ولذا فهن يلدن دائماً . كالكلاب . وهو شيء منفر . وإنني لأصعق حيناً أذكر أنني . يا لله ، يا لله ! ومع ذلك فلقد كان لي في جون عزاء جميل . ولست أدري ماذا كنت أصنع بغيره . وذلك رغم إنه يرتبك أشد الارتباك كلما رأى رجلاً حتى حينما كان طفلاً صغيراً . ولقد حاول مرة . لما شب قليلاً ما . أن يقتل وايهو سيده المسكين . أو لعله كان بوبي . لأنه كان يتردد علي بين الحين والحين . وذلك لأنني لم أستطع قط أن أفهمه أن ذلك هو ما ينبغي للمتمدنين أن يفعلوا . وإنني أعتقد أن الجنون معد . ويظهر أنه انتقل من الهنود إلى جون . لأنه كان يرافقهم كثيراً وذلك رغم قسوتهم عليه وحرمانه من أداء ما يفعل غيره من الصبيان . وكان ذلك حسناً من ناحية ، لأنه يسر لي تكييفه إلى حد ما ، وإن كنت لاتتصورين ما لاقيت في ذلك من مشقة . وكثير من الأمور لا يعلمه المرء . ولم يكن من شأني أن أعلم به . وأعني أن الطفل يسألك كيف تسير الطائرة أو من خلق الدنيا ؟ فبماذا تجيبين إن كنت من (ب) تشتغلين دائماً في حجرة التلقيح ؟ بماذا تجيبين ؟

## الفصل الثامن

كان برنارد وجون يسيران مبطينين جيئة وذهاباً خارج البيت في التراب وفوق القاذورات . (وكانت الكلاب عندئذ أربعة)  
قال برنارد : « يشق علي كثيراً أن أدرك أو أن أتصور . لكننا نعيش فوق كوكب آخر وفي قرن غير هذا القرن . ما معنى الأمهات ، وهذه القاذورات ، والآلهة ، والشيخوخة ، والمرض . » ثم هز رأسه وقال : تلك أشياء لا يكاد يتصورها العقل . ولن أفهم حتى تشرح لي . اشرح ماذا ؟

« هذا » وأشار إلى القرية و« ذلك » مشيراً إلى المنزل الصغير خارج القرية  
« اشرح لي كل شيء . وفسر لي حياتك كلها »  
- ولكن ماذا عساي قائل ؟

- أبدأ من أول الأمر ، وعد بذاكرتك إلى الماضي على قدر ما تستطيع  
فقطب جون جبينه مردداً : « سأعود بذاكرتي إلى الماضي على قدر ما أستطيع » ثم كان صمت طويل .

كان الجو حاراً وقد تناولا قدرأ كبيراً من خبز المكسيك ومن الحنطة الحلوة  
وقالت لندا : « تعال أيها الطفل وارقد » واستلقت إلى جانبه فوق السرير الضخم  
وأخذت تغنى بنشيد من أناشيد الأطفال فيه حث على النظافة وفيه إشارة إلى  
التفريغ . ثم انخفض صوتها شيئاً فشيئاً

وعلا الضجيج فاستيقظ ابنها مذعوراً . وإذا برجل ضخم مربع يقف إلى جوار  
السرير . وكان يلقي بحديث إلى لندا ، ولندا تضحك . وكانت لندا قد رفعت

غطاءها حتى ذقتها ، فجذب الرجل الغطاء إلى أسفل . وكان شعره كحبلين سودين ، وحول ذراعه سوار فضي جميل مرصع بالأحجار الزرقاء . وقد أعجب السوار ابنها ولكنه ذعر برغم ذلك فأخفى وجهه في جسم لندا . ووضعت لندا يدها فوقه فأحس بالشدّة . ووجهت إلى الرجل كلاماً لم يدركه كل الإدراك . قالت : « لاتفعل وجون هنا » . فوجه الرجل إليه بصره ، ثم وجّهه إلى لندا ، وأسر إليها ببضع كلمات بصوت ناعم . فأجابته لندا بقولها : « لا » غير أن الرجل انحني على السرير نحوه ، وكان وجهه ضخماً مريعاً ، وقد مس الغطاء بشعره الأسود المظفور . فكررت لندا قولها : « لا » وأحس الولد بيدها تضغط عليه بشدة وهي تقول : « كلا ، كلا » ولكن الرجل قبض على إحدى يديه ، وآلمته فصاح . وأخرج الرجل يده الأخرى ثم رفعه إلى أعلى . وما برحت لندا ممسكة به ، وهي تقول : « كلا ، كلا » وتفوه الرجل غاضباً بكلمات موجزة وأبعد يديها بفتة . فرگله الطفل بقدميه وتلوى قائلاً : « لندا ، لندا » ، لكن الرجل حمّله إلى الباب في جانب الغرفة الآخر وألقى به أرضاً وسط الغرفة الأخرى ثم انصرف بعدما أغلق خلفه الباب فنهض الولد ، وركض نحو الباب ، ووقف على أطراف أصابعه حتى استطاع أن يبلغ المزلاج الخشبي الكبير ، فرفعه ودفع الباب ولكنه لم يفتح . فصاح : « لندا ، لندا » ولكنها لم تجبه

وتذكر غرفة ضخمة خالكة الظلام ، تحتوي على أشياء خشبية كبيرة ترتبط بحبال رفيعة ، وتقف حولها ثلة من النساء . يصنعن الأغطية كما تقول لندا . وطلبت إليه لندا أن يجلس في ركن الغرفة مع الأطفال الآخرين كي تذهب هي إلى النسوة وتمد إليهن يد المعونة . وظل يلعب مع الأطفال مدة طويلة ، ثم بدأ الناس يتحدثون فجأة بصوت مرتفع . ودفعت النسوة لندا بعيداً عنهن ، فصاحت وتوجهت نحو الباب فتبعها . وسألها فيم غضبهن ، فأجابت : « كيف أعرف أن أنسج مثلهن . هؤلاء الهمج المتوحشون » . فسألها ما تعنى بالمتوحشين . ولما عادا إلى البيت كان بوبي بانتظارهما لدى الباب ، فدخل معهما . وكانت معه جرة كبيرة مملأة بمادة تشبه الماء وليست به . هي مادة ذات رائحة كريهة تحرق فم الشارب وتجعله يسعل . وقد تناولت منها لندا قليلاً ، كما تناول بوبي . ثم قهقهت لندا بالفحك وتكلمت بصوت مرتفع . ثم رافقت بوبي إلى الغرفة الأخرى . ولما انصرف بوبي ، توجه إلى الغرفة فألقى لندا في الفراش مستفرقة في النوم ولم يستطع إيقافها

واعتماد بوبي أن يتردد على البيت . وقال إن المادة التي كانت تحتويها الجرة تسمى «مسكال» ولكن لندا قالت إنها يجب أن تسمى سوما ، غير أنها تصيب الشارب بالمرض . وكان الولد يكره بوبي . بل كان يكره كل الرجال الذين يأتون لزيارة لندا وفي عصر ذات يوم يذكر أنه كان بارداً وأن الثلوج كانت تعمم الجبال

اشترك مع الأطفال الآخرين في اللعب ثم عاد إلى البيت وسمع في غرفة النوم أصواتاً غاضبة . وكانت أصوات جماعة من النسوة يتفوهن بكلمات لم يفقه لها معنى ، ولكنه عرف أنها كلمات مريعة . وإذا بشيء ينقلب فجأة ويحدث صوتاً عالياً فهاج الناس وماجوا . ثم حدث الصوت مرة أخرى ، وأعقبه ضجيج كضجيج البغل قليل العظام حين يضرب . وصاحت لندا : « لاتفعلوا ، لاتفعلوا ، لاتفعلوا! » وجرى نحو الصوت فإذا بثلاث نساء متشحات بإزار أسود . وكانت لندا على فراشها ، وإحدى النساء تمسكها من معصمها ، والأخرى ترقد فوق ساقها وتمنعها من الركل بقدميها . والثالثة تضربها بالسوط . وقد ضربتها ثلاث ضربات ضجت منها لندا بالعويل . فتعلق الولد بذيل رداء هذه المرأة وأخذ يصيح قائلاً : « أرجوك وأتوسل إليك » فدفعته بعيداً عنها بيدها الطليقة . وهبط السوط مرة أخرى فولولت لندا ثانية . فأمسك بين يديه بيد المرأة وهي يد ضخمة سمراء اللون ، وغضها بكل قوته . فصاحت وخلصت يدها ودفعته دفعة قوية خر لأثرها طريحاً فوق الأرض . وضربته بالسوط ثلاث ضربات وهو مستلق فوق الأديم . وشعر بألم لم يشعر بمثله من قبل . كأنه النار . ثم نهض ، ووقع عليه السوط مرة أخرى فخر ثانية ، ولكن لندا هي التي صاحت هذه المرة

وسألها في تلك الليلة : « لماذا أرادوا إيذاءك يا لندا ؟ » وكان يبكي لأن علامات السياط الحمراء فوق ظهره ما برحت شديدة الإيلام . ولكنه كان كذلك يبكي لأن الناس متوحشون ظالمون إلى حد كبير ، ولأنه طفل صغير لم يستطع أن يفعل بهم شيئاً . وكانت لندا كذلك تبكي . أجل لقد كانت كبيرة ولكنها لم تبلغ من الضخامة حدّاً يمكنها من العراك مع ثلاثة أشخاص . لقد ظلمتها النسوة . وكرر الولد سؤاله : لماذا أرادوا إيذاءك يا لندا ؟

« لست أدري ، وكيف أدري ؟ » وكان من العسير أن تسمع ما تقول ، لأنها كانت مستلقية على بطنها ووجهها مغمور في الوسادة . وواصلت الحديث قائلة : « إنهم يزعمون أن أولئك الرجال رجالهن » . وكأنها لم تكن تتحدث إلى الصبي ، بل كأنها تتحدث مع إنسان بداخلها . وألقت حديثاً طويلاً لم يفقه له معنى ، وأخذت في النهاية تصرخ صرخاً عالياً ليس لها به عهد . لاتصرخي يا لندا ، لاتصرخي .

وضمها إليه . وطوق جيداً بذراعه . فصاحت في وجهه لندا : « مهلاً ، مهلاً ، كفي! أوه! » ودفعته بشدة بعيداً عنها ، فاصطدم رأسه بالحائط . ثم صاحت : « يا لك من غر أحمق! » وبدأت تصفعه فجأة ، وتوقع عليه الصفعات واحدة تلو الأخرى . فصاح قائلاً : لندا . أماء . لاتفعلي . لست أمك . ولن أكون لك أمّاً .



«ولكن يا لندا .» فصغته على خده وصاحت : «لقد انقلبتُ امرأة همجية ، لي صغار كالحيوان . لولاك لذهبت إلى المفتش ولاستطعت الفرار . ولكني لن أفر ومعني طفل إن هذا لعار كبير ولاحظ أنها تهم بضربه ثانية فرفع ذراعه يحمي بها وجهه ، وقال : بربك لاتفعلي يا لندا

فجذبت ذراعه إلى أسفل وانكشف وجهه وقالت له : أيها الوحش الصغير فأغمض عينيه وقال لها : «لاتفعلي يا لندا!» وقد توقع أن تضربه ولكنها لم تفعل . وبعد برهة فتح عينيه ثانية ولاحظ أنها كانت تنظر إليه . وحاول أن يتسم لها . وطوقته بذراعها بقتة وانهالت عليه بالقبلات وكانت لندا أحياناً تلزم الفراش أياماً عدة وهي حزينة . وأحياناً تتعاطى شيئاً من المادة التي أحضرها بوبي وتضحك كثيراً ثم تستغرق في النوم . وأحياناً تنتابها العلة . وكثيراً ما كانت تنسى أن تغسل ابنها ولم يكن لديه ما يأكله سوى الخبز المكسيكي البارد . وتذكر المرة الأولى التي وجدت فيها تلك الحيوانات الصغيرة في شعره وتذكر كيف صاحت حينئذ وعلا صياحها وكانت أحب الأوقات إلى نفسه تلك التي كانت تحدثه فيها عن العالم الآخر فسألها : وهل يستطيع المرء حقاً أن يطير حيثما شاء ؟

«أجل حيثما شاء .» ثم تحدثه عن الموسيقى الحلوة التي تصدر عن صندوق ، وعن الألعاب الجميلة كلها التي يستطيع أن يلعبها الإنسان ، وما لذ من مأكول ومشرب ، وعن الضوء الذي يظهر عندما يضغط المرء على شيء صغير في الخائط ، وعن الصور التي تسمع حديثها وتحسها وتشم رائحتها ، كما تستطيع أن تراها ، وعن الصندوق الذي يصنع الروائح العطرة ، وعن المنازل القرنفلية والخضراء والزرقاء والفضية التي تبلغ الجبال طولاً . وكل امرئ سعيد ، لا يحزن ولا يفضب ، وكل فرد يتعلق بكل فرد آخر ، وتحدثه عن الصناديق التي ترى فيها وتسمع ما يحدث في الجانب الآخر عن العالم ، وعن الأطفال في القوارير الجميلة النظيفة ، وكل شيء بالغ النظافة . لاتشم رائحة كريهة ، ولاتقع العين على قذارة . هناك لايشكو الناس العزلة ، بل يعيشون معاً في سرور وسعادة ، كما ترى الناس هنا في مالي أيام الرقص في الصيف ، بل أسعد كثيراً ، لاتفارقهم السعادة في يوم من الأيام وكان يصني لها ساعات متواليات . وأحياناً عندما يلعب مع الأطفال الآخرين . يحدثهم أحد شيوخ القرية في لغة عجيبة عن المحوّر الأكبر للعالم ، وعن الصراع الطويل بين اليد اليمنى واليد اليسرى وبين الرطوبة والجفاف ، وعن أونا ولونا الذي أوجد حوله وهو يفكر في أثناء الليل ضباباً كثيفاً ومن هذا الضباب الكثيف خلق العالم بآثره ، ويحدثهم عن الأرض أمأ والسماء أبأ ، وعن أهايوتا

ومارسليما وهما توأما الحرب والمصادفة ، وعن يسوع وبوكونج ، وعن مريم واستاناتلهي ، وهي المرأة التي تستطيع أن ترد الشباب إلى نفسها ، وعن الحجر الأسود عند لاجونا والنسر الأكبر وسيدتنا الأكومية وكلها قصص عجيبة ، يزيدها عجباً أنها تحكى بتلك اللغة الغريبة فلا يفهمها تمام الفهم . وحينما يستلقي في الفراش يفكر في السماء وفي لندن وفي سيدتنا الأكومية وفي الصفوف العديدة من الأطفال المحفوظين في القوارير النظيفة وفي يسوع وهو يطير ولندا وهي تطير وفي المدير الأكبر لمعامل التفريخ وفي أوناولونا

وجاء لزيارة لندا رجال عديدون . وبدأ الصبية يشيرون إليها بأصابعهم ، وفي لغتهم الغريبة قالوا إن لندا امرأة سيئة ، ونبذوها بشتائم لم يفهم لها معنى ، ولكنه أدرك أنها شتائم . وأخذوا ذات يوم يرددون أغنية بشأنها . فقذفهم بالحجارة ، وقذفوه ، فجرح خده حجر حاد وتدفق الدم وتلوث به .

وعلمته لندا القراءة . ورسمت على الحائط صوراً بقطعة من الفحم . رسمت حيواناً قابعاً وطفلاً داخل قارورة . ثم سطرت بعض الحروف . وكتبت « القط فوق الحصير . والطفل في الإناء » . وتعلم الولد بسرعة وسهولة . ولما استطاع أن يقرأ كل الكلمات التي كتبتها على الحائط ، فتحت لندا صندوقها الكبير الخشبي وأخرجت من تحت السراويل الصغيرة العجيبة الحمراء التي لم تلبسها قط كتاباً صغيراً هزياً . ولطالما وقعت عيناه على هذا الكتاب من قبل . وكانت تقول له : « تستطيع أن تقرأ عندما تكبر » . وهاهو ذا الآن كبير ، وبنفسه فخور . ولكنها تقول له : « أخشى ألا تجده شائناً » . ثم تنهدت وقالت : « ولكن ليس عندي سواء . آه لو شهدت آلات القراءة الجميلة التي كانت لدينا في لندن ! » ثم بدأ يقرأ : « تكيف الأجنة الكيميائي والبكتريولوجي . إشارات عملية لعمال مخزن الأجنة من النوع (ب) » . واستغرق ربع ساعة في قراءة العنوان وحده . ثم ألقى الكتاب على الأرض وقال : « ما أشنع هذا الكتاب » . ثم بدأ يصيح

وما برح الصبية ينشدون نشيدهم المريع عن لندا . وكانوا كذلك أحياناً يسخرون من ثيابه الرثة . وكانت لندا لاتعرف كيف تصلح ملابسه إذا تمزقت وتقول له إن الناس في العالم الآخر ينبذون الملابس ذات الخروق ويستبدلون بها الجديد . واعتاد الصبية أن يسخروا منه بقولهم : « الخرق البالية ، الخرق البالية » ويقول لنفسه : « ولكنني أستطيع أن أقرأ وهم لا يستطيعون . بل إنهم لا يعرفون ما القراءة » . وكان من اليسير عليه . إذا أنعم الفكر في القراءة . أن يتظاهر بعدم الاهتمام بسخريتهم منه . فطلب إلى لندا أن تعيد إليه الكتاب .

وكلما تمادى الصبية في الإشارة إليه وفي الفناء أمعن في القراءة . وسرعان ما أتقن قراءة الكلمات كلها حتى أطولها . ولكنه سأل لندا عن معناها ، غير أن المعنى

لم يتضح له حتى حينما كانت لندا تستطيع الإجابة . وكانت في الجملة تعجز عن الإجابة بتاتا

سألها : ما هي المواد الكيميائية .

قالت بـهي مواد مثل أملاح المغنيزيوم ، والكحول الذي يجعل طبقة (د) و(هـ) صغيرة متأخرة ، وكربونات الكلسيوم للعظام ، وما شابه ذلك .

ولكن كيف تصنعون المواد الكيميائية يا لندا ؟ ومن أين تأتي ؟

لست أعرف . أنها تستخرج من القوارير . وعندما تفرغ القوارير ترسلها

إلى مخزن المواد الكيميائية للمزيد . وأحسب أن الموظفين في المخزن هم الذين يصنعون هذه المواد الكيميائية ، أو ربما يطلب موظفو المخزن هذه المواد من المصنع . لست أعرف ، ولم أشتغل بالكيمياء يوماً ما ، ولقد كان عملي دائماً يختص بالأجنة .

وكذلك كان الأمر في كل سؤال وجهه إليها . وكأن لندا لم تعرف شيئاً . وكان

عند شيوخ القرية إجابات أشد من ذلك قطعاً

بذور الناس وبذور المخلوقات جميعاً ، وبذور الشمس وبذور الأرض وبذور

السما . كل ذلك خلقه أو ناولونا من ضباب التكاثر . وللعالم أربعة أرحام . وقد

وضع البذور في أحط هذه الأرحام الأربعة . وبدأت البذور تنمو تدريجاً

و ذات يوم (حسبه جون فيما بعد وعلم أنه لا بد أن يكون عقب ميلاده الثاني

عشر) عاد إلى البيت وألقى كتاباً لم يره من قبل ملقى على الأرض في غرفة النوم .

وكان كتاباً غليظاً عليه سيما القدم ، وقد أكلت الفئران جلده ، وتفككت بعض

صفحاته وتفضنت . فالتقط الكتاب ونظر إلى صفحة العنوان وقرأ عليها ما يأتي :

« مجموعة مسرحيات وليم شيكسبير » . وكانت لندا مستلقية على فراشها ترشف

من الكأس شراب المسكال ذا الرائحة الكريهة الشنيع . قالت : « لقد أحضره

بوبي » . وكان صوتها غليظاً خشناً كأنه صوت شخص آخر ، ثم قالت : « كان هذا

الكتاب ملقى في أحد صناديق انتلوب كيـفا ، والمفروض أنه لبث هناك سنوات

السنين . وأحسب ذلك صحيحاً لأنني تصفحته وبدا لي كأنه مليء بالخرفات ، إنه كتاب

همجي ، ولكنه يصلح لتدريبك على القراءة » . ثم تناولت من الكأس الجرعة الأخيرة ،

وألقتها على الأرض إلى جانب الفراش ، وانقلبت على جنبها ، وشهقت مرة أو مرتين

ثم استغرقت في النوم . وفتح الغلام الكتاب حيثما اتفق وقرأ فيه ما يلي :

« عجباً كيف يعيش المرء في عرق كـريه على فراش رث ، يدب فيه الفساد ،

وكيف ينعم ويمشقي في بيت قذر كـبيوت الخنازير . » (١) ودارت هذه الكلمات

(١) هذه الأسطر مقبسة من شيكسبير .

العجيبة في رأسه . ورنث في أذنه كالرعد إذا تكلم ، أو كالطبل في رقصات الصيف إذا استطاعت الطبول أن تتحدث أو كالرجال وهم يتغنون بنشيد الحصاد كان رنينها في الأذن رائعاً ، تدفع السامع إلى الصباح كأنها حديث من حديث متسما العجوز ، ينطق بكلمات السحر وهو يتزين بالريش ويمسك بالعصا المنقوشة ويقطع من العظام والحجارة . ويتفوه بألفاظ لا معنى لها . غير أن الألفاظ التي قرأها خير من ألفاظ متسما السحرية ، لأنها تدل على معان أكثر منها ، ولأنها تحدثه ، وتتحدث بشكل يدعو إلى الإعجاب ولا تفهم كل الفهم . هذه كلمات سحرية جميلة مريعة عن لندا وهي هناك على فراشها تغط في نومها ، وإلى جوار فراشها كأس فارغة ملقاة على الأرض . هذه كلمات عن لندا وبوبي

واشتد مقته لبوبي . وأدرك أن المرة قد لايفتر ثغره عن الابتسام وهو وضع دنيء . يا له من وغد ميت الضمير خائن ، داعر غير رقيق . وما معنى تلك الكلمات التي قرأ ؟ إنه أدركها إدراكاً ناقصاً . غير أن سحرها قوي ، وما قتنت ترن في أذنه ، وأحس كأنه لم يكره بوبي من قبل قط . لم يكرهه لأنه لم يستطع يوماً أن يعبر عن مقدار كرهه له . أما الآن فلديه هذه الألفاظ التي تشبه الطبل والغناء والسحر . هذه الكلمات وتلك القصة العجيبة التي اقتبست منها (إنه لم يفهم للقصة مغزى ، ولكنها برغم ذلك عجيبة جداً) بررت له كره بوبي ، وجعلت كرهه له أمراً حقيقياً ، بل جعلت بوبي نفسه شخصاً أكثر واقعية في عينيه

وعاد ذات يوم من اللعب وألقى باب الغرفة الداخلية مفتوحاً ، ووجدهما مستلقين على الفراش معاً ومستغرقين في نومهما . لندا البيضاء ، وبوبي إلى جانبها يكاد يكون أسود اللون ، وإحدى ذراعيه تحت كتفها ، واليد الثانية السوداء على صدرها ، وإحدى ضفائر شعره الطويل ملقاة حول عنقها كأنها حية سوداء تحاول خنقها ، وجرة بوبي وإحدى الكؤوس ملقاة على الأرض إلى جانب السرير ، ولندا تغط في نومها

وكأن قلبه اختفى وخلف مكانه ثغرة كان فارغاً بارداً وكأنه عليل به دوار ، فاستند إلى الحائط كي يعتدل . وجال بخاطره أن الرجل ميت الضمير ، خائن ، داعر . وتذكر تلك الألفاظ التي تشبه الطبل ، أو تشبه نشيد الحصاد ، أو السحر . وأخذت الكلمات تدور في رأسه مرة بعد أخرى . واستحالت برودته بفتة إلى حرارة . واحتترقت وجنتاه من الدم المتدفق ، وعامت الغرفة أمام عينيه وأظلمت . واصطكت أسنانه . وردد قوله « سوف أقتله ، سوف أقتله » . وتذكره فجأة هذه الكلمات ،

« حينما يكون مستغرقاً في نومه ثملاً ، أو في ثورة من الغضب ، أو في متعة الفراش زانياً مع امرأة لايجوز له أن يقترن بها . »

إن هذا السحر يشد أزره . وهو سحر يفسر له ما غمض ويصدر له الأوامر بما يصنع . فتقهقر إلى الغرفة الخارجية ، وردد هذه العبارة : « حينما يكون مستغرقاً في نومه ثملاً . » . وكانت سكين اللحم ملقاة على الأرض إلى جانب النار ، فالتقطها وسار على أطراف أصابعه نحو الباب ثانية . وردد مرة أخرى : « حينما يكون مستغرقاً في نومه ثملاً . » . وعبر الغرفة على عجل وطمع الرجل . يا للدماء ! ثم طعنه مرة أخرى ، وتحرك بوبي من نومه فرفع يده كي يطلعنه طعنة ثالثة ، ولكن يداً قبضت على معصمه وأمسكت بها ولوتها ليا شديداً . فلم يستطع أن يتحرك ، ووقع في الشراك . ورأى عيني بوبي الصغيرتين السوداوين المتقاربتين وهما متحدتان في عينيه ، فصرف عنه النظر . ورأى جرحين في كتف بوبي اليسرى . وصاحت لندا قائلة . « انظروا إلى الدماء . انظروا إلى الدماء ! » ولم تستطع يوماً أن تحتل رؤية الدماء . ورفع بوبي يده ، الأخرى كي يضربه . كما ظن جون . فتصلب استعداداً للقاء الضربة ، ولكن اليد التي ارتفعت عادت به تحت ذقن الرجل ولوت وجهه بحيث لم يسعه إلا أن يحدق في عيني بوبي . وبقي على ذلك ساعات طوالاً . ثم لم يسعه بعدئذ إلا أن ينفجر بالبكاء . فقهقه بوبي ضاحكاً وقال له باللغة الهندية العجيبة « اذهب يا أهايوتا . إنك شجاع . » . فانطلق إلى الغرفة الأخرى كي يخفي دموعه وقال له متسماً العجوز باللغة الهندية : أنت في الخامسة عشرة من عمرك ، وأستطيع الآن أن أعلمك كيف تشتغل بالصلصال .

وجلسا القرفصاء على شاطئ النهر وأخذا يشتغلان معاً وتناول متسماً بين يديه قطعة من الصلصال المبتل وقال : « لنعمل أولاً قمراً صغيراً » . وصنع الرجل العجوز من كتلة الصلصال قرصاً ، ثم ثنى أطرافه إلى أعلى ، فأصبح القمر كاساً ضحلة

وقلد جون حركات الرجل العجوز الدقيقة ببطء وبغير مهارة وطرق متسماً قطعة أخرى من الصلصال وصنع منها أسطوانة طويلة لينة ، ثم صنع منها حلقة مستديرة ولصقها على حافة الكأس قائلاً : « قمر فكأس فتعبان ، ثم آخر فآخر » . وهكذا كون متسماً جوانب الوعاء من تكرار الحلقات . وكان أسفلها ضيقاً ، ثم انتفخ ثم ضاق ثانية عند العنق . وظل متسماً يكوّر ويدحو ، ثم يربت ويكشط حتى تكوّن الوعاء وأضحى في شكله كجرة الماء المألوفة في مالي ، غير أنه في بياض القشدة بدلاً من السواد ، ناعم الملمس . وإلى جوار الوعاء الذي صنعه متسماً وعاء آخر يغايره شكلاً خشن غير مستقيم ، وهو من صنع جون . فنظر إلى الوعاءين ولم يسعه إلا أن يضحك . ثم قال : « سيكون الثاني خيراً من هذا » وشرع يبلل قطعة أخرى من الصلصال

وأحس بنشوة من السرور وهو يشكل الصلصال ويصوره ويشعر بأصابعه وهي

تكتسب مهارة وقوة . وأخذ يفني لنفسه وهو يعمل ويقول « ا ، ب ، ح ، د ، فيتامين  
د . الدهن في الكبد . والحوت في البحر » . وتغنى كذلك متسماً بأغنية عن قتل  
الدب . واشتغلا طوال النهار ، وأحسن كل الوقت بسعادة عظيمة أنسته كل شيء .  
وقال له متسماً العجوز : في الشتاء القادم سأعلمك صناعة القوس .

ووقف زمناً طويلاً خارج البيت . وأخيراً انتهت الحفلات التي أقيمت بداخله .  
وفُتح الباب وخرجوا منه ، وظهر كوثلو أولاً ، وذراعه اليمنى ممتدة ويده مقبوضة  
بشدّة كأنه يسك بجوهرة ثمينة . وتبعته كياكيكي ويدها كذلك مقبوضة وذراعيها  
ممتدة . وسارا صامتين ، وجاء في إثرهما الأخوة والأخوات وأبناء العم ورتل من  
المبجّاز ، وهم كذلك صامتون

وخرجوا من القرية وعبروا الهضبة المستوية . وعند حافة الهضبة كفوا عن  
المسير وقد طالعتهم الشمس المشرقة . ففتح كوثلو يده ، فظهرت على كفه كمية  
يسيرة من دقيق الحنطة الأبيض . تنفس عليها وتمتم بوضع كلمات ثم رمى بها نحو  
الشمس وكأنها قبضة من التراب الأبيض . وفعلت كياكيكي مثل ما فعل . وعندئذ  
تقدم أبوها ورفع عصا مريشة يستخدمها عند الصلاة ، ودعا دعاء طويلاً ، ثم قذف  
العصا في اتجاه الدقيق .

وعندئذ قال متسماً العجوز بصوت مرتفع : انتهى الأمر وأصبحت زوجين .  
وعندما هموا بالانصراف قالت لندا : كل ما أستطيع أن أقوله إنها جمجمة  
كبيرة من أجل طحن قليل . أما في الأم المتمدنة فإن الولد حينما يشتهي الأثني  
ليس عليه إلا أن . ولكن إلى أين أنت ، ذاهب يا جون ؟

فلم يعرها التفاتاً وأخذ يهرول ويتعبد كي يبلغ مكاناً يعتزل الناس فيه .  
انتهى الأمر ، وتردد صدى كلمات متسماً العجوز في فؤاده . انتهى ،  
انتهى . . وفي هذا السكون وذلك المكان القصي نبض قلبه بحب كياكيكي ، ولكن  
بغير أمل أو رجاء . فلقد انتهى الأمر ، وهو الآن في السادسة عشرة من عمره .

كانت الأسرار تفسى ، بل تؤدى وتحمل في ليالي البدر الكامل في كهف  
انتلوب . يدخل الأولاد الكهف ويخرجون منه رجالاً . وكانوا جميعاً في خوف  
وقلق . وأخيراً حل اليوم الموعود ، غربت الشمس وطلع القمر . فذهب أحد الفلامان  
مع الآخرين . وكان الرجال واقفين لدى مدخل الكهف كالأشباح في ضوء القمر  
وانزل السلم في أعماق الكهف وقد أشرقت جوانبه بضياء أحمر . وبدأ زعماء  
الأولاد يهبطون وتقدم أحد الرجال بفتة ، وأمسك الفلام من ذراعه وأخرجه من  
الصفوف ، ولكنه أفلت من قبضته وعاد إلى مكانه بين الآخرين . فضربه الرجل  
وجذبه من شعره . وقال رجل آخر : « لا عليك يا صاحب الشعر الأبيض . لا عليك  
يا بن الكلبة » . وضحك الأطفال . وقيل له : « اذهب » وصاح به الرجال : « هيا

اذهبا» . وما برح يتلأأ عند أهذاب الجماعة . وانحنى أحد الرجال والتقط حجراً ثم رماه قائلاً : « اذهبا » . ثلاث مرات . ثم كان بعد ذلك وابل من الحجارة . فانطلق الغلام في الظلام وهو يدمى . وعلت من الكهف الأحمر ضوضاء الغناء . وذلك عندما هبط الغلام الأخير على السلم . وكان صاحبنا وحيداً

بقي وحيداً خارج القرية فوق الهضبة الجرداء . وكانت الصخور في ضوء القمر كالعظام البيضاء ، والذئاب تعوي تحت ضوء القمر في بطن الوادي . وقد آلمته الجروح وتدفقت منها الدماء ، ولكنه لم ينتحب من أثر الجراح ، وإنما كان يبكي وحده ، لأنه طرد وحيداً فوق هذه الصخور التي تشبه في ضوء القمر هيكل العظام . فجلس عند حافة الهضبة ، والقمر خلفه ، وألقى بصره إلى ظل الهضبة الحالك ، أو ظل الموت الأسود . فما عليه إلا أن يخطو إلى الأمام خطوة ثم يتقفز . ومد يمينه في ضوء القمر ، وما برحت الدماء تتدفق من معصمه ، وتسقط قطرات كل بضع ثوان ، وهي تكاد تكون عديمة اللون في ذلك الجوم القاتم . سالت الدماء نقطة نقطة وكأنها تقول له غداً ، غداً

في تلك العزلة أدرك صاحبنا الزمان والموت والله .

وكان الشاب يقول : كنت دائماً وحدي .

فكان لهذه الأنفاظ صدى أليم في صدر برنارد ، فقال لصاحبه وقد أولاه كل ثقته : كنت دائماً وحدك . وإني لكذلك في عزلة تامة .

فسأله جون في دهشة بالغة : هل أنت وحيد ؟ لقد كنت أحسب أنكم في العالم الآخر . : أعني أن لندا كانت تقول لي دائماً إن المرء هناك لا يشعر بالعزلة البتة .

فساور القلق نفس برنارد وتدفق الدم في وجنتيه من شدة الخجل وقال متمتماً وقد حول عنه عينيه : أحسب أنني على خلاف مع أكثر الناس . فالمرء إذا أفرغ من القارورة بطريقة مخالفة .

فأوماً الشاب برأسه قائلاً : أجل . هو ذاك . إن المرء إذا اختلف عن غيره فلا مندوحة له عن الشعور بالوحدة ، وحينئذ يقسو عليه العالم . هل تعلم أنهم يبعدونني عن كل شيء ، كل الإبعاد ؟ فعندما أرسلوا الغلمان الآخرين ليقضوا المساء فوق الجبال (وأنت تعلم بالطبع شعور المرء عندما يرغم على أن يحلم بالحيوان الذي يجب عليه أن يقدره) لم يسمحوا لي برفقتهم ولم يبوحوا لي بسر من أسرارهم . ثم قال : « ولكنني فعلت ذلك بنفسني ، فلم أتناول طعاماً مدة خمسة أيام ، ثم خرجت ذات مساء وحدي إلى تلك الجبال » . وأشار إليها

وابتسم له برنارد ابتسامة العطف وسأله : وهل حلمت بشيء ما ؟

فأوماً الشاب بالإيجاب وقال : « ولكن لا ينبغي لي أن أذكر لك ما حلمت

به . ثم صمت برهة من الزمن واصل حديثه بعدها بصوت منخفض قال : لقد فعلت مرة أمراً لم يفعله غيري من الآخرين . وقفت تجاه صخرة في رابعة النهار صيفاً ، وذراعي ممتدان إلى جانبيّ كالمسيح فوق الصليب عجباً ولماذا فعلت هذا ؟

أردت أن أحس بشعور المصلوب . وبقيت هناك في الشمس معلقاً . ولماذا ؟

فقال متردداً : لماذا ؟ . . . لأنني شعرت بضرورة هذا العمل مادام المسيح قد استطاعه . ثم إن المرة إذا أخطأ . وكنت فوق ذلك تفساً ، وهذا سبب آخر قال برنارد : « يبدو لي أن هذه طريقة عجيبة لعلاج شقاوتك » . ولكنه بعدما عاوده التفكير في الأمر قرر أنها طريقة لاتخلو من المفزى ، فهي خير من تناول النوما

ثم قال الشاب : « وأغمى عليّ بعد فترة ما ، وانكفأت على وجهي . هلا ترى أثر الجرح في وجهي ؟ » وأزاح شعره الأصفر الفزير عن جبهته وظهر أثر الجرح على صدغه الأيمن صاحب اللون مفضناً

ونظر إليه برنارد ثم حول عنه بصره سريعاً وقد أصابته رعدة خفيفة . لأنه كيّف على أن يكون شديد الاشمئزاز أكثر منه رؤوفاً رحيماً . فإن مجرد الإشارة إلى المرض أو الجراح لاترعبه فحسب بل تنفره وتقززه كما تفعل القذارة أو التشويه أو الشيخوخة . ولذا أسرع في الانتقال إلى موضوع آخر فسأل صاحبه قائلاً : « هل لك أن تعود معنا إلى لندن ؟ » وكان هذا السؤال الحركة الأولى من الحملة التي كان يدبر خطتها سراً مذ أدرك وهو في البيت الصغير من يكون « والد » هذا الشاب الهمجي . ثم قال : هل تحب ذلك ؟ فتهلل وجه الشاب وقال : هل تقصد حقاً ما تقول ؟ بالطبع ، إذا استطعت أن أحصل على الإذن بذلك . ولندا كذلك ؟

فساورته الشكوك لحظة وتردد في الإجابة . فلقد كانت لندا مخلوقاً منفراً كلا . هذا مستحيل ، ما لم . . . وطراً لبرنارد فجأة أن تنفيرها نفسه قد يكون مغنماً كبيراً . فقال : « بالطبع ! » وعلا صوته كي يعوض تردده الأول . وبالع في إظهار الإخلاص .

وتنفس الشاب نفساً عميقاً وقال : ما أشد دهشتي حين أفكر في أن ما حلمت به طوال حياتي قد يتحقق . هل تذكر ما تقول ميراندا ؟ ومن تكون ميراندا ؟

وكان من الجلي أن الشاب لم يسمع السؤال واستمر يقول : « يا للعجب ! »



وأبرقت عيناه وتورد وجهه وقال : « كم من مخلوق طيب في ذلك المكان! ما أجمل الإنسان! » وزادت حمرة خديه فجأة ، فلقد انصرف ذهنه إلى ليننا ، إلى ملاك في زي لزوج لونه كخضرة الزجاج ، يتألق من عنفوان الشباب ومن دهان البشرة ، ممتلئ الجسم ، على شفثيه ابتسامة تنم عن الخير . وتهدج صوته ، ثم بدأ يقول : « ما أعجب العالم الجديد » . ثم قاطع نفسه فجأة ، وزالت حمرة وجنتيه ، وأصبح شاحباً كالورق . ثم قال : هل أنت متزوج منها ؟  
هل أنا ماذا ؟

متزوج . أعني إلى الأبد . إنهم يقولون « إلى الأبد » في لغة الهنود . إنها علاقة لاتنفصم

فلم يتمالك برنارد نفسه من الضحك وقال : كلا وحق فورد وضحك جون كذلك ، ولكن الباعث مختلف . فلقد ضحك من فرط السرور وكرر جون قوله : ما أعجب العالم الجديد! ما أعجب هذا العالم الجديد الذي يشتمل على أمثال هؤلاء الناس . لنبدأ رحلتنا توأ بغير توان . فحملق برنارد في الشاب في دهشة وارتباك وقال : إن لك في بعض الأحايين طريقة غريبة في الحديث . وعلى أي حال ألا يجدر بك أن تنتظر حتى ترى العالم الجديد فعلاً ؟

## الفصل التاسع

أحسّت ليننا بعد هذا اليوم الغريب المرعب أنها قمينة بعطلة تامة مطلقة . فما أن عادا إلى الاستراحة حتى ابتلعت ستة أقراص من السوما زنة القرص الواحد نصف جرام ، واستلقت على سريرها ، وفي خلال عشر دقائق أفلتت إلى عالم الخلد القمري . ولا بد من أن تنقضي ثماني عشرة ساعة على الأقل قبل أن تعود إلى وعيها

وفي تلك الأثناء استلقى برنارد في الظلام واسترسل في الفكر وعيناه مفتوحتان . ولم يستغرق في النوم إلا بعدما انتصف الليل بأمد طويل . ولكن أرقه لم يكن بغير جدوى . فلقد دبر لنفسه خطة محكمة .

وفي صبيحة اليوم التالي خرج الرجل الزنجي المولد ذو الرداء الأخضر من طائرته في تمام الساعة العاشرة . وكان برنارد بانتظاره وسط أشجار الصبر فقال له : إن المس كراون قد رحلت في عطلة السوما ولا أظنها عائدة قبل الخامسة . وهذا يوفر لنا سبع ساعات .

فهو يستطيع أن يطير إلى سانتافي ويقضي بها وطره ثم يعود إلى مالبي قبل يقظتها بوقت طويل

. وهل تكون هنا آمنة وهي وحيدة ؟

فأكد له الزنجي أنها سوف تكون آمنة كالطائرة .

وامتطيا الطائرة وأقلعا في الحال . وفي الساعة العاشرة والدقيقة الرابعة والثلاثين هبطا على سطح مكتب البريد في سانتافي . وفي الساعة العاشرة والدقيقة السابعة والثلاثين وصل برنارد إلى مكتب المراقب العالمي في هوايت هول . وفي الساعة العاشرة والدقيقة التاسعة والثلاثين كان يتحدث إلى السكرتير الخاص الرابع لسيادته . وفي الرابعة والأربعين بعد العاشرة رن في أذنيه صوت مصطفي مند نفسه

وهو صوت عميق رنان  
فقال برنارد متلجلجاً : لقد جرؤت على الظن بأن سيادتك قد تجدد للأمر أهمية  
علمية كافية . . .

فرد عليه بصوته العميق قائلاً : أجل إنني أجد له أهمية علمية كافية . عد  
بهذين الشخصين إلى لندن .

. إن سيادتك تعلم أنني سوف أحتاج إذناً خاصاً  
قال مصطفى مند : إن الأوامر الضرورية ترسل في هذه اللحظة إلى حارس  
منطقة المتوحشين . فتوجه لتوك إلى مكتب الحارس ، ورافقتك السلامة يا مستر  
ماركس

وساد الصمت برهة ، ثم علق برنارد السماع وأسرع إلى السطح  
وقال للزنجي الأخضر (د) إلى مكتب الحارس .  
وفي الساعة العاشرة والدقيقة الرابعة والخمسين كان يصافح الحارس .  
وبصوت مجلجل يدل على الإكرام قال الحارس : إنني جد مسرور يا مستر  
ماركس . لقد تسلمنا منذ لحظة أوامر خاصة .

فقاطعه برنارد قائلاً : « أعرف ذلك ، إذ كنت أتحدث إلى سيادته تلفونياً منذ  
لحظة » . وقد تكلم بنغمة مملّة تدل على أنه اعتاد الحديث إلى سيادته في كل يوم من  
أيام الأسبوع . ثم خر في أحد المقاعد وقال للحارس مؤكداً : « هل تتكرم باتخاذ  
الخطوات الضرورية بأقصى ما تستطيع من سرعة ؟ » وكان في مرج شديد  
وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثالثة كانت الأوراق الضرورية كلها في  
جيبه . وصحبه الحارس حتى أبواب المصعد ، وهناك ودعه بعطف شديد

ثم قصد الفندق ، واستحم ، وتدلّك بالآلة المذبذبة المفرغة ، وحلق بالكهرباء ،  
واستمع إلى أنباء الصباح تذاق بالراديو ، وشاهد صور التلفزيون نحواً من نصف  
ساعة ، ثم تناول غداء خفيفاً وهو خالي البال . وفي منتصف الساعة الثالثة عاد مع  
الزنجي طائراً إلى ماله

وكان الشاب واقفاً خارج الاستراحة .  
فصاح : « برنارد ، برنارد » غير أنه لم يظفر برد  
فصعد السلم مسرعاً في خف من جلد الفزال لم يحدث به صوتاً ، وحاول أن  
يفتح الباب ، ولكنه كان موصداً

عجباً ، لقد رحلاً وكان هذا الحادث أشق ما وقع له في حياته . لقد طلبت إليه  
أن يأتي لرؤيتهما ، وها هما ذا الآن قد رحلا . فجلس على السلم ويكي  
وبعد نصف ساعة طرأ له أن يطل من النافذة . وكان أول ما وقعت عليه عيناه  
حقيبة ملابس خضراء كُتب على غطائها بالألوان هذان الحرفان ل . ك . فاشتعلت

نفسه من فرط السرور ، والتقط حجراً ، وتحطم الزجاج ووقع على الأرض مصلصلاً وكان بداخل الغرفة بعد لحظة . وفتح الحقيبة الخضراء ، ففاح منها عبير العطور التي كانت تحملها ليننا ، وامتلات رثاه برانحتها وذكراها . وأسرت دقات قلبه وغاب عن رشده لحظة ثم اتحنى على الصندوق الثمين ، ومس ما به ، ورفع به إلى الضياء وفحصه . ورأى على سروالها القصير اللين المصنوع من المخمل مشبكاً حيره أول الأمر ، ثم حل لغزه فهش له . وقد افتتن للسهولة التي يفتح بها هذا المشبك السروال ثم يسده . وكان أجمل ما وقعت عليه عيناه خفها الأخضر . وفض رداء داخلياً لها يتكون من سترة وسروال متصلين ، وينفتح وينسد بمشبك سهل الانزلاق ، فاحمرت وجنتاه خجلاً ، ثم أعاد الرداء إلى الحقيبة على عجل . ثم قبل منديلاً من حريز الحمض معطراً ولف حول رقبته كوفية . وفتح أحد الصناديق فصعدت منه سحابة من المسحوق العطر ، وبيض المسحوق يديه ، فمسح بهما على صدره وعلى منكبيه وعلى ذراعيه العاريتين . ما ألد تلك العطور! ثم أغمض عينيه ، ومسح خده على ذراعه التي بيضها المسحوق ، فأحس بلمس الجلد الناعم على وجهه ، وبعطر المسك في أنفه . بل قل أحس بوجودها الحقيقي فهمس قائلاً : ليننا ، ليننا!

وسمع صوتاً ارتاع له ، وأحس بجرمه فالتفت ، وجمع مسروقاته على عجل في الحقيبة وأغلق غطاها . ثم أنصت ثانية والتفت . فلم تبد له شارة أو صوت يدل على الحياة . ولكنه لم يشك في أنه سمع صوتاً ما . صوتاً يشبه التنهد . أو يشبه صريف الألواح . فسار إلى الباب على أطراف أصابعه وفتحه بحرص شديد فألقى نفسه مطلاً على عتبة فسيحة . وفي الجانب الآخر من العتبة باب آخر مفتوح على مصراعيه فتقدم ورفع الباب وأطل منه .

فإذا بليننا مستلقية على سرير منخفض أزيح فراشه إلى الورا ، مرتدية بيجاما ذات مشبك سهل الانزلاق قرنفلية اللون تتكون من قطعة واحدة ، مستغرقة في النوم ، رائعة في شعرها المتموج ، في سذاجة الطفل بأصابع قدميها الحمراء ووجهها الناعس الجاد ، تبعث الطمأنينة بيديها المرتخيتين العاجزتين وبأطرافها المستلقية . رأى ذلك فتجمع الدمع في مآقيه

ولج الغرفة بمنتهى الحيلة التي لا لزوم لها ، لأن ليننا لن تتيقظ من عطلة السوما قبل الموعد المحدد اللهم إلا إن حدثت إلى جوارها ضجة لاتقل عن صوت انطلاق المسدس . وجثا على ركبتيه إلى جوار سريرها ، وحملق فيها وقبض يديه وتحركت شفتاه وتمتم قائلاً :

« يا لعينها ، يا لشعرها ، وخدها ، وقدها ، وصوتها !  
يا لها وهي تلوح في حديثها بتلك اليد

التي تزري ببياضها كل بياض  
والتي تفوق في نعومتها زغب الأوز .  
وعندئذ طنت حولها ذبابة ، فطردها وتذكر هذه الأبيات ،  
« إن الذباب فوق يد جوليت العزيزة ذات البياض العجيب قد يستولي ويسرق  
من شفيتها البركة الخالدة .

وهما تخجلان في تواضع طاهر عذري  
كأنهما تحسبان قبلاتهما إثماً من الآثام»  
ومد يده في بطنه شديد وبحركة تدل على التردد كأنه يمد يدهما ليريت بهما  
على طائر خجول لا يخلو من الخطر . وظلت يده معلقة في الفضاء وهي ترتعد على  
بعد بوصة من أصابعها المرتخية ، وقد أوشك أن يمسه . ولكن هل يجرؤ أن يدنس  
بيده النجسة تلك كلا . إنه لم يجرؤ ، فالطائر شديد الخطر . وأرخى يده . ما  
أجملها! ما أروعها!

وطراً له فجأة أن يمسك بالمشبك عند عنقها ويجذبه إلى أسفل جذبة قوية  
طويلة . ما عليه إلا أن يفعل ذلك ثم . وأغمض عينيه وهز رأسه بحركة كحركة  
الكلب يهز أذنيه وهو يخرج من الماء . لقد كانت فكرة ممقوتة! وخجل من نفسه  
إن تواضعها طاهر عذري

وسمّع في الهواء طنين . فهل كانت ذبابة تحاول أن تسرق البركة الخالدة ؟ أو  
دبوراً ؟ وتلفت حواليه فلم تقع عينه على شيء . وعلا الطنين وتركز خارج النوافذ  
الخشبية . إنها الطائرة! ونهض على قدميه مذعوراً وهرول إلى الغرفة الأخرى ، وأطل  
من النافذة المفتوحة ، وأسرع في مسيره فوق الممر الذي يتخلل أشجار الصبر ولم  
يتأخر عن استقبال برنارد ماركس وهو يخرج من الطائرة في الوقت المناسب .

## الفصل العاشر

أشارت الأربعة آلاف ساعة كهربية جميعاً في الأربعة آلاف غرفة التي يتكون منها مركز بلومز بري إلى الساعة الثانية والدقيقة السابعة والعشرين . وكانت « هذه الخلية الصناعية » . كما كان المدير يفرم بتسميتها . تطن من ضوضاء العمل طنيناً عالياً . وكان كل فرد منهمكاً في عمله ، وكل شيء يسير في حركة منظمة ، والحيوانات المنوية تبدو تحت المناظير المكبرة وهي تقتحم البيض برأسها وتضرب بذيلها الطويلة في هياج شديد والبيض يتمدد بالتلقيح وينقسم ، وإن كان ما تجرى عليه عملية بوكانوفسكي يفرخ ويتشعب مخرجاً شعباً بأسره من الأجنة المنفصلة . والصلالام المتحركة في « حجرة القضاء والقدر الاجتماعي » تهبط إلى الطابق السفلي محدثة ضجيجاً عالياً . وهناك في الظلام القرمزي تنمو الأجنة رويداً رويداً وهي ساخنة كالطعام المسلوق مستقرة على وسادات من البريتون ومشبعة بالدم المستحدث والهرمونات . وبعضها يسمم فيضف ويكف عن النمو ويمسي من الطراز (هـ) . والرفوف المتحركة تزحف زحفاً بطيئاً لا يدركه الرائي محدثة طنيناً خافتاً وجلجلة خفيفة . وتستعيد في سيرها تطور السنين والقرون حتى تبلغ حجرة التفرغ حيث الأطفال الذين خرجوا حديثاً من قواريرهم يصيحون صيحات الذعر والدهشة الأولى

ومولدات القوى الكهربائية تموء في حجرات تحت الأرض . والمساعد تنطلق إلى أعلى وإلى أسفل . وقد حان وقت الإطعام في الطبقات الإحدى عشرة الخاصة بصغار الأطفال ، وإذا بألف وثمانمائة طفل قد خرجوا من ألف وثمانمائة قارورة وعلى كل منهم بطاقة واضحة يرضعون في وقت واحد الكمية المقررة (وهي نصف لتر لكل منهم) من الإفراز الخارجى المعقم على طريقة باستير وفوقهم على عشر طبقات متتابعة من غرف النوم الصفار من البنين والبنات

الذين لا يزالون بحاجة إلى النوم بعد الظهيرة ، وهم جميعاً . وإن كانوا لا يدرون . منهمكون في العمل ، شأنهم في ذلك شأن كل فرد آخر كانوا جميعاً ينصتون على غير وعي منهم إلى الدروس التي تلقى أثناء النوم . وكان الدرس حينئذ في علم الصحة وأصول الاجتماع وفي شعور الطبقات وفي حياة الحب عند الأطفال . وفوق غرف النوم هذه حجرات اللعب ، حيث تسعمائة طفل أكبر سناً من هؤلاء يتلهون . وقد أمطرت السماء . بصنع الطوب وتشكيل الصلصال ، وبالألعاب المستحدثة وتبادل العزل .

والخلية لاتفتقر عن الطنين ، والكلمة مرح مشغول . وغناء البنات فوق أنابيب الاختبار بهيج ، ورجال القضاء والقدر يصفرون أثناء العمل ، والعمال في غرفة التفرغ يتبادلون النكات الباردة فوق القوارير الفارغة . غير أن المدير دخل غرفة التلقيح حينئذ مع هنري فستر بوجه عابس يكاد يتصلب من قسوة الرجل . وكان يقول : هنا في هذه الغرفة مثال للجمهور ، فهي تحتوي على عمال من الطبقة العليا أكثر مما تحتوي أي غرفة أخرى في المركز بأسره . وقد طلبت إليه أن يقابلني هنا في منتصف الساعة الثالثة .

وعلق هنري بقوله : « إنه يتقن عمله كل الإتيان » . وكان في ثنائه هذا مناقفاً كريماً

ـ أعرف ذلك ، وأرى فيه سبباً آخر لقسوتي . إن تفوقه الفكري تقابله تبعات خلقية عليه أن يحملها . كلما اشتد نبوغ الإنسان زادت قدرته على التضليل . ولأن يشقى فرد واحد خير من أن يفسد أفراد كثيرون . فكر في الأمر غير متأثر بالعواطف يا مستر فستر تجد أن السلوك الذي لا يتفق والتقاليد إثم لا يساويه إثم آخر في شناعته . إن القاتل يودي بحياة فرد واحد . ثم ما هو الفرد ؟ وبحركة سريعة أشار إلى صفوف المناظير المكبرة ، وإلى أنابيب الاختبار والمحاضن وقال : إننا نستطيع أن نصنع شخصاً جديداً بسهولة عظمى . بل نستطيع أن نصنع من الأشخاص بقدر ما نريد . أما السلوك الشاذ فهو يهدد أكثر من مجرد حياة الفرد إنه يصيب المجتمع في الصميم . أي والله إنه ليفعل ذلك . أنظروا ها هو ذا آت .

ودخل برنارد الغرفة وتقدم نحوهما خلال صفوف المقححات . وقد أخفي اضطرابه العصبي بطلاء خفيف من العفة في النفس وخفة الروح . وقال : « عم صباحاً أيها المدير » . بصوت مرتفع سخيف ، وبنغمة أخرى ناعمة كالصرير تشير الضحك . صبح خطأ قائلاً : « لقد طلبت إلي أن آتي للتحدث هنا معك » فأجابه المدير بصوت ينذر بالسوء : نعم يا ماركس ، لقد طلبت إليك أن تأتيني هنا ، وقد عدت من عطلتك مساء أمس كما أعلم . فأجابه برنارد : نعم .

وردد المدير قبله : « نعم » وقد أطل الميم في « نعم » مدمماً بها . ثم رفع صوته بفتة وانطلق كالبلوق قانلاً : سيداتي وسادتي وكفت البنات فجأة عن الفناء فوق أنابيب الاختبار ، وتوقف عن الصفير والعمل عمال المناظير المكبرة . وساد صمت عميق ، وتلفت كل امرئ حوالبه . وكرر المدير قوله : « سيداتي وسادتي . عفواً إن قطعت عليكم حبل العمل ، فإن واجباً أليماً يدفعني إلى ذلك دفعاً . إن أمن الجماعة واستقرارها في خطر . أجل في خطر أيها السادة . إن هذا الرجل . » وأشار إلى برنارد متهماً إياه « الذي يقف أمامكم هنا ، إن هذا الرجل من طبقة (+) الذي نال الكثير ، وأصبحنا نتوقع منه لذلك الكثير . إن زميلكم هذا - أو هل لي أن أسبق الحوادث وأقول هذا الزميل السابق ؟ - قد خان العهد الذي وضعناه في عنقه خيانة عظيمة إنه بزندقته فيما يخص الرياضة والسوما ، وبحياته الجنسية الشائبة الشاذة وبرفضه أن يطيع تعاليم فوردي ويسلك خارج ساعات العمل كما يسلك الطفل في قارورته (وهنا رسم المدير هذه العلامة T) إنه بذلك برهن على أنه عدو للمجتمع ، وإنه ثائر . أيها السادة . على النظام والاستقرار ومتأمر على الحضارة نفسها . لهذا أقترح أن نفصله عن الوظيفة التي كان يشغلها في هذا المركز موصوماً بالخزي والفضيحة . وأقترح أن نطلب نقله فوراً إلى مركز فرعي من أحط المراكز ، وإننا بعقوبته نخدم مصلحة الجماعة لأننا سوف نبعده على قدر ما نستطيع عن كل مركز مهم من مراكز السكان . إنه لن يجد في إيسلندة إلا فرصة ضئيلة تمكنه من تضليل الآخرين بسلوكه الذي يخالف به شريعتنا » . وسكت المدير لحظة ، ثم ضم ذراعيه واتجه ببصره نحو برنارد وقال بنغمة مؤثرة : هل تستطيع أن تذكر لنا يا ماركس سبباً يدعو إلى عدم تنفيذ الحكم الذي أصدرناه بشأنك الآن ؟

فأجاب برنارد بصوت مرتفع جداً : نعم أستطيع فقال المدير : « إذن فاذكره » وقد ارتاع قليلاً . ولكنه ما برح شامخاً بأنفه قال برنارد : بالتأكيد . ولكنه في الممر . انتظروني لحظة . وهرع إلى الباب وفتحه . ثم قال أمراً : « ادخل » ودخل السبب وظهر للعيان

وشهق الجميع وقاتموا بالدهشة والفرع . وإذا بفتاة صغيرة تصيح . ووقفت إحدى الحاضرات على أحد المقاعد كي تتمكن من مشاهدة المنظر فانقلبت أنبوبتان من أنابيب الاختبار مليئتان بالحيوانات المنوية . وتقدمت لندا داخل الغرفة وجلست خلال الأهدان الفتية الشابة ذات الوجوه النضرة ، وهي امرأة متورعة مترهلة كالوحش المفزع الغريب في منتصف العمر ، تبسم ابتسامة مداعبة خفيفة لها طابع غريب . وقد قصدت أن تخطر بصورة تثير الشهوة ، فهزت ردفها الغليظين وهي



تمشي . وسار إلى جوارها برنارد

وأشار إلى المدير ، قائلاً : ها هو ذا

فقالت لندا غاضبة : « وهل كنت تحسب أنني لم أعرفه ؟ » ثم التفتت إلى المدير وقالت : « عرفتكَ بالطبع ، وكنت أعرفك يا توماكين في أي مكان لو كنت بين ألف ولكن ربما نسيتني . ألسنت تذكر ؟ ألسنت تذكر يا توماكين . لنداك . » ووقفت تنظر إليه ورأسها على جانب ، وما زالت باسمه غير أن ابتسامتها أصبحت تدريجاً . لقاء ما بدا على المدير من تقزز وتحجر . تنم عن نقص في ثقتها بنفسها كانت ابتسامة حائرة ، ثم تلاشت في النهاية . وكررت سؤالها في صوت متهدج « ألسنت تذكر يا توماكين ؟ » وبدأ في عينيها القلق والألم . وتغيرت ملامح وجهها الملطخ المترهل بصورة عجيبة ، وظهر عليه تجهم يدل على الحزن العميق . ومدت ذراعيها قائلة : « توماكين » وبدأ أحد الحاضرين يضحك همساً

وقال المدير : ما معنى هذا المزاح

وهرولت نحوه تجرر أذيالها وتنادي : « توماكين » وطوقت جيده بذراعيها ، وأخفت وجهها في صدره .

وتعالى الضحك المكبوت

وصاح المدير متمماً حديثه : . هذا المزاح الوحشي

واحمر وجهه وحاول أن يتخلص من عناقها . وتعلقت به مستينسة وقالت : « ولكنني أنا لندا ، أنا لندا ! » وضاع صوتها وسط الضحكات العالية . ثم صاحت وعلا صياحها على اللفظ وقالت : « لقد جعلتني آتي بطفل » . فسكت الجميع فجأة مذعورين ، وبدأ على العيون القلق ، ولم يدر أصحابها إلى أين ينظرون . وشحب المدير بفتة ، وكف عن النضال ، ووقف ممسكاً بمعصميه ومحدقاً فيها مذعوراً قالت : « نعم ، طفل . وكنت له أم » . وقد ألفت هذا الكلام الفاحش كأنها تتحدى الحاضرين في ثورتهم الصامتة ، وأفلتت منه بفتة وغطت وجهها بيديها وأخذت تنتحب من شدة الخجل . ثم قالت : « لم يكن خطئي يا توماكين لأنني كنت دائماً أدرب نفسي . أليس كذلك ؟ كنت دائماً أفعل ذلك ولست أعرف كيف آه لو علمت يا توماكين شناعة . . ولكنه كان لي برغم ذلك سلوى » . والتفتت نحو الباب ونادت : « جون ، جون ! »

فدخل في الحال ، ووقف داخل الغرفة برهة ، وتلفت حوله ، ثم عبر الغرفة مسرعاً في خُفيه المصنوعين من جلد الغزال فلم يحدث صوتاً ما ، وجثا على ركبتيه أمام المدير ، وقال في صوت واضح : « أبي ! »

وهذه الكلمة البذيئة المضحكة خففت الضغط على الأعصاب التي كانت قد توترت إلى درجة لاثتمثل (ولم تكن كلمة « الأب » فاحشة بمقدار ما كانت سخيفة

سمجة ، كانت كلمة يمجهها السمع من ناحية الذوق الأدبي أكثر مما يمجهها من الناحية الخلقية لأنها تدل على شيء من الابتعاد عن حمل الأطفال الذي تشمئز منه النفوس وينم عن الانحراف الخلقى) . وانفجر الحاضرون بالضحك ، ولم يكفوا عن القهقهة العالية كأن بهم مسأ من جنون . إنه ينادي المدير بأبي! أبي! يا للعجب! حقاً إنه لأمر لا يخطر على بال . وتجدد الشهيق والصياح ، وأوشكت الوجوه أن تنبسط ، وتدفق الدمع مدراراً . وانقلبت أنابيب اختبارية أخرى مليئة بالحيوانات المنوية . أبي! عجباً! وحملق المدير حوالياه شاحب اللون ، وحشي النظرات ، وقد أحس بالم الحيرة والإذلال

أبي! لقد علا الضحك مرة أخرى بعدما فتر قليلاً ، فوضع يديه على أذنيه وانطلق من الحجرة .

## الفصل الحادي عشر

وبعد الحادث الذي وقع في حجرة التلقيح كانت الطبقة العليا كلها في لندن تتأجج شوقاً لرؤية ذلك المخلوق العجيب الذي جثا على ركبتيه أمام مدير التفريخ والتكييف (أو قل أمام المدير السابق ، لأن المسكين استقال فوراً بعد ذلك الحادث ولم يطأ بقدمه المركز منذ ذلك التاريخ) وركع تجاهه وناداه «بأبي» (وكانت النكتة أبرع من أن يؤمن بها السامع) أما لندا - فعلى نقيض ذلك - لم تثر اهتماماً ، ولم يشعر أحد بالرغبة في رؤيتها . لأن وصف المرأة «بالأم» لم يعد من الفكاهة في شيء ، إنما كان فحشاً من القول . وفوق ذلك فإنها لم تكن همجية حقاً . إنما خرجت من قارورة وتكيفت كأى فرد آخر ، ولذا فلم تكن لديها آراء غريبة حقاً . ثم إن مظهر المسكينة - فوق هذا وذاك - كان أقوى الأسباب التي نفرت الناس من الرغبة في رؤيتها كانت بدينة ، وقد فقدت شبابها ، وفسدت أسنانها ، وتلطخت بشرتها . يا لله! إنك لاتستطيع أن تنظر إلى قوامها دون أن تشمئز نفسك . ولذا فإن خيار الناس قد صمموا ألا يشاهدوا لندا . ولندا من ناحيتها لم ترغب في مشاهدتهم . إن العودة إلى المدنية كانت في رأيها عودة إلى السوما ، وإلى إمكان ملازمة الفراش في عتلة متصلة لايعاني فيها النائم صراعاً أو نوبة قي ، ودون أن يحس بذلك الإحساس الذي يشعر به المرء بعد أن يتناول «البيوتل» ، كأذك قمت بعمل شائن ضد الجماعة فلا تستطيع أن ترفع رأسك مرة أخرى . أما السوما فلا تفعل شيئاً من هذا . والعتلة التي تعطيها لمن يتناولها كاملة . فإذا كان الصباح التالي غير مقبول ، فهو ليس كذلك بطبيعته ، وإنما بالمقارنة مع متع العتلة ، والعلاج هو أن تكون العتلة متصلة . فكانت دائماً تضح في شراة تطلب المزيد وبكميات

وافرة . وعارضها الدكتور شو أول الأمر ، ثم سمح لها أن تتعاطى ما تريد ، فكانت تتناول مقدار عشرين جراماً في اليوم الواحد

وأُسِرَ الطبيب إلى برنارد قانلاً ، وسيقضي عليها ذلك في خلال شهر أو شهرين . إن مركز التنفس عندها سوف يشل يوماً ما ، وتكف عن التنفس ، وتنتهي من الحياة ، وهو شيء جميل . إننا لو استطعنا تجديد الشباب لاختلف الأمر ، ولكننا لانستطيع تجديد الشباب .

ولشد ما كانت دهشة الناس أجمعين عندما تقدم جون معترضاً (لأن لندا كانت خلال عطلة السوما في حالة شاذة جداً)

قال : أَلستم تقصرون حياتها بإعطائها هذا المقدار كله ؟

فوافق الدكتور شو قانلاً : « هذا صحيح من ناحية ، ولكننا من ناحية أخرى نطيل حياتها » . فحملك الشاب لأنه لم يدرك ما أراد الطبيب . واستمر الطبيب يقول : إن السوما قد تفقدك بضع سنوات من الزمن . ولكن هل فكرت في الآماد الطويلة التي لاتحد والتي تعطيكها السوما خارج الزمن ؟ إن كل عطلة سومية جزء مما كان يسميه أسلافنا الخلود

فبدأ جون يدرك ما يعني الطبيب وقال مدمماً : إن الخلود كان على شفاهنا وفي أعيننا

ـ ماذا ؟

ـ لاشيء .

واستمر الدكتور شو يقول : وأنت بالطبع لاتستطيع أن تسمح للناس أن تتسلل إلى الخلود إن كان لديهم عمل جدي لابد لهم من أدائه . ولكن لما لم يكن لديهم عمل جدي .

وأصر جون قانلاً : وبرغم ذلك فإني لأعتقد في صواب ذلك .

فهز الطبيب كتفيه وقال : بالطبع إذا كنت تؤثر أن تراها تصبح كالمجنونة كل الوقت

واضطر جون في النهاية إلى التسليم . وتناولت لندا نصيبها من السوما . ومن

ذلك الحين بقيت في غرفتها الصغيرة في الطابق السابع والثلاثين من عمارة برنارد ولزمت الفراش والراديو والتلفزيون دائران بغير انقطاع ، وعطر البتشولي يتصبب قطرات من الصنبور ، وأقراص السوما في متناول يدها . هناك لبثت لندا ، ومع ذلك فإنها لم تكن هناك البتة ، بل كانت متغيبه كل الوقت ، بعيدة جداً في عطلة تامة ، في إجازة في عالم آخر ، حيث موسيقا الراديو عبارة عن تيه من الألوان الرنانة ، تيه زلق نابض ، يؤدي (بطريق ملتو جميل لا مناص منه) إلى مركز مضيء من الثقة المطلقة ، حيث الصور الراقصة في صندوق التلفزيون صور لممثلين في دار الصور

المحسة الفنائية الممتعة بدرجة تفوق الوصف ؛ حيث عطر بتشولي المتقطر أكثر من عطر عادي . هو الشمس ، أو هو ألوف من السكسوفونات ، أو هو بوبي في عشقه . بل هو أكثر من ذلك بدرجة لاتقارن ولاتحد

وختم الدكتور شو حديثه قائلاً : « كلا . إننا لانستطيع أن نجدد الشباب ولكنني مسرور إذ أتيت لي هذه الفرصة لكي أرى مثلاً من الشيخوخة في الإنسان . وإني أشكرك كثيراً لاستيعائي » . وصافح برنارد بحرارة شديدة

وإذن فلقد كان جون هو هدفهم الذي كانوا جميعاً يقصدون . ولما كان لايمكن أن يرى إلا عن طريق برنارد ولي أمره المفوض ، فقد وجد برنارد أنه لأول مرة في حياته لايعامل معاملة عادية فحسب ، ولكنه يعامل كشخص ذي أهمية بارزة . فلم يعد أحد يذكر الكحول في دمه ، ولم يعد أحد يسخر من مظهره الشخصي . وأصبح هنري فستمر . على غير عادته . يتودد إليه ، وقدم له بنتو هوفر هدية من ست لفافات من لبان الهرمونات الجنسية ، وأتاه مساعد مدير المصائر وتطفل عليه بشكل زري يطلب دعوته إلى إحدى حفلات برنارد المسائية . أما عند النساء فلم يكن على برنارد إلا أن يشير إشارة طفيفة إلى إمكان دعوتهن فيظفر بمن يحب

وصرحت فاني وهي تشعر بشعور الظافر : إن برنارد قد دعاني إلى لقاء الهجمي يوم الأربعاء المقبل

فقالت ليننا : إني جد مسرورة ولعلك تعترفين الآن أنك كنت مخطئة في تقدير برنارد . ألا تريه عذباً حقاً ؟

فأومات فاني برأسها وقالت : ولا بد أن أقر أنني دهشت جداً وسررت . وتودد إلى برنارد عدد لا يحصى من الوجهاء . منهم رئيس القوارير ومدير المصائر ، وثلاثة من وكلاء مساعدي الملحقين العامين ، وأستاذ الصور المحسة في كلية هندسة العواطف ، وعميد معهد الغناء الجمعي بوستمنستر ، ومراقب عمليات بوكانوفسكي

وأسر إلى هلمهلتز واطسن قائلاً : وكان عندي ست بنات في الأسبوع الماضي ، واحدة يوم الاثنين ، واثنان يوم الثلاثاء ، واثنان أخريان يوم الجمعة ، وواحدة يوم السبت . ولو توفر لي الوقت أو لو كان لدي الميل لظفرت على الأقل باثنتي عشرة بنتاً غير هؤلاء . كن يتحرقن شوقاً

وأصغى هلمهلتز إلى مفاخرته في صمت يدل على عدم الرضا والاكتئاب مما جعل برنارد يستشعر منه الإساءة فقال : أنت حسود .

فهب هلمهلتز رأسه وأجاب بقوله : إني حزين . وهذا كل ما في الأمر وانصرف برنارد حانقاً . وصمم في نفسه ألا يكلم هلمهلتز مرة أخرى .

ومرت الأيام ، وانتشى برنارد من اطراد النجاح ، وشعر خلال ذلك بالتوافق التام بينه وبين العالم (كما يفعل أي مخدر جيد) وكان حتى آنذ ساخطاً عليه ورضي عن النظام القائم مادام يعترف له بالأهمية . غير أنه برغم ما كان بينه وبين النظام القائم ، وفاق من أثر النجاح أبى أن يتخلى عن حقه الممتاز في نقد هذا النظام . لأن النقد كان يقوي إحساسه بأهميته ويجعله يحس بالعظمة . ثم إنه كان فوق ذلك يعتقد بإخلاص أن هناك من الأمور ما يستحق النقد . (وهو في الوقت نفسه يحب أن ينجح وأن يظفر بكل من يريد من البنات) . فكان برنارد يتظاهر بالخروج على التقاليد والنقد أمام أولئك الذين يتوددون الآن إليه من أجل الهمجي . وكان الناس يصفون إليه مؤدبين . ولكنهم يهزون رؤوسهم من خلفه ويقولون : « إن مصير ذلك الشاب سوف يكون سيئاً » متنبئين وهم واثقون أنهم هم أنفسهم سوف يعملون بأشخاصهم في الوقت المناسب على سوء المصير . ثم يقولون : « إنه لن يجد همجياً آخر يعينه على النجاة مرة أخرى » . ولكن الهمجي الأول كان على أي حال لا يزال ماثلاً أمامهم ، فكانوا متأدبين . وماداموا كذلك فقد كان برنارد يحس بعظمته الشامخة . كان يحس بالعظمة كما يحس بنشوة الفرور وكأنه أخف من الهواء .

وقال برنارد مشيراً إلى أعلى : أخف من الهواء وتلألاً منطاد مصلحة الجو الأسير وردي اللون في ضياء الشمس كأنه لؤلؤة في السماء ، تعلق عليهم علواً كبيراً وجاء في أوامر برنارد أن : . . هذا الهمجي يجب أن يطلع على الحياة المتحضرة من جميع وجوها

وكان الهمجي آنذ يشرف من أعلى على هذه الحياة ، ويلقي عليها نظرة عامة من رصيف برج تشيرنج - ت . وقام بإرشاده ناظر المحطة وعالم الطبيعيات المقيم ولكن برنارد هو الذي تكفل بالقسط الأوفر من الحديث . وكان سلوكه . في نشوته . كأنه على الأقل مراقب عالمي زائر . أخف من الهواء

وسقط من السماء صاروخ بومباي الأخضر ، ونزل منه الركاب . وأطل من النوافذ الجانبية لإحدى غرف الصاروخ ثمانية توائم درافيديين (أي غير آريين) على صورة واحدة ، يلبسون الكاكي . وأولئك هم خدام السفينة الطائرة

وقال ناظر المحطة مؤكداً : ألف ومائتان وخمسون كيلو متراً في الساعة مارأيك في هذا أيها الهمجي ؟

وكانت تلك السرعة مذهشة حقاً في رأي جون غير أنه قال : لكن أرييل يستطيع أن يطوق الأرض في أربعين دقيقة

وكتب برنارد في تقريره لمصطفى مند : « من العجيب أن الهمجي يبدي دهشة

قليلة جداً . أو رهبة . من مخترعات المدنية . ولاشك أن هذا من ناحية يرجع إلى أنه سمع لندا أم . . . تتحدث عنها »

(وقطب مصطفى مند جبينه وقال : هل يحسب هذا الغبي أن التقزز يبلغ بي حد الاشمنزاز من رؤية الكلمة مكتوبة بتمامها ؟)

« ويرجع من ناحية أخرى إلى تركيزه اهتمامه فيما يسميه « الروح » التي يصير على اعتبارها كائناتاً مستقلة عن البيئة الطبيعية ، في حين أنني حاولت أن أفهمه . . . »

وغض المراقب طرفه عن العبارات التالية ، وأوشك أن يقلب الصفحة باحثاً عن شيء مادي أكثر تشويقاً ، عندما وقعت عيناه على سلسلة من العبارات البالغة في الغرابة . فقرأ مايلي : « . . . ولكنني أقر أنني أوافق الهمجي على أن الطفولة في حياة المدنية يسيرة جداً ، أو أنها - على حد تعبيره - تكلفنا أقل مما ينبغي ، وأحب أن أنتهز هذه الفرصة لأنبه سيادتكم إلى أن . . . »

وتحول غضب مصطفى مند في الحال إلى مرح شديد . فإن تعرض هذا المخلوق لمحاضراته . هو بالذات . بشأن النظام الاجتماعي كان حقاً مما يدعو إلى السخرية لا بد أن يكون الرجل قد أصيب بمس من جنون . وتحدث إلى نفسه قائلاً : « ينبغي لي أن ألقى عليه درساً » . ثم طرح رأسه إلى الوراء وقهقه ضاحكاً . ولم يستطع . في تلك الآونة على الأقل - أن يلقي ذلك الدرس .

كان ثمة مصنع صغير لأجهزة الضوء في الطائرات ، وهو فرع من شركة الإعداد الكهربائي . وقابلهم على السطح نفسه كبير الفنيين ومدير العنصر الإنساني (لأن خطاب التوصية الدوري الذي حرره المراقب كان له تأثير سحري) وهبطوا إلى المصنع في الطابق السفلي

وأخذ مدير العنصر الإنساني يشرح لهم . قال : إن كل عملية تتم على قدر المستطاع بمجهود جماعة واحدة بوكانوفسكية .

وكان ثلاثة وثمانون شخصاً ، سود فطس الأنوف دقاق الرؤوس من طراز (أ) يقومون فعلاً بعملية ضغط البرودة . وكان يدير الآلات الست والخمسين ذوات المغازل الأربعة التي تنفق وهي تسير ستة وخمسون شخصاً من طراز (ح) الأشقر ذي الأنف الأقنى . وكان يشتغل في المسبك مائة شخص وسبعة من السنغاليين من طراز (هـ) الذي تكيف بالحرارة وكانت تقطع اللوالب ثلاث وثلاثون أنثى من طراز (أ) ، من ذوات ، الرؤوس الطويلة واللون الرملي والأحواض الضيقة ، طول كل منهن متر وتسعة وستون سنتيمتراً ، لايزيد على ذلك ولاينقص أكثر من عشرين مليمتراً . وفي حجرة الاجتماع كان يضم المحركات الكهربائية بعضها إلى بعض مجموعتان من الأقزام من طراز (+ ح) . ومنفدتا العمل المنخفضتان متقابلتان ،

يزحف بينهما حامل عليه أشلاء متناثرة ، وهنا يجابه سبعة وأربعون رأساً أشقر اللون سبعة وأربعين رأساً أخرى سمراء ، وسبعة وأربعون أنفاً أفلس سبعة وأربعين أنفاً مدبباً ، وسبع وأربعون ذقناً متراجعة سبعاً وأربعين ناتئة . وكان يفحص الآلات الكاملة ثمانى عشرة بنتاً في صورة واحدة ، ذوات شعر مجعد ، سمرات ، يلبسن زي (ح) الأخضر ، ويجمعها في الأقفاص أربعة وثلاثون شخصاً ، قصار السوق ، أيسرون ، ذكور ، من طراز (-) ، ويحملهما في عربات تنتظرها وفي سيارات للنقل ثلاثة وستون شخصاً ، زرق العيون ، يلبسون الكتان ، ذوو بشرات منقوطة ، ومن طراز (هـ) ، أنصاف معتوهين

ووجد الهمجي أن ذاكرته اللعينة قد ذكرته بكلمات ميراندا : « ما أعجب هذا العالم الجديد الذي يحتوي على أمثال هؤلاء الناس »

وختم مدير العنصر الإنساني كلامه وهم يخرجون من المصنع قائلاً : « وانني أؤكد أننا لانكاد نجد مشقة مع العمال من أي نوع كان . إننا نجد دائماً ولكن الهمجي اعتزل رفاهه بغتة ، وكان يتهوع بعنف خلف مجموعة من الأكاليل ، كأن الأرض كلها طائنة هبطت في جيب من الهواء

وجاء في تقرير برنارد أن الهمجي يأبى أن يتناول السوما ، وهو في نكد شديد لأن المرأة لندا ، أمه ، في عطلة دائمة . وما يجدر ذكره أن الهمجي ، برغم شيخوخة أمه . وبشاعة مظهرها القصوى ، كثيراً ما يذهب لزيارتها والظاهر أنه شديد الولع بها . وهو مثال شائق للطريقة التي يمكن أن يتم بها التكيف في سن باكراً لتعديل الدوافع الطبيعية ، بل لنقضها نقضاً تاماً . (والدافع في هذه الحالة هو النفور من الأشياء الكريهة)

وهبطوا في ايتن فوق سطح المدرسة العليا . وفي الجانب الآخر من فناء المدرسة كان برج لوبيتن بطوابقه الاثني والخمسين يتألق ناصع البياض في ضياء الشمس والكلية إلى يسارهم ، ومعهد الفناء الجمعي على يمينهم ، ترتفع فيها أكوام هائلة من الأسمت المسلح بالحديد والزجاج الذي يمكن للأشعة فوق البنفسجية أن تتخلله وفي وسط الفناء المستطيل يقوم تمثال فورد العجيب العتيق مصنوعاً من الصلب المصبوغ بالكروم

واستقبلهم الدكتور جانفي مدير المدرسة والمس كيت كبيرة المعلمات وهم يخرجون من الطائفة

وألقى الهمجي هذا السؤال متخوفاً : « هل عندكم توائم كثيرة هنا ؟ » وذلك عندما بدؤوا طوافهم للتفتيش

فأجابه المدير : « كلا . إن ايتن محجوزة كلها للبنين والبنات من الطبقة العليا أبناء البيضة الواحدة التي تنتج فرداً بالفاً واحداً . وهذا يجعل التربية عسيرة بطبيعة



الحال . ولكن ذلك أمر لا مناص منه لأن طلبة هذه المدرسة سوف يُدعون لتحمل التبعات ولمعالجة مشاكل غير منظورة » . ثم تنهد

وفي تلك الأثناء أحس برنارد بميل شديد نحو مس كيت . وكان يقول لها « إذا فرغت في أحد أيام الاثنين أو الأربعاء أو الجمعة مساءً . » وهز إبهامه نحو الهمجي وقال : اعلمي أنه عجيب ، وغريب

وتبسمت مس كيت (وكانت بسمتها فاتنة في عينه) وقالت : « شكراً لك . يسرني أن أحضر إحدى حفلاتك » . وفتح المدير الباب

إن خمس دقائق في غرفة الدرس تلك الخاصة بالطلبة من طراز (+ +) قد حيرت جون قليلاً ما

وأسر إلى برنارد سائلاً : « ما هي مبادئ النسبية ؟ » وحاول برنارد أن يشرح له ما هي ، ثم عدل عن الشرح واقترح زيارة غرفة دراسية أخرى

وسمعوا من خلف باب في الدهليز الذي يؤدي إلى حجرة الجغرافيا للطلبة (- ب) صوتاً عالياً يرن منادياً : « واحد ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة » ثم ينادي بعد ذلك بصوت يدل على القلق والتعب : « عودوا كما كنتم »

فشرحت لهم كبيرة المعلمات ذلك قائلة : « هذا تدريب مالتسي . أن أكثر بناتنا خُناث بطبيعة الحال . وأنا نفسي خنثى » . وابتسمت لبرنارد ثم قالت : ولكن لدينا زهاء ثمانمائة فرد غير معتمدين بحاجة إلى تدريب مستمر

وعرف جون في حجرة الجغرافيا للطلبة (-ب) أن «منطقة المتوحشين مكان لا يستحق تكاليف التمدين نظراً للظروف المناخية أو الجيولوجية غير الملائمة ، أو لفقر الموارد الطبيعية» . وسمع طقة خفيفة أظلمت الغرفة بعدها . وبقعة ظهرت على الستار فوق رأس الأستاذ صور «التانيين» في أكوما سجداً أمام العذراء مولولين . كما سمعهم جون من قبل . ومعترفين بأثامهم أمام المسيح المصلوب وأمام تمثال نسر بوكونج . وحق لشباب ايتن أن يقهقهوا عندئذ ضاحكين . ونهض التائبون على أقدامهم وهم لا يزالون يولولون ، ونضوا ثيابهم الخارجية وبدؤوا يضربون أنفسهم بسياط معقدة ضربات متواليات . وتعالى الضحك حتى لم تعد أناتهم المسجلة بتمامها تبلغ الأسماع

وسأل الهمجي في حيرة المتألم : ولكن لماذا يضحكون ؟ والتفت المدير نحوه بوجه ارتسمت عليه ابتسامة عريضة قائلاً : لماذا ؟ لأن هذا أمر غاية في الغرابة

وفي ضوء خافت كضوء السينما توغراف تجرأ برنارد على حركة ما كان في الماضي لا يجسر على أدائها حتى في الظلام الدامس . ذلك أنه . وقد شجعت أهميته الجديدة . طوق بذراعه خصر كبيرة المعلمات . وطاوعته وتفننى عودها . وأوشك أن

يختطف منها قبلة أو اثنتين وقرصة خفيفة حينما طقطقت النوافذ ثانية وهي تفتح  
فقال مس كيت : يحسن أن تنصرف وسارت نحو الباب .  
وقال المدير بعد لحظة : وهذه هي غرفة مراقبة التعليم بالإيحاء  
وكانت مئات صناديق الموسيقى المركبة - وقد اختصت كل غرفة من غرف النوم  
بواحد منها - مصفوفة على الرفوف حول ثلاثة من جدران الغرفة . وعلى الجدار الرابع  
لغائف من الورق عليها خطوط صوتية وقد وضعت في عيون وطبعت عليها الدروس  
الإيحائية المختلفة .

وقاطع برنارد الدكتور جافني قائلاً : إنكم تدسون لصفاء الورق هنا ،  
وتصفطون على هذا المفتاح إلى أسفل  
فصححه المدير مضطرباً وقال : كلا . لا تضغط على هذا المفتاح  
إذن فهو هذا . ثم تحمل اللقافة . وتحول خلايا السليسيوم الهزات الضوئية إلى  
موجات صوتية ، ثم . . .

وختم الدكتور جافني حديثه قائلاً : وهذا كل ما في الأمر  
وسأل الهمجي وهم يسيرون في طريقهم إلى معامل الكيمياء الحيوية بجوار  
مكتبة المدرسة . قال : « هل يقرؤون شكسبير » . فقالت كبيرة المعلمات وقد  
اعتراها الخجل : كلا بالتأكيد  
وقال الدكتور جافني : إن مكتبتنا لا تحتوي إلا على المراجع . فإذا أراد شبابنا  
الترفيه تلمسوه في دور الصور المحسة . إننا لانشجعهم على الاعتكاف معزولين أثناء  
اللهو .

وعندئذ انزلق إلى جوارهم على الطريق المزجج خمس سيارات كبيرة تحمل  
عدداً من البنين والبنات يلقون الأناشيد أو يتعانقون صامتين .  
وكان برنارد يسر همساً إلى كبيرة المعلمات يحدد معها موعداً للقاء في ذلك  
المساء ، عندما قال الدكتور جافني : إنهم عائدون الآن من حمأة إحراق الأجساد  
إن تكيف الموت يبدأ بعد ثمانية عشر شهراً . فيقضي كل طفل صغير صباحين من  
كل أسبوع في مستشفى الموتى . هناك توجد أحسن اللعب وتقدم إلى الأطفال  
الشكولاتة بالقشدة في أيام الموت ويتعلمون أن يتقبلوا الموت كأنه أمر طبيعي  
وعلمت كبيرة المعلمات على ذلك مبدية أستاذيتها وقالت : كاية عملية  
فسيولوجية أخرى .

في الساعة الثامنة عند سافوي . وتم الاتفاق على كل شيء  
وفي طريق عودتهم إلى لندن وقفوا عند مصنع شركة التلفزيون في برنتفورد  
وسألهم برنارد : هل تسمحون بالانتظار هنا لحظة حتى أذهب وأتحدث بالتلفون ثم  
أعود ؟

وانتظر الهمجيّ مراقباً . وكان عمال النهار الأساسيون ينصرفون من العمل آنئذ . وجمهور من عمال الطبقة السفلى يصطف واحداً في إثر الآخر أمام محطة الترام الذي يسير على قضيب واحد سبعمئة أو ثمانمئة رجل وامرأة من ( ح ، د ، هـ ) يشتركون جميعاً فيما لايزيد عن اثنتي عشرة صورة مختلفة من صور الوجوه والقامات . وقد أمد العامل المختص بحجز المحلات لكل منهم . وهم يحملون تذاكرهم . صندوقاً صغيراً من الورق الغليظ يحتوي على حبوب للدواء . وكان الصف الطويل من الرجال والنساء يتحرك إلى الأمام ببطء كما تتحرك الدودة ولما عاد إليهم برنارد استفسر منه الهمجي . وقد تذكر قصة « تاجر البندقية » - عما بتلك الصناديق .

فأجابه برنارد بشيء من الغموض قائلاً : « ذلك مقرر السوما اليومي » ويرجع ذلك الغموض إلى أنه كان يلوك في فمه قطعة من لبان بنتو هوفر . ثم قال : إنهم يتناولونها عقب انتهائهم من العمل . أربعة أقراص زنة الواحد منها نصف جرام ، وستة يوم السبت

وتأبط ذراع جون بعطف شديد وسارا معاً عاندين نحو الطائرة

وأنت ليننا إلى غرفة التغير وهي تغني

قالت فاني : يبدو لي أنك في نشوة من سرور

وأجابت قائلة : « نعم إنني جد مسرورة » . وزرت ثيابها ثم قالت : « لقد تحدث إليّ برنارد بالتلفون منذ نصف ساعة » . وزرت زرين وبرز ساقها من سروالها القصير ، ثم قالت : « إن لديه موعداً لم يكن يتوقعه » . وزرت زراً آخر « وسألني إن كنت أستطيع أن أصحب الهمجي إلى دار الصور المحسة هذا المساء فلا بد أن أظير » . وهرولت نحو الحمام .

وقالت فاني محدثة نفسها وهي تراقب ليننا في ذهابها : إنها فتاة محظوظة!

ولم يكن في تعقيبها شيء من الحسد ، وإنما كانت فاني - وهي تلك الفتاة الطيبة - تقر حقيقة واقعة . أجل لقد كانت ليننا سعيدة الحظ كانت سعيدة لأنها ساهمت مع برنارد بنصيب وافر في شهرة الهمجي ، الواسعة ، وكانت سعيدة لأنها اشتركت بشخصها الضعيف في تشييد المجد الرفيع الطريف الذي ساد في ذلك الحين . ألم تطلب إليها سكرتيرة جمعية الشابات الفورديات أن تلقي محاضرة في مغامراتها ؟ ألم تدع إلى حفلة العشاء السنوية في نادي أفروديت ؟ ألم تظهر في الجريدة الإخبارية في دار الصور الفنائية المحسة ؟ لقد ظهرت لملايين لأخصى من البشر فوق هذا الكوكب ، فرأوها وسمعوها وأحسوها

ولم يكن ما أبداه الأفراد البارزون نحوها من اهتمام بأقل من ذلك دهاناً . فقد دعاها إلى العشاء وإلى الإفطار السكرتير الثاني لمراقب العالم المقيم . وقضت عطلة

نهاية الأسبوع مرة مع كبير قضاة الدولة ، وعطلة أخرى مثلها مع كبير منشدي  
كنتربري . ولم يفتّر عن التكلم معها بالتلفون مدير شركة الإفرازات الداخلية  
والخارجية . وقد زارت دوفيل مع نائب مدير بنك أوربا

واعترفت لفاني بقولها : « حقاً إنها لحياة عجيبة ، غير أنني لا أخلو من الشعور  
بأنني أظفر بهذه الخطوة على دعوى باطلة ، لأن أول ما يريدون العلم به هو - بالطبع -  
نوع الشعور الذي يحس به المرء إذا بادله العشق أحد المتوحشين . ولا بد لي أن  
أقول لهم إنني لأدري » . وهزت رأسها ثم قالت : « وأكثرهم لا يصدقني بطبيعة  
الحال ، ولكنني صادقة وكم وددت لو لم أكن » . ثم تنهدت أسفة وقالت : إنه جميل  
للغاية . ألسنت تظنين ذلك ؟

وسألتها فاني قائلة : ولكن هلا يحبك ؟

أظن أحياناً أنه يحبني ، وأحياناً أخرى أظن أنه لا يحبني . إنه دائماً يبذل ما  
وسعه من جهد ليتجنبني ، فيخرج من الغرفة إذا دخلتها ، ولا يمسني ، بل ولا ينظر  
إلي . ولكنني أحياناً عندما التفت فجأة أراه محدقاً إلي ، ثم . . أنت بالطبع تعرفين  
كيف يكون مظهر الرجل إذا أحب المرأة

نعم كانت فاني تعرف ذلك

وقالت ليننا : لست أدرك الحقيقة

إنها لم تدرك الحقيقة ، ولم تكن متحيرة فحسب ، بل لقد كانت مضطربة  
كذلك .

لأنني أنا أحبه يا فاني

وازداد حبها له تدريجاً . والآن أتاحت لها فرصة حقيقية . كما ظنت وهي  
تشم رائحتها بعد الحمام . تلك فرصة طيبة ارتعدت لها فرائصها . وأخذت تبش من  
فرط الطرب :

« ضمنني إليك يا حبيبي حتى أفقد صوابي

وقبلني حتى أغيب عن رشدي

ضمنني يا حبيبي ، وترفق يا عزيزي

فالحب ممتع كالسوما »

كان أرغن العطور يتشوع بأنغام الروائح المختلفة المنعشة الممتعة . من السعتر  
والخزامى وحصا البان والريحان والآس وغيرها ، وتعقب ذلك ألحان جريئة من  
مفاتيح الطيب والعنبر ، ثم يعود الأرغن إلى نشر عبير الصندل والكافور والأرز  
والبرسيم المحصود من عهد قريب (ويتخلل ذلك بين الفينة والفينة نشار طفيف من  
رائحة حلو الكلى ، ونفحة خفيفة من روث الخنزير) . ثم يعود إلى العطور الخفيفة  
التي بدأت بها القطعة العطرية . وتلاشت نغمة السعتر الأخيرة ، وأظهر الجميع

استحسانهم ، وأشعلت الأضواء . وفي أثناء عزف آلة الموسيقى المركبة بدأت تنحل لفافة الورق التي ارتسمت عليها الخطوط الصوتية . وامتلاً الجو الآن بالثلاث الصوتي الرخيم الذي يتألف من الكمان القوي والكمان الأجوف العظيم والمزمار الطريف . وعزفت الموسيقى ثلاثين أو أربعين نغمة . وفي هذا الجو الموسيقي الآلي ، أخذ صوت أرق من صوت الإنسان يتفنى . وكان الصوت يخرج من الحلق حيناً ، ومن الرأس حيناً آخر ، أجوف كالناي مرة ، ومشعباً بالنغمات المؤلفة الشائعة مرة أخرى . وهو يتدرج بغير عناء من نغمة جاسبارد فرستر المنخفضة التي تقع على حافة الأنغام الموسيقية إلى النغمة العالية التي ترتفع كثيراً عن أعلى « حـ » التي لم يتفوه بها بدقة ووضوح غير لو كريزيا أجوجاري وحدها مرة من بين المئتين جميعاً في خلال العصور التاريخية كلها ( وذلك في عام ١٧٧٠ في أوبرا الدوق ببارما ، وقد دهش لها موزار دهشة كبرى )

واستقر الهمجي وليننا في مقعدين منتفخين بالهواء يستنشقان ويسمعان ثم جاء دور العيون والجلد . وأطفئت أنوار البيت وظهرت في الظلام أحرف نارية بارزة كأنها معلقة في الفضاء لا تتركز على شيء . وقد كتبت بهذه الأحرف بخط عريض « ثلاثة أسابيع بالطائرة . دار للصور المحسنة المجسمة ذات الغناء الممتاز ، والنطق الصناعي ، والألوان . مصحوبة بأرغن العطور في آن واحد » وهمست ليننا قائلة : أقبض على هذه العقد المعدنية المتصلة بذراعي مقعدك ، وإلا ما أحسست بالآثار الملموسة .

وفعل الهمجي كما أمرت وعندئذ اختفت تلك الأحرف النارية ، وأظلم المكان ظلاماً تاماً نحو عشر دقائق ، ظهرت بعدها فجأة صورة مجسمة لزنجي ضخيم مع امرأة ذهبية الشعر شابة صغيرة الرأس من طراز (بـ) ، وهما متعانقان . والصورة تبهر النظر ، وهي أشد تجسماً منها لو كانت حية فعلاً دماً ولحماً بدرجة لاتقارن ، واقعية أكثر من الواقع بدرجة كبيرة

وذعر الهمجي ، وكان الإحساس على شفتيه ورفع إحدى يديه إلى فمه وسكتت الدغدغة حيناً فأرخى يده على العقدة المعدنية ، فبدأت من جديد . وأرغن العطور في تلك الأثناء يتنفس عن المسك النقي . وفي النهاية ترنمت حماسة من صندوق صوتي مرددة هذا الصوت « أوه ، أوه » وجاوبتها نغمة محزنة أعمق من النغمة الإفريقية تتذبذب اثنتين وثلاثين مرة في الثانية فقط مرددة هذا الصوت : « آه ، آه »

وعادت الشفاء المجسمة تردد الصوت الأول . ورددت مرة أخرى المناطق

الحسية في وجوه ستة آلاف متفرج في الهمبرا سروراً كهرياً لا يحتمل ، عندما سمعوا هذا الصوت «أوه . .»

وكان موضوع القصة المصورة غاية في البساطة . فقد حدثت للزنجي حادثة في إحدى الطائرات وسقط على رأسه . وأحست الجبهة بوقع الصدمة . وعلت أصوات المتفرجين مرددين هذه الأصوات : «أوه ، آه» . وذلك كله بعد بضع دقائق من «الأوهات والآهات» الأولى . (وبعدما تفتت فرقتان معاً بنشيد من الأناشيد ، وبعدما تمثّل دور قصير من أدوار الحب فوق جلد الدب المشهور ، وكل شعرة فيه تُحس وحدها واضحة . ولقد أصاب مساعد مدير المصائر كل الإصابة) .

وحوّزت الصدمة تكييف الزنجي كل التحوير . فاشتد ميله إلى الفتاة الشقراء من طراز (ب) وجن بها . واحتجت ، وأصر على ميله . وظهر له منافس ، وتشاجر معه وطارده وتهجم عليه . وأخيراً اختطفّت الفتاة الشقراء وأثارت بذلك هزة كبرى واغتصبت الشقراء (ب) وطارت نحو السماء وبقيت هناك محلقة ، ولبثت ثلاثة أسابيع في جدل وحشي غير اجتماعي مع الرجل الأسود المجنون . وأخيراً بعد سلسلة كاملة من المغامرات وألعاب بهلوانية كثيرة نجح ثلاثة شبان من طراز (ا) في إنقاذها . وتقلّ الزنجي سريعاً إلى مركز لإعادة تكييف البالغين . وانتهت القصة المصورة انتهاء سعيداً لانقاً بعدما أصبحت الشقراء (ب) سيدة على منقذيتها الثلاثة . وقد قاطعوا أنفسهم لحظة كي ينشدوا رباعية مركبة مصحوبة بأركسترا رفيعة كاملة ورائحة الجاردينا على أرغن العطور . ثم ظهر جلد الدب للمرة الأخيرة ، ووسط دوي السكسفونات تلاشت في الظلام آخر قبلة مجسمة ، وبادت الدغدغة الكهربائية الأخيرة على الشفاء كما تبيد السوسة وهي ترتجف . وأخذت تضعف وتفتقر حتى سكنت في النهاية سكوناً تاماً

ولكن هذا الإحساس لم يفن عند لنا كل الفناء . فإن أثره ما برح يهتز على شفتيها ، وما فتى يسري في جلدنا محدثاً رعدة لطيفة من الشوق والسرور ، حتى بعد أن أشعلت الأضواء ، وهم يخطرون مبطنين مع الجمهور صوب المصاعد واحمرت وجنتاها ، ولعلت عيناها كقطرات الندى ، وتنفست الصعداء . ثم أمسكت بذراع الهمجي وضمتها - وهي مرتخية - إلى جنبها . وأطل عليها لحظة ، وهو شاحب اللون متألم ، متشوق ، وخجل من تشوقه . إنه ليس جديراً . والتقت عيونهما برهة من الزمن . ورأى في عينيها كنوزاً موعودة! أنهما تمانان عن مزاج يصح أن تقدي به الملكات . وأشاح بعصره مسرعاً ، وأطلق ذراعه الحبيسة . وانتابه خوف غامض خشية أن تكف عن ظهورها بمظهر يشعره بأنه غير جدير بها

قال : «ولست أظن أنه ينبغي لك أن تنظري إلى الأشياء بهذه العين» . وقد حاول في الحال أن ينسب القصور عن الكمال في الماضي أو احتمال ذلك في

المستقبل إلى الظروف المحيطة دون ليننا نفسها  
- أي أشياء ؟

- أمثال هذه القصة المصورة المريعة .

ودهشت ليننا حقاً وقالت : مريعة ؟ إنني كنت أحسبها جميلة .

فقال محنقاً : لقد كانت وضيفة غير شريفة .

وهزت رأسها وقالت : « لست أعرف ما تعني » . وتعجبت من شدة غرابته .  
وتساءلت لماذا يشذ ويفسد الأشياء

وفي الطائرة التي استأجرها لم يكذب ينظر إليها . بل لقد جلس منصرفاً عنها  
في صمت متحيداً بمواثيق قوية لم ينطق بها أحد . ومطيعاً لقوانين لم تُسر من زمان  
بعيد . وأحياناً يهتز جسمه كله بفتة جافلاً جنولاً عصياً ، كأن أصبأ يضرب على  
وتر مشدود يكاد ينقطع من التوتر .

وهبطت الطائرة على سطح بيت ليننا . وابتهجت وهي تخرج من الطائرة لأن  
الرحلة قد بلغت نهايتها . وكان رفيقها كان غريب الأطوار حتى اللحظة الأخيرة .  
ووقفت تحت مصباح وتطلعت إلى امرأة يدوية . وأخيراً عادت من رحلتها ! وكان  
أنفها يلمع قليلاً فتثرت فوقه مسحوقاً دقيقاً من قرص ناعم كانت تحمله من أجل  
ذلك . وانهزت فرصة الفترة التي كان يدفع فيها أجر الطائرة وتثرت المسحوق فوق  
أنفها : وأطفأت بريقه ، وفكرت في نفسها : « إنه جميل للغاية . وليست به حاجة  
إلى التحجل مثل برنارد . ومع ذلك . . . فلو كان أي رجل آخر غيره لفعل القطعة من  
زمان طويل . والآن لقد انتهت الرحلة » . وطالعتها . بفتة ابتسامة من ذلك الجانب  
من صورة وجهها الذي انعكس في المرأة الصغيرة المستديرة .

وسمعت صوتاً محنقاً خلفها يقول : « مساء الخير » . والتفتت ليننا خلفها  
فإذا به واقفاً لدى باب الطائرة وعيناه مثبتتان محمقتان . وكان محدقاً فيها طوال  
المدة التي كانت تمسح فيها أنفها بالمسحوق ، متظراً ولكن لماذا ؟ أو متردداً  
ومحاولاً أن يصل إلى قرار ، وسابحاً كل الوقت في الفكر ، ولم تستطع أن تتصور  
ماذا عسى أن تكون تلك الأفكار الشاذة . وكرر قوله « مساء الخير يا ليننا » .  
وتقلص وجهه تقلصاً غريباً وهو يحاول الابتسام .

- ولكن ، جون . لقد كنت أحب أنك . . . أعني . . . ألت . . . ؟

وأغلق الباب وانحنى إلى الأمام كي يُسرّ إلى السائق بكلمة . ثم انطلقت  
الطائرة في الفضاء . وأطل الهمجي من النافذة التي في أسفلها فأمكنه أن يرى وجه  
ليننا وقد التفتت إلى أعلى ، شاحباً في ضوء المصابيح الضارب إلى الزرقة ، وثغرها  
منفرج وهي تنادي ، وقد تضائل حجمها وهو ينظر إليه من عل . وأخذ يغيب عنه  
شيئاً فشيئاً ، وبدا له السطح المربع وهو يتناقص حجماً كأنه يهوي في الظلام .

وبعد خمس دقائق كان في غرفته . وأخرج مجلده من مخبئه وقد قرضته  
الفرنان ، وقلب صفحاته الملوثة المتفضنة كأنه يتصفح كتاباً مقدساً ، وشرع يقرأ  
مسرحية « عطيل » . وتذكر أن عطيلاً يشبه بطل « ثلاثة أسابيع في الطائرة » .  
كلاهما أسود

وعبرت ليننا السطح تقصد المصعد وهي تجفف عينيها . وفي طريقها إلى أسفل  
نحو الطابق السابع والعشرين أخرجت زجاجة السوما . وقررت أن جراماً واحداً  
لا يكفي ، فإن الكارثة التي ألت بها أفدح من أن يزيلها جرام واحد . ولكنها إن  
تناولت جرامين تعرضت لتأخير يقظتها في صبيحة اليوم التالي . فأتخذت حلاً  
وسطاً ، وهزت صندوق السوما وأفرغت منه في راحة يسراها بعدما جعلتها شبيهة  
بالكأس ثلاثة أقراص زنة الواحد منها نصف جرام



## الفصل الثاني عشر

واضطر برنارد إلى الصياح خلال الباب المغلق ، ولكن الهمجي لم يفتحه  
- إنهم جميعاً هناك بانتظارك  
فرد عليه صوت خافت خلال الباب قائلاً : فلينتظروا  
- ولكنك تعرف جيداً يا جون أنني دعوتهم عمداً للقائك ، (وكان من العسير  
أن يكون حديثه مغرياً وهو يتكلم بأعلى صوته)  
- كان ينبغي لك أن تسألني أولاً إن كنت أريد أن أقابلهم  
- إنك كنت دائماً مقدماً يا جون  
- ومن أجل هذا بالذات لا أحب أن أعود  
فتودد إليه برنارد وجأراً قائلاً : تعال كي تسرني ، هلا تحب سروري ؟  
- كلا  
- هل أنت جاد ؟  
- نعم .  
وولول برنارد يانساً وقال : ولكن ماذا عساي صانع ؟  
وصرخ جون من الداخل محنقاً وقال : اذهب إلى سقر  
وكان الدمع ينهمر من عيني برنارد وهو يقول : ولكن كبير منشدي كانتبري  
هناك الليلة  
ولم يستطع الهمجي أن يعبر تعبيراً دقيقاً عن إحساسه تجاه كبير المنشدين إلا  
بلغة زوني فقال « أي يا تاكوا ! » وبعد فترة عن له أن يقول « هاني ! » ثم قال  
بوحشية وازدراء « سترايسد تسارنا » . وبصق على الأرض ، كما يفعل بوبي لو  
كان في موضعه

واضطرب برنارد في نهاية الأمر إلى أن يتسلل - وهو منكمش - إلى مسكنه ، ويخبر الجماعة القلقة أن الهمجي لن يظهر ذلك المساء ، وقوبل الخبر بالنفسب الشديد . وحقق الرجال لأن هذه الخدعة اضطرتهم إلى التأدب في السلوك مع هذا الشخص الزرّي صاحب السمعة المنفرة والآراء المتزدقة . وكلما علا الواحد منهم في سلم المراكز الاجتماعية زاد استياؤه .

ولبث كبير المنشدين يكرر قوله : كيف تسخرون مني أنا هكذا ! أما النسوة فقد أحسنن وهن حائقات أن مخلوقاً من طراز (ـح) الجسماني - رجلاً قميئاً تمسأ صُب الكحول في قارورته خطأ . قد خدعن بالمظاهر الكاذبة . فهاجت النسوة وعلا صوتهن بالاحتجاج . وكانت كبيرة المعلمات أشدهن شعوراً بالإيذاء .

وسكتت لينتا وحدها عن الكلام . وانتحت زاوية من المكان ، وعزلتها عمن أحطن بها عاطفة لم يشاركنها الإحساس بها . وشحب لونها وخيمت على عينيها الزرقاويين سحابة من الغم الذي لم تمهده من قبل . لقد أتت إلى هذا الاجتماع يماً نفسها شعور غريب من الجدل والشوق . كانت تحدث نفسها وهي تدخل الغرفة وتقول : سوف أراه بعد بضع دقائق ، وأحدث إليه ، وأخبره أنني أحبه أكثر من أي شخص آخر عرفت (وقد جاءت بهذا العزم المصمم) . وربما يقول لي بعد هذا ماذا يقول ؟ لقد تدفق الدم في وجنتيها

لماذا كان غريباً جداً تلك الليلة بعد الذي شهدنا في دار الصور المحسة ؟ كان غريباً جداً . ولكنني برغم هذا على ثقة تامة بأنه يحبني . إني واثقة . . وفي تلك اللحظة ألقى برنارد تصريحه بأن الهمجي لن يحضر الجمعية . فشعرت لينتا فجأة بكل الاحساسات التي تمر بالمرء عادة عند بدء علاج عاطفة عنيفة من العواطف المستحدثة . أحست بفراغ مريع ، وبخوف تتقطع منه الأنفاس ، وبالترقف الشديد . وكان قلبها قد سكت نبضاته .

وحدثت نفسها قائلة : ربما كان ذلك لأنه لا يحبني . . وقد تحول هذا الشك بشة إلى يقين . إن جون قد أبى الحضور لأنه لم يحبها . إنه لم يحبها وكانت كبيرة معلمات ايثن تقول لمدير الإحراق واسترداد الفسفور : عندما أفكر أنني فضلاً . . .

وسمع صوت فاني كراون وهي تقول : نعم إن رواية الكحول صادقة جداً . إن إحدى صديقاتي كانت تعرف شخصاً ممن كانوا يشتغلون في مخزن الأجنّة في ذلك الحين . وقد ذكرت ذلك لصاحبي ، وقالت لي صاحبي وقال هنري فستر وهو يحلف على كبير المنشدين : الأمر سيئ للغاية . وقد يشوئك أن تعرف أن مديرتنا السابق أوشك أن ينقله إلى ايسلنده .

وكان برنارد في نشوة من ثقة النفس ، فوخزته كل كلمة قيلت بشأنه وتزعزعت تلك الثقة من فواج عدة . وأخذ يتجول بين ضيوفه شاحب اللون ثائراً مغبولاً شاعراً بضعته ، يتلجلج بعبارات الاعتذار المتفككة مؤكداً لهم أن الهمجي سيحضر قطعاً في الاجتماع التالي ، ومتوسلاً إليهم أن يترثوا حتى يتناولوا شطيرة من الشريان السباتي وشريحة من فيتامين (أ) باتي وزجاجة من الشمبانيا الجديدة . وانكبوا على الطعام في الحال وقد تجاهلوه ، وشربوا ، وجابهه بعضهم بالوقاحة وتحدث بعضهم إلى بعض بشأنه مسئين إليه وصانعين كأنه لم يكن معهم .

وقال كبير منشدي كاتربري بذلك الصوت الجميل الرنان الذي كان يلقي به الخطاب يوم الاحتفال بعيد فورد : «والآن يا رفاقي أعلن أن الوقت قد حان . . . » ثم نهض وألقى كويته وأزال بالفرجون عن صدره الأرجواني اللزج فتأت الوجبة الكبيرة التي تناولها في غير أوانها ، ثم سار نحو الباب .

وانطلق برنارد كالسهم إلى الأمام كي يقطع عليه الطريق .  
هل لابد لك حقاً يا كبير المنشدين . . . ؟ مازال الوقت باكراً جداً . وكنت أتمشيم أنك . . .

أجل لقد كان كبير الأمل عندما أسرت إليه ليتنا أن كبير المنشدين سيلبي الدعوة إن وجهت إليه . قالت : «اعلم أنه لطيف حقاً» . وأطلعت برنارد على المشبك الصغير الذهبي على شكل T الذي أعطاه إياه كبير المنشدين ذكرى لعطلة نهاية الأسبوع التي قضتها في معهد الغناء بمنطقته .

وذكر برنارد في تذاكر الدعوة متفاخراً : « . . . لمقابلة كبير منشدي كاتربري والهمجي » لكن الهمجي اختار هذا المساء دون الأمسية الأخرى جميعاً ليحبس نفسه في حجرته ويصيح : «هاني» بل ويقول : «سنز ايسو تسانانا» (وكان من حسن حظ برنارد أنه لا يفهم لغة زونو) . وقد انقلبت اللحظة التي كان يتنظر برنارد أن يبلغ فيها القمة في تاريخ حياته كله إلى لحظة إذلال شديد .

وتلجلج وهو يكرر قوله : «لقد كنت كبير الأمل . . . » وقد رفع بصره إلى ذلك الرجل العظيم الكريم وفي عينيه دلائل التوسل والذهول .

وقال كبير المنشدين في نغمة مرتفعة تنم عن الجهد والقسوة : «صديقي الشاب . . . » ثم ساد الصمت بين الجميع : « . . . خذ عني هذه النصيحة» . إنها نصيحة طيبة (وأصبح صوته كصوت يرتفع من بين القبور) . أحسن سلوكك يا صاح . أحسن سلوكك أيها الشاب» . ورسم علامة T فوقه ثم انصرف . ونادى بصوت آخر : ليتنا ، عزيزتي تعالي معي .

واقفتم ليتنا أثره وهو يخرج من الغرفة ، مطيعة له غير باسمه ولا متفطرسة (لأنها لم تدرك ما نالها من شرف) . وتبعهم بقية الضيوف بعد فترة لا بأس بها

وأغلق آخرهم الباب محدثاً به ضجيجاً ، وبقي برنارد وحده  
فاستلقى على أحد المقاعد وقد فقد هيئته وضاعت كل ثقته في نفسه ، وحجب  
وجهه بيديه وبدأ يبكي . ولكنه بعد بضع دقائق تنبه إلى فكرة طيبة وتناول أربعة  
أقراص من السوما

وكان الهمجي في غرفته بالطابق العلوي يقرأ مسرحية «روميو وجولييت»  
ونزلت ليننا وكبير المنشدين على سطح معهد الفناء . ونادى كبير المنشدين  
من أبواب المصاعد وهو شديد القلق قائلاً : «أسرعي يا صديقتي الشابة . أقصد  
ليننا» . وكانت ليننا قد تلكأت لحظة تتطلع إلى القمر فأغمضت عينيها وأسمرت  
تعبير السطح كي تلحق به .

فرغ مصطفى منذ لحظة يسيرة من قراءة صحيفة عنوانها «نظرية جديدة في  
علم الحياة» . وجلس فترة ما ، متأملاً متجهماً ، ثم التقط قلمه وكتب في الصفحة  
الافتتاحية «إن طريقة المؤلف الرياضي في علاج فكرة «الغرض» حديقة تدل على  
نبوغ عظيم ، لكنها زندقة ، وهي . فيما يخص النظام الاجتماعي الراهن . خطرة وقد  
تكون هدامة» ثم عقب على ذلك بهذه العبارة : «هذا الكلام لا ينشر» . ووضع  
خطأً تحت هذه الكلمات . ثم أضاف إلى ذلك قوله : «إن المؤلف سوف يبقى تحت  
الرقابة ، وقد يصبح نقله إلى محطة الأحياء المانية بسنت هيلانة أمراً لا مندوحة  
منه» . ووقع باسمه وهو آسف . لقد كان عملاً جليلاً . ولكن المرء إذا بدأ يقبل  
التفسير «بالغرض» فلا يعلم إلا الله ماذا تكون النتيجة . ذلك نوع من الآراء قد  
يفسد تكييف أصحاب العقول المذبذبة من أبناء الطبقة العليا . فيفقدون عقيدتهم في  
أن السعادة هي الخير الأسمى ، وتحل محل ذلك العقيدة بأن الهدف أبعد من ذلك  
مدى ، وخارج عن الدائرة الإنسانية الحاضرة ، وإن الغرض من الحياة ليس المحافظة  
على الرفاهية ، وإنما هو تعزيز الوعي وتهذيبه ، أو توسيع المعارف . وذلك . كما رأى  
المراقب . أمر ممكن صحيح ، ولكنه غير مقبول في الظروف الراهنة . والتقط قلمه  
مرة أخرى ورسم خطأً ثانياً تحت هذه العبارة «لا ينشر» ، أغلظ وأشد من الخط  
الأول سواداً . ثم تنهد . وفكر في نفسه قائلاً : ما أشدها مهزلة لو أن المرء لم  
يضطر إلى التفكير في السعادة!

وبعينين مغمضتين ووجه يتهلل بشراً كان جون يخطب للفضاء قائلاً :

«آه إنها تعلم المشاعل أن تتوهج وهي تحترق!

وكأنها تتعلق بوجنة الليل

كالجوهرة الثمينة في أذن الحبشية

هذا جمال أروع من أن يمتن ، وأعز على الأرض .»

كان الحرف T الذهبي متألئلاً على صدر ليننا . وأمسك به كبير المنشدين

لاهبأ؁ وأخذ يجذبـه ويجذبـه . فقالت لينا فجأة بعد صمت طويل كان يسود المكان : أظن أنه يحسن بي أن أتناول جرامين من السوما  
كان برنارد حينئذ مستغرقاً في النوم يبسم لفردوس أحلامه الخاصة لايفتر  
فـره عن الابتسام . وعقرب الدقائق في الساعة الكهربائية المعلقة فوق رأسه يقفز إلى  
الأمام مرة كل ثلاثين ثانية بغير توان وهو يدق دقاً لا يكاد يلحظه السامع . وتتابعـت  
دقات الساعة حتى كان الصباح . فعاد برنارد إلى ضروب البؤس المختلفة في الزمان  
والمكان . واستأجر طائرة أقلته إلى مركز التكييف وهو أشد ما يكون اكتئاباً ، فلقد  
تبخرت نشوة النجاح ، وعاد إليه رشده السابق ، وأحس كأن نفسه أثقل من الجو المحيط  
بها بدرجة لم يسبق لها عنده مثيل ، وبخاصة عند مقارنة هذه الحالة النفسية بالحالة  
النفسية المؤقتة التي انتابته في الأسابيع الماضية وكان خلالها فخوراً بنفسه مزهواً  
وكان الهمجي شديد العطف على برنارد . بعد مازال عنه زهوـه . بصورة لم تكن  
متوقعة .

فقال برنارد وهو يقص عليه شكاته : إنك أشبه بما كنت عليه في ماليي . هل  
تذكر ساعة تحدثنا معاً لأول مرة ؟ خارج البيت الصغير . أنت الآن شبيه بما كنت  
عليه حينذاك

. لأن شقاوتي عادت إلي . هذا هو السبب  
. إنني أؤثر الشقاء على ذلك الضرب من السعادة الزائفة الكاذبة التي كنت  
تتمتع بها هنا

فقال برنارد بمرارة شديدة : « إنني أحب ذلك . وقد كنت أنت السبب في كل  
ما حدث . أبليت أن تحضر إلى حفلاتي فانقلبوا جميعاً ضدي » وكان يعلم أن قوله  
هذا تعسف باطل . وكان يعترف في دخيلة نفسه . بل وصراحة آخر الأمر . بصدق  
كل ما كان الهمجي يقول حينئذ عن تفاهة الأصدقاء الذين ينقلبون أعداء الداء لمثل  
هذا الباعث الطفيف . ولكن برغم علمه هذا وإقراره بذلك ، وبرغم أن معونة صاحبه  
له وعطفه عليه هي الآن عزاؤه الوحيد ، تمرد برنارد على نفسه وأخذ ينمي في قلبه .  
إلى جانب محبته الصادقة للهمجي . ضيقاً خفياً منه ، ويدبر حملة من أنواع الانتقام  
الخفيفة يصبها فوق رأسه . فإن ضيقه بكبير المنشدين لايجدي ، ولايمكن له أن ينتقم  
من رئيس القوارير أو مساعد مدير المصائر . فكانت للهمجي عند برنارد هذه الميزة  
الكبرى عليهم وهي أنه سهل المنال ، فهو أصلح للتضحية إن من وظائف الصديق  
الرئيسية أن يعاني ( بصورة خفيفة رمزية ) العقوبات التي نحب . ولكننا لانستطيع . أن  
نوقمها على الأعداء

وكان لهمهلتز هو صديق التضحية الثاني لبرنارد . فلما انهزم أثناء مرة أخرى  
وتودد إلى صداقته . تلك الصداقة التي لم يكن يرى . وهو في أوجه . إنها جديرة

بالرعاية . فمنحه هلمهلتز وده . ومنحه إياه بغير تشريب أو تعليق كأنه نسي ما قام بينهما من شجار . وتأثر برنارد لذلك . وأحس بذلة النفس من نخوة صاحبه . وهي نخوة غير عادية . ولذا فهي شديدة الإذلال ، لأنها لاتدين للسوما بشيء . وتدين لشخصية هلمهلتز بكل شيء . إن هلمهلتز الذي نسي وتسامح هو هلمهلتز في حياته اليومية ، وليس هلمهلتز وهو في عطلة نصف جرام من السوما . وكان برنارد له شاكرأ ( فلقد كان له في عودته إلى صديقه عزاء وسلوى ) كما كان عليه ناقماً ( لأنه مما يسره أن ينتقم من هلمهلتز لكرم أخلاقه )

وعندما التقيا لأول مرة بعد الفراق ، تدفق برنارد في حديثه عن أسباب شقائه وتقبل من صاحبه العزاء . ولم يعلم إلا بعد بضعة أيام أنه لم يكن وحده الرجل الذي عانى المشقات ( فدهش لذلك وأحس بشيء من الخجل ) فلقد كان هلمهلتز في نزاع مع أصحاب السلطة والنفوذ . وذلك . كما قال . « بشأن القوافي كنت ألقى دروسي المعتادة في الهندسة العليا للعواطف لطلبة السنة الثالثة . والمقرر يقع في اثنتي عشرة محاضرة ، السابعة منها في القوافي . أوهي على وجه الدقة في « استخدام القوافي في الدعاية الخلقية وفي الإعلان » . ومن عاداتي أن أوضح محاضرتي بكثير من الأمثلة الفنية . وقد فكرت هذه المرة أن أقدم إليهم مثلاً مما كتبت بنفسي من عهد قريب . وهذا بالطبع جنون محض . ولكني لم أستطع المقاومة » . وضحك ثم قال : « وكنت مشغولاً بأن أشهد تأثيرهم به » . ثم قال في حزم شديد : « وأردت . فوق ذلك . أن أقوم بشيء من الدعاية . كنت أحاول أن أهندسهم حتى يحسوا بأحاساسي عندما كتبت تلك القوافي . يا لله ! » ثم ضحك مرة أخرى وقال : « ما أشد ما أثرت من احتجاج ! لقد استدعاني المدير وهدد بفصلي في الحال . فأنا رجل بارز فسأله برنارد : وما نظمت من قوافي .

قصيدة في العزلة

فرغ برنارد حاجبيه إلى أعلى

« سأنشدك إياها إن أردت » . وأنشد قائلاً ،

كان الاجتماع بالأمس ،

والآن هناك العصي ، ولكن الطبول محطمة ،

والمدينة في منتصف الليل ،

وتُفخ في المزامير ولكن في الفراغ ،

والشفاء مضمومة ، والوجوه ناعمة ،

والآلات كلها ساكنة ،

والأماكن قدرة بكما ،

بعدما هجرتها الجماهير ،

وسكن الهرج والمرج  
فابك (رافعاً صوتك أو خافضاً له)

وتكلم بصوت لست أدري لمن .

قل إن سوزان غائبة .

وكذلك أجبرها

أين ذراعها ، وما يقابلهما من نهود ؟

أين شفتها ، وأين ردفها ؟

ليس لها من وجود

لمن هذا الشيء ؟ والي لأتساءل

أي كنه باطل له ؟

هذا الشيء الذي لا وجود له

وهو مع ذلك يعمر الليل الخاوي

عمراتاً أشد كثافة من عضو التناسل ؟

ولماذا يبدو لنا كريهاً هكذا ؟

. قدمت لهم هذه القصيدة مثلاً فرفعوا أمري إلى المدير .

فقال برنارد : ليس في هذا ما يدهشني ، فهو يعارض صراحة كل ما تعلموه

بالإيهاء . أذكر أنهم أذنبوا ربع مليون مرة على الأقل ضد العزلة .

. أعرف ذلك . ولكنني أردت أن أرى ماذا عسى أن يكون الأثر .

. ولقد رأيت الآن .

فلم يسع هلمهلتز إلا أن يضحك وقال بعد فترة سكون : « أشعر كأنني بدأت

أظفر بموضوع أكتب فيه ، كأنني بدأت أتمكن من استخدام تلك القوة التي بداخلي .

تلك القوة الزائدة الدفينة . كأن شيئاً يقبل عليّ » . وظهر لبرنارد أنه برغم كل

متاعبه جد سعيد . وانتلف هلمهلتز مع الهمجي في الحال ، وكان اتلافهما قلبياً حقاً

حتى أن برنارد أحس بوخز الفيرة الحاد . فإنه خلال تلك الأسابيع جميعاً لم يألف

الهمجي تلك الأنفة الشديد التي حققها هلمهلتز في الحال . وكان أحياناً وهو

يرقبهما ويصني إلى حديثهما يشتد استياؤه ويود لو أنه لم يجمع بينهما البتة .

وخجل من غيرته وقابل ذلك بمجهود إرادي وتناول السوما كي يقي نفسه من

الإحساس بها . ولكن جهده لم ينجح كل النجاح ، وكان لا مناص من أن تقع بين

عطلة سومية وأخرى فترة من الفيرة . وعادته هذه العاطفة الكريهة بين الفينة

والفينة .

ولما التقى هلمهلتز بالهمجي للمرة الثالثة أنشد قصيدته في العزلة . وبعدما

أتمها سأله : ما رأيك فيها ؟

فهز الهمجي رأسه وأجاب قائلاً : « اصغ لهذه » . وفص قفل القمطر الذي كان يحفظ فيه كتابه الذي قرضته الفرن ، وفتح وقرأ ما يلي :

« ليكن ذلك الطائر الصداح

فوق تلك الشجرة العربية المنعزلة

نذير الحزن وبوق . »

وثارت مشاعر هلمهلتز تدريجاً وهو يصفي إليه . ولما بلغ الهمجي قوله « الشجرة العربية المنعزلة » ذعر صاحبه ، ولما بلغ قوله « أنت أيها البشير الصارخ » سر سروراً مبالغاً فابتسم . وعند قوله « كل طائر ذي جناح مستبد » تدفق الدم في وجتيه ، ولكنه شحب وهزته عاطفة لا عهد له بها عند قوله « الموسيقا البائدة »

وواصل الهمجي القراءة منشداً

« وارتاعت الصفات المشتركة

لأن النفس الواحدة قد تقسمت ،

والطبيعة واحدة

وإن تعددت أسماؤها

وذهل العقل عندما رأى الأجزاء تتحد . »

فقاطع برنارد القراءة بضحكة عالية ممقوتة قائلاً : « شولم ، شولم ، ليس هذا الشعر إلا أنشودة من أناشيد صلاة الجماعة » . وكان ينتقم لنفسه من صديقه لأن كلا منهما أحب الآخر أكثر مما أحبه

وكثيراً ما عاد إلى هذه الطريقة الانتقامية في الاجتماعين أو الثلاثة اللاحقة وكانت طريقة ميسورة وبالغة الأثر لأن هلمهلتز والهمجي كليهما كانا يتألمان أشد الألم لتهشيم هذه الجوهرة الشعرية المستحبة وتدنيها . وهدده هلمهلتز في النهاية بطرده من الغرفة إذا تجرأ على مقاطعتها مرة أخرى . وعلى ذلك فإنه مما يدعو إلى العجب أن المقاطعة التالية . وهي أشد خزيًا من كل ما سبقها . صدرت من هلمهلتز نفسه .

كان الهمجي يقرأ مسرحية « روميو وجولييت » بصوت مرتفع . وكان يقرأ بعاطفة قوية ورعدة شديدة (لأنه كان طوال الوقت يرى نفسه كروميو ولينا كجولييت) . واصفى هلمهلتز إلى الفصل الذي التقى فيه العاشقان لأول مرة باهتمام تشويه الحيرة . وسره الشعر الذي جاء في الفصل الذي حدث وقائه في الحقيقة ، لكنه ابتسم للعواطف التي عبر عنها الشاعر . وأضحكه جداً أن يبلغ العاشق تلك الحال لأنه يشتهي فتاة ، ولكن التفاصيل الحرفية كانت قطعة رائنة من فن هندسة العواطف! فقال : « إن هذا الرجل القديم يزري كل الزراية بخيرة الفنيين في الدعاية عندنا » . وابتسم الهمجي ابتسام الظافر المنتصر واستأنف القراءة . وسارت الأمور



على مايرام حتى كان المنظر الأخير من الفصل الثالث حيث بدأ كايبولت والسيدة كايبولت يهددان جوليت كي تتزوج من بارييس . وكان هلمهلز قلقاً خلال المنظر كله ، ولكنه انفجر في ضحك لم يستطع كتمانته عندما مثل الهمجي جوليت بصوت يثير الحزن وهي تقول :

« أليس في السحب شفقة

تنفذ إلى أعماق حزني ؟

أماه . يا عزيزتي . لاتنبذيني !

أجلّي هذا الزواج شهراً ، بل أسبوعاً

وإن لم تفعلني فضمي سرير العرس

في ذلك القبر المظلم ، حيث يرقد تايبولت . »

عجباً للألم والأب (ويا لهما من لفظين غاية في الدنس) يرغمان ابنتهما على الزواج من رجل لاتريدهما . وعجباً لهذه الفتاة البلهاء لاتقول إن لديها رجلاً آخر تؤثره! (في ذلك الحين على الأقل) . إن الموقف بسخفه وفحشه يثير الضحك بدرجة لاتقاوم ، وقد استطاع . بجهد الأبطال . أن يخفف من حدة نشوته . ولكن « الأم العزيزة » (بنفمة الهمجي المرتجفة التي تتم عن الألم) والإشارة إلى تايبولت وهو جثة هامدة وهي . من الجلي . لم تحرق ففقدت فسورها في قبر مظلم ذلك كان أكثر مما يحتمل . فاسترسل في الضحك حتى تحدر الدمع على وجهه . ولم يكف عن الضحك . وكان الهمجي في أثناء ذلك . وقد شحبه لونه من إحساسه بثورة النفس . ينظر إليه من فوق كتابه . ولما لم يتمتع صاحبه عن الضحك ، أغلق الكتاب حانقاً ، ونهض من مكانه وأعادته إلى القمطر وأحكم عليه القفل ، وكأنه . بحركاته . يخفي جوهرة من وجه خنزير

ولما استرد هلمهلز أنفاسه واستطاع أن يعتذر ، ومهد الهمجي للإصغاء إلى حديثه قال : « ومع ذلك فأني أعلم جيداً أن المرء بحاجة إلى مثل هذه المواقف المضحكة الجنونية . وأعلم أن المرء لايجيد الكتابة حقاً في غير ذلك . لماذا كان ذلك الكاتب القديم فنياً في الدعاية بدرجة تدعو إلى العجب ؟ لأنه كانت لديه أشياء عدة جنونية أليمة تتور لها أعصابه . ولا بد للمرء أن يؤذى وأن يضطرب لكي يستطيع أن يصوغ العبارات الجيدة التي تنفذ نفاذ أشعة إكس . ولكن عجبني من الآباء والأمهات! » هز رأسه ثم قال : « لاتنتظر مني إلا أن أضحك من ذكرهما . ومن ذا الذي يهتم لأن ولدأ ظفر بفتاة أو لم يظفر بها ؟ » (وجفل الهمجي ، ولكن هلمهلز الذي كان يحدق في الأرض مفكراً ، لم يبد عليه أي أثر) . واختتم حديثه متنهداً وقال : « كلا ، إن هذا لايفني . إننا بحاجة إلى نوع آخر من الجنون والعنف . ولكن ماذا عسى أن يكون ذلك ؟ وأين يوجد ؟ » وصمت برهة ثم هز رأسه وقال أخيراً : لست أدري ، لست أدري .

## الفصل الثالث عشر

ولوح هنري فستر خلال الضوء الخافت في مخزن الأجنة وقال : هل تحبين زيارة دار الصور المحسة الليلة ؟

فهزت ليننا رأسها دون أن تنبس ببنت شفة .

« هل ستخرجين مع شخص آخر ؟ » وكان يشوقه أن يعرف مَنْ من أصدقائه سيصحب الآخر ؟ وسألها : هل هو بنتو .

وهزت رأسها ثانية .

وتبين هنري الكلال في تلكما العينين الأرجوانيتين ، والشحوب المستتر تحت لمعة السل الجلدي ، والحزن الكامن في زوايا فمها القرمزي غير الباسم ، وسألها في شيء من القلق : « هل تحسسين بالمرض ؟ » وهو يخشى أن تكون متأمة من الأمراض المعدية القليلة الباقية .

وهزت ليننا رأسها مرة أخرى .

وقال هنري : « ينبغي لك على أية حال أن تزوري الطبيب فزيارة الطبيب مرة كل يوم تبعد مرض الجمجم » وأخرج هذه العبارة الأخيرة من قلبه وكان تأثير هذا القول المأثور الإيحائي قوياً في ليننا ، وقد ضربها ضربة خفيفة على كتفها واقترح عليها أنها « قد تكون بحاجة إلى شيء يعوضها عن الحمل ، أو علاج بال . ع . ع . ج<sup>(١)</sup> القوي الأثر . فأنت تعلمين أن العاطفة السليمة في العالم الجديد قد لا تكون أحياناً . . . » .

فقال ليننا وقد خرجت عن صمتها العنيد : « بحق فورد لا تتكلم » . والتفتت ثانية إلى أجنحتها المهملة .

علاج بال . ع . ج . حقاً ولولا أنها كانت على وشك البكاء لضحكت

(١) هذه الأحرف يرمز بها للملاحظة النهائية في العالم الجديد .

كأنها لا تملك ما يكتفيها من الع . ع . وتنهدت تنهداً عميقاً وهي تملأ محنتها وتمتمت لنفسها قائلة : « جون ، جون . . . » ثم تعجبت قائلة : يا إلهي ! هل أنا أعطيت أو لم أعط هذا الطفل حقنة مرض النوم ؟ إنها لم تذكر . وفي النهاية قررت ألا تخاطر بإعطائه حقنة ثانية ، وانتقلت إلى القارورة التالية من صف القوارير

اثنا عشر عاماً وثمانية أشهر وأربعة أيام من تلك اللحظة وبعدئذ قد يموت من مرض تريبانوسومياسز (مرض النوم) مدير موانزا موانزا من طراز (١- ) وهو في ريعان الشباب . وهذه أولى الحالات لأكثر من نصف قرن . وواصلت ليلتها عملها وهي تنهد

وبعد ساعة في حجرة التغيير كانت فاني تحتاج بقوة وتقول : من العبث أن تسمح لي لنفسك ببلوغ هذه الحالة . عبث باطل ، ولم ذلك ؟ من أجل رجل . رجل واحد

- ولكنه الرجل الذي أريد ؟

- كأن العالم ليس به ملايين الرجال غيره .

- ولكني لأريدهم .

- كيف تعرفين ذلك حتى تجربني ؟

- لقد جربت .

وسألته فاني وقد هزت كتفيها في ازدراء : كم ؟ واحداً أو اثنين ؟

« بل عشرات » وهزت رأسها ثم قالت : لكنهم لم ينفعوا .

فقالت فاني في عبارة موجزة : « عليك أن تتأبيري » . وكان من الجلي أن ثقته

في نصائحها قد تزعزعت . ثم قالت : إن المرء لا يستطيع أن يتم شيئاً ما بغير مشاركة .

- ولكنني في تلك الأثناء

- لا تفكري فيه .

- لست أستطيع !

- إذن فتناولي السوما

- إني أفعل .

- إذن فاستمري .

- وفي تلك الفترات كنت لأزال أحبه ، وسوف أحبه دائماً

فقالت فاني في عزم شديد : إذن فإذا كانت هذه هي الحال فلماذا لا تتوجهين

فوراً وتحصلين عليه ، أراد أم لم يُرد

- ولكنك لا تعرفين مقدار غرابته !

. هذا سبب آخر لثباتك وتصميمك .

. من اليسير أن « تقولي » ذلك

وبصوت كالبيوق قالت فاني : « لاتتقيدي بباطل من القول . بل اعلمي »

وكانت تصلح أن تكون محاضرة في جمعية الشابات الفورديات تلقي على المراهقين من ( ب ) حديثاً مسائلاً . ثم قالت : نعم ، اعلمي . فوراً . افعلي ذلك الآن

قالت ليننا : إنني أخشى ذلك

« ما عليك إلا أن تتناولي نصف جرام من السوما أولاً . والآن سوف أذهب

لأستحم » . وانصرفت تجرر منشفتها

دق الجرس ، فوثب الهمجي وهرع إلى الباب لأنه كان يأمل أن يزوره هلمهلتز عصر ذلك اليوم وهو شديد القلق (وقد صمم نهائياً أن يتحدث إلى هلمهلتز في شأن ليننا ، ولم يحتمل أن يؤجل الإفضاء بالسر دقيقة واحدة بعد ذلك) .

وصاح وهو يفتح الباب قائلاً : كنت أتوقع قدومك يا هلمهلتز

وإذا بليتنا على عتبة الباب ترتدي معطفاً من أطلس الملاحين ، الأبيض

الحمضي ، وعلى رأسها قبعة مستديرة بيضاء تميل فوق أذنها اليسرى بصورة دائرة

فقال الهمجي : « أوه! » كأن أحداً هوى عليه بضربة قوية

لقد كان نصف جرام كافياً لأن ينسي ليننا مخاوفها واضطرابها . فقالت :

« أهلاً بك يا جون! » وهي تبسم ، وسارت إلى جواره في الغرفة . وأغلق الباب

وتابعها متابعة آلية . وجلست ليننا ، ثم كان صمت طويل

وأخيراً قالت : يبدو لي أنك لست شديد الغبطة برويتي

ونظر إليها الهمجي عاتباً وقال : « لست مفتبهاً ؟ » ثم جثا على ركبتيه بفتة

أمامها ، وتناول يدها وقبلها باحترام . ثم قال هامساً : « غير مفتبهاً ؟ أه لو

عرفت . » ثم جرؤ على النظر إلى وجهها وقال : « يا معشوقتي ليننا » . ثم

قال : « يا من بلغت قمة إعجابي ، يا أعز ما في الدنيا » . فتبسمت له برقة شديدة

الحلاوة . ومالت نحوه وقد انفرجت شفاتها وقالت : « ما أكملك . إن خلّقت لا نظير

له » . واشتد قربها منه وقالت : « أنت خير مخلوق » . ثم زادت منه قرباً ، ووثب

الهمجي على قدميه . وقال وهو يتكلم بوجه منصرف : وهذا هو السبب في أن أقوم

بفعل شيء أولاً . أعني أن أظهر أنني جدير بك . ولست أقصد أنني سوف أظل

كذلك دائماً . ولكن لأظهر على الأقل أنني لم أكن غير جدير بك مطلقاً . أردت أن

أفعل شيئاً

وبدأت ليننا تقول : « لماذا تظن أنه من الضروري . » ولكنها لم تتم

عبارتها . وكانت في صوتها نغمة تنم عن التهيج . لقد مالت إلى الأمام ، واقتربت

منه وقد انفرجت شفاتها ، فوجدت فجأة أنها لاتميل إلى شيء مطلقاً . وقد نهضت

على قدميها كالبلهاء . فحق لها أن تغضب فعلاً برغم نصف جرام السوما الذي يجري في دماغها

وكان الهمجي يتمتم بكلام متقطع ويقول : « في مالي على المرء أن يأتي لها بجلد ليث جبلي . أقصد لو أراد أن يتزوج من فتاة . أو جلد ذئب وقالت ليننا في لهفة : ليس في المجترات أسد

فأجاب الهمجي باستياء مفاجئ مشوب بالازدراء قائلاً : « ولو كان بها أسد فما أحسب إلا أن الناس يقتلوننا بالغاز السام أو بغيره يسقطونه عليها من الطائرات . ولكني لأفعل ذلك يا ليننا » . ولوى كتفيه ، وجرؤ على النظر إليها ، وقابله بنظرة تنم عن عدم الإدراك المشوب بالغضب . فاضطرب . واستمر في حديثه وقد زاد كلامه تفككاً . قال : سأفعل أي شيء تريدين . إنك تعلمين أن من الأعمال ما هو أليم ، ولكنه برغم ذلك يسرّ فاعله . وهذا هو شعوري . أقصد أنني أكفّس الأرض إن أردت

فردت عليه ليننا وهي في حيرة شديدة . قالت : ولكن لدينا مكانس مفرغة الهواء . فليست بك حاجة إلى ذلك

. نعم ليست بي حاجة إلى ذلك . غير أن بعض الأعمال الوضيعة تؤدي بنبل عظيم . وأحب أن أؤدي عملاً بنفس نبيلة ، فهل تفهمين ؟ . ولكن إذا كانت هناك مكانس مفرغة الهواء . لست أرمي إلى ذلك .

واستمرت تقول : ويشغل بها قوم أنصاف معتوهين من طراز (ه) . وإذن فلماذا حقاً ؟

. لماذا ؟ من أجلك أنت ، كي أظهر أنني .  
. واني لأعجب بالعلاقة بين المكانس المفرغة والأسد .  
. كي أظهر مقدار

« وما العلاقة بين الأسد وسرورك برؤيتي . » وزاد حنقها

فأجاب يائساً . مقدار حبي لك يا ليننا

وتدفق الدم في وجنتي ليننا دليلاً على أن تيار الغرور الباطني قد هاج في نفسها وسألته : هل تقصد ما تقول يا جون ؟

فصاح الهمجي وقد ضم يديه إحداهما إلى الأخرى في شيء من الألم وقال : لم أقصد أن أقول ذلك . ولن يكون ذلك حتى . انصتي إلي يا ليننا إن الناس في مالي يتزوجون

قالت : « ماذا تعني ؟ » وعاد الانفعال إلى صوتها . فبم كان يتكلم الآن ؟ . إلى ماشاء الله . إنهما يتواعدان على العيش معاً إلى ماشاء الله « ما أبشع

هذه الفكرة» وقد صُدمت لينتا فعلاً .

إنهما يتلازمان بعد زوال الجمال الظاهري ، ولهما عقل أسرع تجدداً من فساد الدم .

ـ ما هذا ؟

ـ إنه كالذي جاء في شيكسبير « إنك إن فُضِضت بكارتها قبل أن . . . الحفلات الدينية بكل طقوسها المقدسة » .

« بريك يا جون ، تكلم كلاماً معقولاً . لست أفهم كلمة واحدة مما تقول . أفسرت أولاً إلى المكانس المفرغة ، ثم إلى البكارة . إنك تدفعني إلى الجنون » . ووثبت من مكانها وأمسكته من معصمه كأنها تخشى أن يفر منها جسماً وعقلاً . ثم قالت : أجب عن هذا السؤال : هل تحبني فعلاً أو لا تحبني ؟

وساد الصمت هنيهة ثم قال بصوت متخفّف جداً : إنني أحبك أكثر من أي شيء في الدنيا .

فصاحت قائلة : « إذن فلماذا لم تقل ذلك ؟ » وبلغ بها الخلق أنها دفعت أظافرها الحادة داخل جلد معصمه . ثم قالت : بدلاً من الهذيان بذكر البكارة والمكانس المفرغة والأسد ، فتسبب لي البؤس عدة أسابيع متوالية .

وأطلقت يده وأبعدتها عنها وهي غاضبة . وقالت : لولا أنني شديدة الحب لك لثرت في وجهك .

وطوقت عنقه في الحال بذراعيها . وأحس بنعومة شفيتها على شفتيه . ما أعذب نعموتهما ، ما أحرهما وما أشد ما قيهما من كهرياء . فألقى نفسه مضطراً إلى تذكر العناق الذي حدث في قصة « الأسابيع الثلاثة في الطائرة » . وتذكر آهات الفتاة الشقراء المجسدة ، وآهات الزنجي . الحقيقة أكثر من الواقع . يا للفزع . . . فحاول أن يتحرر من لينتا ولكنها هددت عليه العناق .

وتراجعت بوجهها كي تتمكن من رؤيته وهمسّت قائلة : « لماذا لم تقل ذلك ؟ » وبدأ في عينيها عتاب رقيق .

قال : العرين الحالك الظلمة أكثر الأماكن ملاءمة » . (وجلجل صوت الضمير مشبهاً بالعاطفة القوية) وقويت عزيمته . « على أن أشد إيهاء يصدر عن عبقرية الإنسان السافلة لن يدنس شرفي بالشهوة . لن يكون ذلك أبداً » .

وكانت تقول : ما أسخفك من غلام! لقد كنت شديدة الرغبة فيك ، وإن كنت راضياً في . فلماذا لم . . . ؟

فبدأ احتجاجه قائلاً : « ولكن يا لينتا . . . » وظن لحظة . وهي ترخي ذراعيها وتبتعد عنه . أنها أدركت تلميحه الذي لم يصرح به . ولكنها فكّت رباط حزامها الأبيض اللامع المخروق ، وعلقته بعناية على ظهر مقعد من المقاعد ، فبدأ يظن أنه

كان مخطئاً

فكرر نداءه وهو خائف وقال : ليننا!

ووضعت يدها على جيدها وجذبت جذبة طويلة رأسية ، فانشقت قميصها الأبيض الذي يشبه قمصان الملاحين حتى الهدب . فتعززت الشكوك في عزيمته الثابتة وقال : ليننا . ماذا تصنعين ؟

فكان جوابها فك الإزار ، ولم تنبس ببنت شفة ، وخلعت سروالها الذي تشبه مؤخرته الناقوس ، وظهر رداؤها الداخلي الذي يسترها من الفرع إلى القدم قرنفلياً باهتاً ، وتدلّى فوق صدرها الحرف الذهبي الذي منحها إياه كبير المنشدين .

« إن هذا الطعام الدقيق اللبني الذي يخترق عيون الرجال من خلف قضبان النوافذ . » تذكر هذه العبارة برنينها ودويها وسحرها فتضاعف في عينيه خطرها وتضاعفت فتنتها . ما أشد نعومتها ، ولكن ما أشد طعنان هذه النعومة! إنها تثقب حكمته وتخرقها ، وتفت من عزمه . « إن أغلظ الإيمان كالهشيم أمام النار التي تتأجج في الدماء . ليشدت زهدك وإلا . . . » .

وفكّت مشبكاً آخر فتشتت أجزاء رداؤها الداخلي القرنفلي كالنفحة أحكم تقسيمها . لقد حركت ذراعها حركة طفيفة ، ورفعت قدمها اليمنى أولاً ، ثم قدمها اليسرى ثانية فسقط الرداء على الأرض متفضلاً لا حياة فيه .

وتقدمت نحوه وهي لاتزال ترتدي جواربها وحذاءها وقبعتها المستديرة البيضاء المائلة بشكل داعر ، ومدت إليه ذراعيها وقالت : عزيزي ، عزيزي! لماذا لم تقل ذلك ؟

ولكن بدلاً من أن يجيبها بقوله مثلها : « عزيزتي! عزيزتي! » وبد ذراعيه نحوها ، تراجع الهمجي مذعوراً ملوحاً بيديه نحوها كأنه يحاول أن يُبعد عنه حيواناً دخيلاً خطراً . وخطا إلى الخلف أربع خطوات ثم استند إلى الحائط في مأمن منها .

ووضعت ليننا يديها فوق منكبيه وضمت نفسها إليه ضمّاً شديداً وقالت : « ما أحلاك! » وأمرته أن يطوقها بذراعيه قائلة : « عانقني يا حبيبي حتى تخدرني! »

عجباً! إن في صوتها وهي تأمره لشعرا ، وإنها لتعرف كلمات كأنها الغناء أو الرقي أو دق الطبول . وأغمضت عينيها وتكلمت بصوت تخافت كأنه همهمة النائم وقالت : قلبي . قلبي حتى أفقد رشدي . عانقني يا حبيبي وأتلج صدري . . .

فأمسك بها الهمجي من معصمها ، ونزع يديها من فوق كتفيه ، ودفعها بخلطة على بعد ذراع منه .

فتأوتت قائلة : « إنك تؤذي ، إنك . . . » وصمت فجأة . لقد أنساها الفرع الألم . وفتحت عينيها وشاهدت وجهه . كلا . إنه ليس وجهه . إنما هو وجه رجل غريب متوحش ، صاحب اللون ، متفضن ملتو من شدة الغضب الجنوني الذي لم

تدرك له سبباً . فذهلت وهمست قائلة : « ما بك يا جون ؟ » فلم يجر جواباً ، ولكنه اكتفى بالتحديق في وجهها بتلكما العينين المجنونتين . وارتجفت تلكما اليدان اللتان كانتا تقبضان على معصميهما . وتنفس أنفاساً عميقة بغير نظام . وسمعت أسنانه بقتة وهي تصطك اصطكاً خفيفاً لا يكاد يحس ولكنه مفزع مزيع . وكادت تصيح قائلة : « ما بك ؟ »

وكانها أيقظته بصياحها ، فأمسك بها من كتفها وهزها . وصاح قائلاً « عاهرة ! عاهرة ! مومس وقحة ! » واحتجت عليه بصوت يرتعد ارتعاداً شديداً من أثر هزته . قالت : « لا تفعل ، لا تفعل ! »

عاهرة !

أرجوك !

عاهرة لعينة !

وبدأت تقول : إن جرماً من السوما خير من ودفعها الهمجي إلى الورا ، بقوة فترنحت ثم سقطت . فصاح وقد وقف تجاهها يهددها : « اذهبي ، واغربي عن نظري وإلا قتلتك » . وقبض يديه ورفعت ليننا ذراعها كي تخفي وجهها ، وقالت : كلا . أرجوك ألا تفعل يا جون

هيا اسرعي

ووثبت على قدميه رافعة إحدى ذراعيها ومتتبعه كل حركة من حركاته بعين مفزعة ، وما فنتت تحبو على الأرض وتخفي رأسها . ثم انطلقت إلى الحمام وصفعها صفقة قوية أحدثت صوتاً كطلق المسدس فأسرعت في ارتحالها وقفزت ليننا إلى الأمام وهي تتأوه

ولما أوصدت الحمام وأحست بالطمأنينة فرغت لعد جراحها . وولت ظهرها المرأة ولوت رأسها . ونظرت من فوق كتفها اليسرى فتمكنت من رؤية آثار يد مفتوحة وقد انطبقت على لحمها اللؤلؤي حمراء جليلة واضحة . ومسحت البقعة الجريحة في حرص بالغ كي لا تؤذي نفسها

وفي الخارج ، في الغرفة الأخرى ، كان الهمجي يذرع الأرض ويسير على موسيقا هذه الكلمات السحرية وطبلها : « إن العصفور يأتيها والذباب الصغيرة الذهبية تنغمس في الدعارة أمام عيني »<sup>(١)</sup> . ورنّت هذه الكلمات في أذنه رنيناً جنونياً . « إن القط القذر والجواد الدفئ يأتيانها بشهوة ثائرة . إن الأنثى فيما تحت الخصر حيوان خرافي ، وفيما فوقه امرأة من النساء . إنها وريثة الآلهة في نصفها

(١) هذا الاقتباس من شيكبير ، وهو يقصد أن الغريزة الجنسية قوية في كل الأحياء ، لا تقاوم .



الأعلى ، وشيطان في نصفها الأسفل . تلك هي الجحيم ، والظلام ، وبؤرة الكبريت ، تشتعل فيها النار ، وتحترق بالماء الساخن ، ذلك نتن ودرن . تبأ ، تبأ ، تبأ . تبأ . وسحقاً! أعطوني درهماً من الزناد ، وصيدلياً ماهراً كي أخفف عن نفسي وطأة الخيال»

وصدر من الحمام صوت ضئيل جريء ينادي مستمطفاً : جون ، جون ، «إيه أيتها الحشائش . ما أروع مظهرك ، وما أحلى عيورك ، إنك تثيرين الحس . هل حرر هذا الكتاب الطيب ليكتب عليه «العاهرة» ؟ إن الملائكة نفسها تحب أن تشمها .»

ومازال عبيرها يملأ المكان حوله ، وقد ابيض معطفه بالمسحوق الذي كانت تعطر به جسمها المخمل : «يا لها من عاهرة وقحة!» وظل يردد هذه العبارة ويتنغم بها

. جون! هل ترى أنني أستطيع أن آخذ ملابسي ؟  
فالتقط السروال الذي تشبه مؤخرته الناقوس ، والشياب العلوية ورداءها الداخلي

وأمرها بقوله : «افتحي!» وركل الباب بقدمه .  
فأجابته متحدية بصوت خائف : «كلا لن أفعل»  
. كيف إذن تتوقعين مني أن أعطيها ؟  
. أدفع بها خلال النافذة فوق الباب  
وفعل ما أشارت به وعاد يذرع الغرفة بهدوء كما كان يفعل من قبل . «عاهرة وقحة ، عاهرة وقحة . يا لها من شيطانة مترفة ، ضخمة الردفين ، صفراء الأصابع .»

. جون!  
ولكنه لم يجب ، بل كان يفكر في ردفها الضخم وأصبعها الصفراء  
. جون!

فسألها بخشونة قانلاً ، ماذا تريدان ؟  
قالت : هل تتكرم بإعطائي الحزام المالتسي ؟  
وجلسن لينتا تصفي إلى وقع الأقدام في الغرفة الأخرى ، وتتعجب وهي تصفي إلى متى يحتمل أن يبقى هكذا يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، وهل لابد لها أن تنتظر حتى يخرج من البيت ، وهل تطمئن . بعدما تترك لسورته فرصة من الوقت تهدأ فيها . إلى فتح الحمام والانطلاق منه .

وإذ هي تسبح في هذه التأملات المقلقة تنبهت بفتة لجرس التلفون وهو يدق في الغرفة الأخرى . فكف صاحبنا عن المسير فجأة ، وسمعت صوت الهمجي وكأنه

يتحدث مع السكون .  
- هلو .

- نعم .

...  
- أنا هو إذا لم أخدع نفسي .

...  
- أجل . ألم تسمعي أذكر ذلك . أنا الهمجي أتكلم .

- ماذا ؟ من المريض ؟ الأمر يهمني بالطبع .

- ولكن هل المرض خطير ؟ وهل هي فعلاً في حالة سيئة ؟ سوف أذهب في الحال ...

- ليست في بيتها الآن ؟ إلى أين أخذت ؟

يا إلهي ! ما العنوان ؟

- ٣ بارك لين - هل هو هذا ؟ ؟ شكرأ .

وسمعت ليننا طقة السماعه وهو يُعيدها إلى مكانها ، ثم سمعت خطوات  
مسرعة ، وباباً يفتح بشدة . ثم كان سكون . هل ذهب فعلاً ؟  
ففتحت الباب ربع بوصة بحرص بالغ ، وأطلقت من الشق ، وشجتها منظر  
الفراغ فزادت من فتحة الباب قليلاً ، ثم أهرزت رأسها كله ، وأخيراً سارت في  
الغرفة على أطراف أصابعها ، ووقفت بضع ثوان بقلب شديد النبض ، ولبت تنصت  
وتصفي . ثم اندفعت نحو الباب الأمامي ، وفتحته وانسلت منه ، وأغلقت بهشدة ، ثم  
جرت . ولم تشعر بالطمأنينة والأمان حتى كانت في المصعد تهبط فعلاً إلى أسفل .

## الفصل الرابع عشر

مستشفى بارك لين للموتى برج من الأجر الأصفر يتألف من أربعة وستين طابقاً . ولما خرج الهمجي من طائرة الأجرة قابلته حملة من سيارات الموتى الهوائية ذات الألوان الزاهية وهي ترتفع من السطح بأزيزها وتنطلق عبر المستشفى وتتجه غرباً تقصد حمأة الاحراق . وعند باب المصعد أجابه كبير الحمالين بما استفسر عنه ، فهبط إلى الجناح رقم ٨١ . (وقال عنه الحمال إنه جناح الشيخوخة المتقدمة في الطابق السابع عشر)

وكانت الغرفة فسيحة تتلأأ بضوء الشمس وبالطلاء الأصفر ، وتحتوي على عشرين سريراً ، كلها مشغول . وكانت لندا تموت جماعة بجميع أسباب الراحة الحديثة . والأغاني المصطنعة المرحية تملأ الجو ولا تنقطع . وفي أسفل كل سرير صندوق تلفزيون يواجهه شاغله وهو في النزاع الأخير . والتلفزيون لا يفتر كأنه صنبور يتدفق من الصباح حتى المساء . والعطر السائد في الغرفة يتغير من تلقاء نفسه مرة كل ربع ساعة . وقالت الممرضة التي تولت أمر الهمجي عند الباب : «إننا نحاول أن نخلق هنا جواً ممتعاً جداً . شيئاً وسطاً بين فندق من الدرجة الأولى ودار من دور الصور المحسنة ، إن كنت تفهم ما أعني .

وسألها الهمجي متجاهلاً هذا الشرح الذي ألقته بأدب جم : «أين هي ؟

فاستاءت الممرضة وقالت : «الظاهر أنك على عجل .

فسألها : «هل هناك أمل ؟

«تقصد أملاً في عدم موتها ؟ (فأوماً برأسه) . كلا ليس هناك بالطبع أمل . عندما يرسل الشخص إلى هذا المكان فليس هنا . . . » . وراعتها ملامح الغم التي بدت على وجهه الشاحب فحوّزت حديثها فجأة وسألته : «ماذا عسى أن يكون

الأمر ؟» فهي لم تتعود من زائريها ما يشبه ذلك . (وليس معنى هذا كثرة الزائرين على أية حال ، أو أن هناك ما يدعو إلى كثرتهم) «لعلك لاتحس بالمرض ؟»  
فهز رأسه وقال بصوت لا يكاد يسمع : إنها أُمي  
فرمقته الممرضة بعينين مذعورتين. مروغتين . ثم صرفت عنه نظرها بسرعة .  
وتدفق الدم الحار في وجهها من الحلق إلى العارض  
وقال الهمجي : «أرني السبيل إليها» . وقد بذل جهداً في الكلام بنغمة  
عادية

فهدته إلى الجناح السفلي وهي لاتزال في حمرة الخجل . والتفتت إليهما وهما  
في طريقهما وجوه نضرة لم تتفرض بعد (لأن الشيخوخة كانت تتقدم بسرعة لم تجد  
معها الوجوه وقتاً تظهر فيه علامات السن . إنما شاخت القلوب والأذهان فقط)  
وتبعتهما وهم يتقدمون في مسيرهم عيون الطفولة الثانية الساذجة التي لاتتطلع إلى  
شيء . وارتعد الهمجي وهو ينظر حواليه

وكانت لندا ترقد في نهاية صف الأسرة الطويل المحاذي للحائط مباشرة  
وكانت ترقب . وهي تركز إلى الوسادات . الأشواط ، النهائية لبطولة تنس سطح  
ريمان بأمريكا الجنوبية ، وهو يلعب في صمت وبصور مصغرة على شاشة صندوق  
التلفزيون عند أسفل السرير . وكان اللاعبون الصغار (وهم من سكان عالم آخر  
صامتون متهيجون) يندفعون بغير ضجيج . كالسمك في حديقة الأسماك . هنا وهناك  
من أحد جوانب المربع الزجاجي المضيء إلى الجانب المقابل

وكانت لندا تشاهد الصورة وهي تبسم ابتسامة غامضة تدل على عدم  
الإدراك . وبدت على وجهها الشاحب المنتفخ الملامح التي ترتسم على وجه السعيد  
الأبله . وهي تغمض جفניה الفينة بعد الفينة . وبدت ناعسة لبضع ثوان . ثم تيقظت  
بشيء من الذعر ، فشهدت أبطال التنس الغرياء الصامتين ، وسمعت أنشودة  
«عانقني حتى تخدرني يا حبيبي» وقد وقعها فوكس وولتزريانا العجيب ، وأحست  
بتيار من رائحة الليمون يهب من النافذة فوق رأسها . تيقظت على هذه الأشياء ، أو  
قل تيقظت على حلم يتألف من هذه الأشياء العجيبة بعدما صورتها وزينتها السوما  
في دماغها ؛ ثم تبسمت مرة أخرى بسمتها المتقطعة التي لا مغزى لها والتي تتم عن  
قناعة الطفولة .

فقالت الممرضة : «لا بد لي أن أنصرف الآن في أية لحظة ، فاطمن هنا» . ثم  
انصرفت على عجل وفي نشاط جم  
وجلس الهمجي إلى جانب الفراش .  
وهمس قائلاً : «لندا» وأمسك بيدها  
وعندما سمعت اسمها يُنادي التفتت ، وأشرقت عيناها الغامضتان بنور

المعرفة ، فضغطت على يده ، وتبسمت وتحركت شفاتها ، ثم سقط رأسها إلى الأمام بغتة واستغرقت في النوم . وجلس يرقبها . يمين النظر في جسمها المنهوك ، فيتذكر ذلك الوجه الشاب المشرق الذي انحنى على طفولته في مالبى ، وتذكر (وقد أغمض عينيه) صوته وحركاتها ، وكل ما حدث لهما في حياتهما معاً ، وتذكر أناشيد الطفولة التي كانت تغنيها له . ما كان أجمل غناءها! وتذكر تلك الأغاني الصيانية ما أعجب سحرها وغرابتها!

ا ، ب ، ج ، فيتأمين .

الدهن في الكبد ، والحوت في البحر

فأحس بالدمع الحار يتجمع خلف جفنيه وهو يتذكر هذه الكلمات ، ويذكر صوت لندا وهي تكررهما . ثم تذكر دروس المطالعة : «الشراب في الإناء ، والقط فوق الحصير» ، كما ذكر الإرشادات الأولية لعمال (ب) في مخزن الأجنّة ، والأمسية الطويلة بجوار النار ، أو فوق سطح البيت الصغير في الصيف ، حينما كانت تقص له تلك الأقاصيص بشأن العالم الآخر خارج منطقة المتوحشين ، ذلك العالم الآخر الجميل! إن ذكر هذا العالم - كذكرى السماء - جنة جميلة فيحاء . ولقد احتفظ بها كاملة لم تمس . لم يدنسها الاحتكاك مع الحياة الواقعة في هذه المدينة الواقعية ، لندن ، وهؤلاء الرجال والنساء الواقعيون المتمدنون

وسمع ضجة من أصوات خشنة مباغثة ففتح عينيه ، وبعدما مسح دموعه على عجل تلفت حواليه . فإذا بتيار لاينقطع من ذكور التوائم المتشابهين الذين يبلغون من العمر ثماني سنوات يتدفق داخل الغرفة . ودخلوا توأماً بعد توأماً وكانهم حلم مزعج . ووجوههم . أو قل وجههم المتكرر لأنهم كانوا جميعاً على صورة واحدة . تحديق الكلاب ، كلها أنوف وعيون شاحبة محمقة . وكانوا يرتدون الكاكي ، وأفواههم فاغرة . وولجوا الغرفة وهم يصرخون ويثرثرون . وفي لحظة واحدة اندس الحارس معهم كالسوسة . وتكاكؤوا حول الأسرة ، وتسلقوها وزحفوا تحتها ، وتطلعوا داخل صناديق التلفزيون ، وحركوا وجوههم للمرضى كي يزعجهم .

وأدهشتهم لندا بل وأزعجتهم . فوقفت شرذمة منهم متجمعين عند مؤخرة سريرها ، وحملقوا مذعورين كأنهم حيوانات غبية مبتلعة جابهاً أمر مجهول مباغت

وتحدثوا بأصوات منخفضة مروعة قائلين : انظروا ، انظروا . ما بها ؟ ولماذا هي بدينة جداً ؟

ولم يروا وجهاً كوجهها من قبل . لم يروا وجهاً غير شاب ولا نضر ولم يروا جسماً زالت عنه نحافته واستقامته . لقد كانوا جميعاً في سنوات الموت . بين الستين والسبعين . ولا يزال مظهرهم كالفتيات الصغيرات . أما لندا فقد بدت في الرابعة

والأربعين - بالمقارنة مع هؤلاء . وحشاً مسناً مترهلاً مشوهاً .  
فهمسوا قائلين : أليست مريمة ؟ انظروا إلى أسنانها .  
وأطل فجأة من تحت السرير توأم وجهه كوجه الكلب ، بين الحائط ومقعد  
جون ، وبدأ يتطلع في وجه لندا الناعس .  
ثم شرع يتكلم . قال : « إنني أقول . . . » . غير أن عبارته انتهت بالصراخ  
قبل أن تتم . ذلك أن الهمجي قد قبض عليه من بينقته ، ورفع به جلاء فوق المقعد ،  
وضربه بقبضة يده ضربة حادة على أذنه ، ودفعه بعيداً عنه وهو يصيح .  
وهولت لإنقاذة كبيرة الممرضات لما طرقت صيحاته مسمعها  
وسألت بعده : ماذا كنت تصنع به ؟ إنني لا يرضيني أن تضرب الأطفال .  
فقال الهمجي بصوت يرتعد من شدة الغضب : إذن فابعديهم عن هذا  
السرير . ماذا يصنع هؤلاء الأطفال الصغار الوقحون القذرون في هذا المكان ؟ إنه  
أمر شائن !  
« شائن ؟ ماذا تعني ؟ إنهم يُكيفون على الموت » . ثم قالت وقد أُنذرت  
بشراسة شديدة قائلة : « وأعلم أنك لو تدخلت في أمر تكييفهم بعد هذا فسأرسل في  
طلب الحملين كي يقدفوا بك بعيداً عن هذا المكان .  
ونفض الهمجي على قدميه وخطا نحوها خطوتين . وقد ثمت حركاته وملامح  
وجهه على التهديد الشديد ، فاضطرت الممرضة إلى أن تتراجع مرتاعة مذعورة .  
ولكنه كبح جماح نفسه بجهد عظيم ، وعاد إلى مكانه وجلس إلى جوار السرير  
دون أن ينبس ببنت شفة .  
وقالت الممرضة وقد اطمأنت ولكن بعدما اهتزت كرامتها وتزعزعت قليلاً :  
« لقد أُنذرتك فاحذر » . ولكنها - مع ذلك - أبعدت التوأمين الفضوليين وأشركتهم في  
لعبة « صيد المشبك » التي قامت بتنظيمها إحدى زميلاتهما في الجانب الآخر من  
الغرفة  
وقالت للممرضة الأخرى : « أسرعي الآن يا عزيزتي إلى تناول الفنجان المقرر  
من محلول الكافيين » . وبهذا الأمر مارست سلطتها فاستردت ثقتها في نفسها  
وتحسن شعورها . ثم نادى : « والآن أيها الأطفال !  
وتحركت لندا في عسر شديد ، وفتحت عينيها لحظة ، ونظرت حولها نظرة  
غامضة ، ثم استرسلت في النوم مرة أخرى . وحاول الهمجي جاهداً وهو جالس إلى  
جوارها - أن يسترد حالته العقلية التي كان عليها منذ لحظات . وكرر لنفسه هذه  
العبارة « ا ، ب ، ج ، فيتامين » . كأن هذه الألفاظ تمويزة ترد الحياة إلى الموتى  
ولكن التمويزة كانت عديمة الأثر . فقد أبت بتاتاً أن تعود إلى ذاكرته الذكريات  
الجميلة ، ولم يرد على خاطره غير ذكريات الغيرة والقبح والشقاء الكريهة

الممقوتة . ذكر بوبي والدم يتقطر من كتفه الجريحة ، ولندا وهي مستفرقة في نوم قبيح مرذول والذهاب يطن حول المسكالم المسكوب فوق الأرض إلى جانب السرير ، والأولاد ينادون تلك الأسماء وهي تمر . . . كلا . كلا! فأغمض عينيه وهز رأسه منكراً هذه الذكريات بجهد شاق . « ا ، ب ، ج ، فيتامين . . . » لقد حاول أن يذكر تلك الأيام التي كان يجلس فيها على ركبتيها ، وتطوقه بذراعيها وتغني له ، وتردد الفناء ، وتهزه ثم تهزه حتى ينام ، وهي تردد هذه الأنشودة « ا ، ب ، ج ، فيتامين ، فيتامين ، فيتامين . . . » .

وارتفعت أنشودة فوكس ولتزريانا الحارقة حتى أصبحت قطعة موسيقية . عالية باكية ، وتلاشت فجأة رائحة الليمون . في نظام الروائح المتتابة . وحلت محلها رائحة هندية قوية أخرى . واهتزت لندا ، ثم تيقظت ، وحدقت بضع ثوان متحيرة في اللاعبين في الأشواط النهائية ، ثم رفعت وجهها ، واستنشقت الهواء بعطره الجديد مرة أو مرتين ، وابتمست فجأة . ابتسامة تنم عن سعادة الطفولة . وأغمضت عينها ، وتمتمت قائلة : « بوبي! إنني أحبه حباً جماً ، إنني . . . » . وتنهدت واسترخت فوق الوسادات .

وتكلم الهمجي متوسلاً . قال : « لندا! ألا تعرفيني ؟ » لقد حاول جهده وبذل ما في وسعه . فلماذا لم تسمح له بالنسيان ؟ وضغط على يدها المسترخية بشيء من العنف كأنه يريد إرغامها على التخلص مما كانت تحلم به من متع غير بريئة ، أو من هذه الذكريات الوضيعة الكريهة . كأنه يريد أن يعيدها إلى الحاضر وإلى الواقع : إلى الحاضر المزجج والواقع المر . ولكنه رفيع ، ولكنه خطر ، ولكنه مهم جداً والسبب هو اقتراب وقوع ذلك الأمر عينه الذي جعله الواقع مخيفاً . ألسنت تعرفيني يا لندا ؟

وأجابته بضغط يدها الخفيف الذي أحس به . وانحدر الدمع من عينيه . وانحنى فوقها وقبلها

وتحركت شفتاها وهمست ثانية بقولها : « بوبي! » وكان أحداً ألقى في وجهه دلواً مليئاً بالروث .

وغلى دمه بالغضب . وكبحت إرادته للمرة الثانية ، ووجدت عاطفة الحزن عنده مغزجاً آخر ، وتحولت إلى ثورة أليمة .

فصاح قائلاً : « ولكنني جون . أنا جون! » وفي بؤسه وثورته أمسك فعلاً بكتفها وهزها

فتفتحت لندا عينها في الحال ، ونظرت إليه وعرفته . « جون » . لكنها غمرت وجهه الواقعي ويديه المعنيتين في عالم خيالي . غمرته في بحر من العطر الهندي المستحدث والورلترز الحارق ، والذكريات المتغيرة والإحساسات التي تبدلت بدلاً

عجيباً ، والتي كان يتألف منها عالم أحلامها . عرفت أنه جون ابنها لكنها تصورت أنه دخيل على مالبي الفردوسية التي كانت تنفق فيها عطلة السوما مع بوبي وأغضبه أنها تحب بوبي . وكان يهزها لأن بوبي كان هناك في السرير . كان هناك خطأ من الأخطاء ، وكان الناس المتصدين جميعهم لم يفعلوا مثل ذلك ؟ « إن كل فرد يتعلق بكل . » . وانخفض صوتها بغتة حتى أصبح كتنقيق الضفادع الخافت الذي لا يكاد يسمع . وانفجر فوها ، وحاولت مستيئة أن تملأ رنتها بالهواء . غير أنها كانت كمن نسي كيف يتنفس . وحاولت أن تصيح . ولكن صوتاً لم يرتفع منها . وتبين من فزع عينها المحلقتين أنها كانت تعاني ألماً مبرحاً . وارتفعت يداها إلى حلقها ، ثم خدشت بمخالبها الهواء . الهواء الذي لم تستطع بعد أن تتنفسه ، الهواء الذي لم يكن له . بالنسبة إليها . وجود

ونفخ الهمجي على قدميه ، وانحنى فوقها وسألها متوسلاً : « ما هذا يا لندا ، مابك ؟ » وكأنه يطلب لنفسه الطمأنينة

ورمته بنظرة مليئة بالرعب الشنيع ، وكأنها بهذه النظرة المريعة تلقي عليه اللوم الشديد . وحاولت أن تنفخ في فراشها ، ولكنها سقطت على الوسادات . وأصبح وجهها شديد التشويه وشقتها زرقاوين فالتفت الهمجي خلفه ثم انطلق إلى الجانب الآخر من الجناح .

وصاح قائلاً : « أسرع ، أسرع ! » وكانت كبيرة الممرضات واقفة وسط حلقة من التوائم تلعب « صيد المشبك » فالتفتت حولها . واستولت عليها للحظة الأولى دهشة أعقبها في الحال شيء من عدم الرضا . وقالت وهي مقطبة الجبين : « لاتصح واذكر صفار الأطفال . أنك قد تفسد تكييف . ولكن ما هذا الذي تصنع ؟ » وكان قد شق طريقه وسط الحلقة ، فصاح به أحد الأطفال قائلاً : « حذار ، حذار » ، وأمسك جون بكبيرة الممرضات من كمها وقال لها : « أسرع ، أسرع ! » وسحبها وراءه ثم قال : « أسرع ! إن شيئاً قد حدث . لقد قتلها

ولما عادا إلى طرف الجناح كانت لندا قد فارقت الحياة ووقف الهمجي لحظة في صمت بارد ، ثم جثا على ركبتيه إلى جانب الفراش ، وأخفى وجهه بين يديه ، ولم يتمالك نفسه من شدة البكاء

ووقفت الممرضة لاتدري ماذا تصنع ، تنظر تارة إلى هذا الجاثي إلى جوار السرير (وهو منظر شائن) ، وتارة أخرى إلى التوائم وهم أطفال مساكين) الذين وقفوا عن اللعب وحملقوا من جانب الجناح الآخر بكل عيونهم وأنوفهم في هذا المنظر المشير الذي كان يمثل حول السرير رقم ٢٠ . هل تتحدث إليه ؟ هل تحاول أن تعيده إلى جادة السلوك المهذب ؟ هل تذكره بالمكان الذي هو فيه ؟ وبالضرر المميت



الذي قد يسببه لهؤلاء الأبرياء المساكين ؟ إنه قد يفسد تكييفهم على الموت تكييفاً صحيحاً بهذا الصباح المقزز . كأن الموت شيء مريع ، وكأن الفرد الواحد قد تكون له كل هذه الأهمية ! إن عمله هذا قد يبعث فيهم أسوأ الآراء عن الموضوع ، وقد يفسد عليهم أمرهم فيستجيون بطريقة خاطئة جداً لا تتفق البتة ومصصلحة الجماعة وتقدمت إلى الأمام خطوة ولمست كتفه وقالت له بصوت خافت غاضب : « هلا تستطيع أن تحسن السلوك ؟ » لكنها تلفت حواليتها فوجدت أن ستة توانم قد نهضوا على أقدامهم وتقدموا إلى الجانب الآخر من الجناح . وانحلت دائرتهم . وبعد لحظة كلا . إن الخطر جسيم . والمجموعة كلها قد تتقهقر ستة أشهر أو سبعة في عملية التكييف . فهرولت عائدة نحو الأطفال المهددين الذين عهد بهم إليها وسألت بنغمة مرتفعة بهيجة . قالت : « من منكم يريد قطعة من الشكلاتة الملحجة ؟ »

فصاح أفراد الجماعة البوكانوفسكية كلهم في صوت واحد قائلين : « أنا » ونسي السرير رقم ٢٠ كل النسيان وأخذ الهمجي يكرر لنفسه قوله : « يا إلهي ، يا إلهي . » ولم يلفظ بغير هذه الكلمة وهو في فوضى الحزن وتأنيب الضمير الذي يملأ فؤاده . وهمس ثانية بصوت مرتفع قائلاً : إلهي ، يا إلهي وأجابه صوت قريب منه جداً ، واضح ، أجش ، يتميز وسط أغاني ورتلزر الحارقة ، قائلاً : « ما هذا الذي يقول ؟ » وحمل الهمجي بشدة وعنف وكشف عن وجهه وتلفت حواليه ، فرأى خمسة توانم يرتدون الكاكي ، يحمل كل منهم في يمينه القطعة التي تبقت من أصبع الشكلاتة الملحجة الطويل ، ووجوههم المتشابهة ملطخة على صور مختلفة بسائل الشكلاتة . وكانوا يقفون في صف واحد يحملون فيه كالكلاب . والتقت عيونهم بعينية وتجهموا جميعاً في آن واحد . وأشار أحدهم بقطعة الشكلاتة الباقية في يده . وسأل قائلاً : « هل ماتت ؟ » وحقق الهمجي فيهم لحظة وهو صامت . ثم نهض على قدميه في صمت ، وسار نحو الباب مبطناً في صمت كذلك .

وردد التوأم الطلعة سؤاله وهو يركض إلى جانبه : « هل ماتت ؟ » فالتفت عليه الهمجي نظرة من عليائه ودفعه بعيداً عنه وهو لا يزال في صمته وخر التوأم على الأرض وبدأ يعوي في الحال . غير أن الهمجي لم يمرر التفاتاً

## الفصل الخامس عشر

كانت هيئة الخدم في مستشفى بارك لين للموتى تتألف من مائة واثنين وستين فرداً من طراز (د) مقسمين إلى مجموعتين بوكانوفسكيتين تتكون إحداهما من أربع وثمانين أنثى حمراء الرأس ، والأخرى من ثمانية وسبعين توأماً ذكراً اسمر اللون من ذوي الرؤوس المستطيلة . وكانت الطائفتان تجتمعان في السادسة عندما تنقضي ساعات العمل عند مدخل المستشفى ، يقدم إليهما مقرر السوما وكيل نائب الخازن .

وخرج الهمجي من المصعد وتوسطهم . غير أنه كان يفكر في أمر آخر . كان يفكر في الموت وفي آلامه وندمه . وبدأ يشق طريقه خلال الزحام بصورة آلية بغير وعي .

من تدفع ؟ وأين تظن أنت ذاهب ؟

ولم يسمع غير صوتين اثنين أحدهما صرير مرتفع والآخر هدير منخفض ، وكلاهما يخرج من عدد عديد من الحلق المنفصلة . ولم يلتفت نحوه غير وجهين اثنين غاضبين أحدهما حليق كالقمر به غمش حوله حالة برتقالية ، والآخر هزيل كوجه الطائر ذي المنقار وقد نبت فيه الشعر ليومين ، وقد تكرّر الوجهان إلى ما لا نهاية كأنهما صورتان في عدد من المرايا . وأيقظته من غفوته كلماتهم وغمزات مرافقهم الحادة في ضلوعه . فتنبه مرة أخرى إلى الحقيقة الخارجية ، وتلفت حواليه ، وأدرك ما وقعت عليه عيناه . أدركه وقد تزايلت أعضاؤه من الفزع والتقرّز ، وعرف أنه الهذيان الذي يحاوده صباح مساء ، وكابوس من المتشابهات المتجمعة التي لا يتميز أحدها عن الآخر . توأّم لاتنتهي . . لقد تجمعوا كالديدان حول لندا وهي تقضي نحبها بصورة غامضة وتتابعوا واحداً في إثر الآخر . وهاهو ذا الآن يشهد

الديدان مرة أخرى ، ولكنها أضخم حجماً ، وأكبر نمواً ، وهم يقطعون عليه حزنه وندمه . فتوقف عن المسير ، ويعينين فيهما الحيرة والفرع حدق حوله في الجمهور الذي يرتدي الكاكي ، وتوسطه وهو يعلوهم جميعاً برأسه كله . « كم مخلوق طيب هنا! ما أجمل الإنسان! يا له من عالم طريف . . . » . لقد كانت هذه الكلمات ترن في أذنه وتسخر منه بازدرأه .

وارتفع صوت يقول : توزيع السوما! نرجوكم أن تحتفظوا بالنظام . هلموا وفتح أحد الأبواب ، وأدخلت في مكان الاجتماع منضدة ومقعد . وكان المنادي شاباً خفيف الروح من طراز (أ) ، وكان قد دخل وهو يحمل صندوق نقد من الحديد الأسود . وصدرت من التوائم المنتظرة تمتعة تنم عن الرضا . ونسوا كل ما يتعلق بالهمجي ، وركزوا الآن اهتمامهم في الصندوق الأسود الذي وضعه الشاب فوق النضد ، وشرع الآن يفحصه . ورفع الغطاء .

وصدرت من المائة واثنتين وستين فرداً جميعاً في صوت واحد صيحة تدل على الدهشة كأنهم يشاهدون الصواريخ النارية .

وأخرج الشاب ملء قبضة يده من صناديق الحبوب الصغيرة ، ثم قال بنفمة حاسمة : الآن أرجوكم أن تتقدموا ، واحداً في إثر الآخر ولا يدفع بعضكم بعضاً فتقدم التوائم متتابعين غير متدافعين . وجاء ذكران أولاً ، ثم أنثى ، ثم ذكر آخر ، ثم ثلاث أناث ، ثم . . .

ولبت الهمجي يشاهد ما يجري « يا له من عالم طريف ، يا له من عالم طريف! . . » . وكان هذه الكلمات الرنانة قد تغيرت نغمتها في ذهنه . لقد كانوا يسخرون منه وهو في شقوته وندمه ، ويزدرونه بنفمة شنيعة تدل على الاستهزاء والسخرية! وقد ضحكوا ضحكات شيطانية ، وأصروا على القذارة الوضيعة ، وذلك الكابوس القبيح المقرز . والآن ينفخون في الأبواق بفترة للقتال . « يا له من عالم طريف! » كانت ميراندا تنادي بامكان الجمال ، وبامكان تحويل الكابوس نفسه إلى شيء بديع نبيل . « يا له من عالم طريف! » تلك عبارة تحد ، وذلك أمر ، وصاح وكيل نائب الخازن محنقاً . قال : « لا يدفع بعضكم بعضاً » وأنزل غطاء الصندوق محدثاً صوتاً وقال : سأكلف عن التوزيع ما لم تحسنوا السلوك .

وزمجر الأفراد من طراز (٥) وتدافعوا قليلاً ثم سكنوا وكان الوعيد مجدياً فقد راعهم أن يحرموا من السوما فأعاد الشاب فتح الصندوق وقال : هذا حسن .

لقد كانت لندا مستعبدة ، ثم ماتت . وسوف يعيش الآخرون أحراراً . وسوف تتزين الدنيا . هذا إصلاح بل واجب . وأشرقت الحقيقة على الهمجي فجأة وتبين له ما ينبغي له أن يفعل . وكان نافذة قد فتحت ، أو ستاراً أزيح

وقال وكيل الخازن : والآن  
فتقدمت إحدى الإناث خطوة إلى الأمام  
ونادى الهمجي بصوت رنان مرتفع قائلاً : قفوا ، قفوا !  
وشق طريقه إلى المنضدة ، وحدقت فيه الدالات في دهشة شديدة  
وقال نائب وكيل الخازن في صوت خافت جداً : « يا لفورد . إنه الهمجي ! »  
وأحس بالفزع الشديد  
وصاح الهمجي جاداً . قال : « أرجوكم أن تنصتوا . أعيروني أذاناً  
مصغية . » . إنه لم يخاطب الجمهور من قبل قط ، فشق عليه الآن جداً أن يعبر  
عما أراد أن يقول : لاتأخذوا هذه المادة المريعة إنها سم ، إنها سم  
فقال له نائب وكيل الخازن وهو يبتسم له ويعطف عليه : أيها الهمجي ، هل  
تسمح لي أن  
سم للروح كما هو سم للبدن .  
« أجل . ولكن أرجوك أن تدعني أواصل التوزيع . إنك رجل طيب » . وربت  
على ذراع الهمجي برفق يشوبه الحرص كأنه يربت على حيوان مفترس شرير وقال  
له : أرجو أن تدعني  
فصاح الهمجي : كلا!  
. ولكن انظر هنا أيها الشيخ  
. أقذفوه جميعاً . هذا السم المريع  
وكان لهذه الكلمات « أقذفوه جميعاً » أثر قوي في وعي الدالات واخترقت  
طبقات سمكة من الجهل . وعلت زمجرة الجمهور الغاضب  
فقال الهمجي وقد التفت إلى التوائم : لقد جئت لآتيكم بالحرية . جئت  
ولم يعد نائب وكيل الخازن يسمع شيئاً ، فقد انسحل من المكان وكان يبحث  
عن رقم في دفتر التلفون  
لخص برنارد حديثه بهذه العبارة : إنه ليس في بيته ، وليس في بيتي ولا  
بيتك . وليس في الافروديت ولا في مركز الكلية . فإلى أين يا ترى ذهب ؟  
فهز هلمهلتز كتفيه . لقد عادا من عملهما وهما يتوقعان أن يجدا الهمجي  
باتنظارهما في أحد أماكن اللقاء التي ألفاها ، ولكنهما لم يمشرا له على أثر . وقد  
ضايقهما ذلك لأنهما كانا يريدان أن يهبطا إلى بيارتز في سيارة هلمهلتز الخفيفة  
ذات المقاعد الأربعة . وسوف يفوتهما موعد العشاء إذا لم يعد سريعاً  
فقال هلمهلتز : سوف نعطيه خمس دقائق أخرى ، فإذا لم يعد خلالها  
فسوف  
وقاطعه دق جرس التلفون ، والتقط السماعة وقال : « هلو . هأنذا أتكلم »

وأنصت فترة طويلة ثم أخذ يسب ثم قال : أنا آت على الفور  
فسأله برنارد : ما في الأمر ؟

فقال لهملتهز : هذا رجل أعرفه في مستشفى بارك لين . الهمجي هناك ،  
والظاهر أنه جن . والأمر عاجل على أي حال . هل ترافقني ؟  
فهرولا معاً في الدهليز يقصدان المصاعد

وكان الهمجي يقول لهم وهم يدخلون المستشفى : « ولكن هل تحبون أن  
تكونوا عبيداً ؟ » وتدفق الدم في وجهه واتقدت عيناه من الهياج والحق . ثم قال :  
« هل تحبون أن تكونوا أطفالاً ؟ نعم ، أطفالاً تبكون وتتقيؤون ؟ » وقد أحقنه  
غباؤهم الوحشي فبدأ يقذفهم بالإهانات وهو الذي جاء لإنقاذهم . ونفذت الإهانات  
خلال غباوتهم السمكية ، فحدقوا فيه وقد بدا في عيونهم ما ينم عن الاستياء الثقيل  
الكتيب . فصاح بهم صيحة عالية وقال : « نعم تتقيؤون ! » ونسي الآن همه وندمه ،  
وعطفه وواجباته ، وتشبع بالكراهة الشديدة لهؤلاء الوحوش المنحططين عن البشر  
« هلا تريدون أن تكونوا رجالاً أحراراً ؟ هلا تفهمون ما الرجولة وما الحرية ؟ »  
وجعله الغضب فصيحاً ، فتدقق الكلام تدققاً . وكرر قوله : « هلا تريدون ذلك ؟ »  
غير أنه لم يظفر بجواب لهذا السؤال . وواصل حديثه متجهماً . قال : « إذن  
فلأعلمكم وسوف أحرركم سواء أردتم أو لم تريدوا » . وفتح إحدى النوافذ بقوة ،  
وهي تطل على فناء المستشفى الداخلي ، ثم بدأ يقذف في الفضاء بصناديق أقراص  
السوما الصغيرة قبضة بعد قبضة .

وصمت الجمهور الذي يرتدي الكاكي لحظة ، ولقد تحجروا دهشة وفزعاً لمنظر  
هذا الانتهاك الفاجر للحرمات .

وهمس برنارد وقد حدق فيه بعينين واسعتين قائلاً : « إنه مجنون . سوف  
يقتلونه . سوف . » وارتفعت من الجماهير صيحة عالية ، مفاجئة . وقد دفعتها  
حركة خفيفة نحو الهمجي مهددين . فقال برنارد ، وقد التفت ناحية أخرى : كان  
فوردي في عونه .

فقال لهملتهز : « فوردي في عون من كان في عون نفسه » . وضحك ضحكة  
ابتهاج فعلي ، وشق طريقه وسط الجماهير

فصاح الهمجي قائلاً : كونوا أحراراً ، كونوا أحراراً . واستمر يقذف السوما  
بيد واحدة في الفضاء . وأخذ يلكر باليد الأخرى وجوه المعتدين عليه ، تلك الوجوه  
التي لا يتميز أحدها عن الآخر . « كونوا أحراراً » . وأدرك فجأة أن لهملتهز صديقه  
الطيب القديم كان إلى جواره . واستمر يلكر ويقول : « لقد صاروا رجالاً في  
النهاية ! » . وظل بين الفينة والفينة يقذف السم خلال النافذة المفتوحة وقد ملأ به  
قبضة يده مرات عدة . « نعم ، رجالاً رجالاً رجالاً ! » ولم يبق شيء من السم

فالتقط الصندوق وأطلعهم على فراغه المظلم وقال : إنكم أحراراً  
وأعول الدالات وهاجموه بغضب مضاعف .

ووقف برنارد متردداً في حاشية المعركة ثم قال : « لقد انتهت حياتهم » .  
ودفعه باعث مباغت ، فهرع لمعوتتهم . ثم راجع نفسه ووقف . غير أنه خجل فخطا  
ثانية إلى الأمام . وراجع نفسه مرة أخرى ووقف متألماً من هذا التردد المذل . يخشى  
أنهم قد يقتلون إذا لم يقدم لهم يد المعونة ، وأنه هو نفسه قد يقتل لو فعل . وفي  
تلك اللحظة جاء رجال الشرطة مسرعين ، عيونهم محمقة ، وأنوفهم كأنوف  
الخنزير وهم يلبسون الأقنعة التي تقيهم الغازات . فحمداً لفورداً !

فانطلق برنارد للقائهم . ولوح بذراعيه . وكانت كل حركة لها قيمتها . وظن  
أنه قام بعمل بشيء ما . وصاح عدة مرات : « المعونة ، المعونة » وعلا صوته  
تدريجاً كي يتوهم المعونة .

فأبعدوه رجال الشرطة من طريقهم وياشروا عملهم . ونشر بخار السوما في  
الفضاء سحباً متكاثفة . ثلاثة رجال يحملون آلات للرش شدت إلى أكتافهم . وأخذ  
اثنان آخران يعملان حول صندوق الموسيقى المركبة الخفيف . وشق طريقهم وسط  
الجمهور أربعة آخرون يحملون المسدسات المائنة محشوة بمخدر قوي . وأخذوا  
يصرون أشد المقاتلين اقتراساً ويخدرونهم وهم يطلقون الماء من المسدسات بطريقة  
منظمة دفعة بعد دفعة .

وصاح برنارد قائلاً : « أسرعوا ، أسرعوا ! إنهم سوف يقتلون إن لم تعجلوا .  
إنهم سوف . . . أوما » وقد أغضبت ثروته هذه أحد رجال الشرطة فأطلق عليه  
دفعة من مسدسه المائي . ووقف برنارد لحظة أو لحظتين وقد جاشت معدته وترنح  
على ساقيه كأنهما قد قعدتا العظام والأعصاب والعضلات ، فأصبحتا عصاتين من الهلام  
. بل ومن الماء في آخر الأمر . فخرّ مكوماً على الأرض .

وبدا يتكلم بفتة صوت صادر من صندوق الموسيقى المركبة . وذلك هو صوت  
العقل ، وصوت الشعور الطيب . وانفضت صحيفة الآثار الصوتية ونطقت عن الخطاب  
الصناعي رقم ٢ ( بالقوة المتوسطة ) الخاص بمنافضة الثورات . وصدر الخطاب رأساً من  
أعماق قلب لا وجود له . وقال : « إخواني ، أصدقائي » بنفمة شجية تنطوي على  
تأنيب بالغ في الرقة ، حتى أن عيون رجال الشرطة أنفسهم امتلأت لحظة بالدموع  
خلف الأقنعة الواقية من الغازات . ثم قال الصوت : « ما معنى هذا ؟ لماذا لستم  
جميعاً سعداء طيبين في عشرتكم ؟ سعداء طيبين ، في سلام آمنين » . ثم ارتعش  
الصوت وخفت حتى بات همساً ثم تلاشي حيناً ما . ثم عاد يقول في حماسة  
وشغف : « أني أحب لكم السعادة . وإنني أحب لكم أن تكونوا طيبين ! فأرجوكم  
وأحف في الرجاء أن تكونوا كذلك وأن . . . »

وبعد دقيقتين كان للصوت وبخار السوما أثرهما . فتبادل الدالات القبلات والدمع ينهمر من عيونهم وتعانقوا . كل ستة قوائم دفعة واحدة في عناق شامل . وحتى هلمهلتز والهمجي كانا يبكيان . وجيء من المخزن بمدد جديد من صناديق الحبوب ، ووزعت الأقراص على عجل من جديد ، وبعدئذ تشتت التوائم على نفمة الوداع الموسيقية المشوبة بالمحبة الحارة ، ينفطرون من البكاء حتى توفك قلوبهم أن تتحلم . «وداعاً يا أعز أصدقائي . يحفظكم فوردا وداعاً يا أعز أصدقائي . . . يحفظكم فوردا . وداعاً يا أعز . . .» .

ولما اختفى آخر الدالات أوقف أحد رجال الشرطة التيار ، فسكت الصوت الملائكي .

وسأل رئيس الشرطة قائلاً : «هل لكم أن تنصرفوا هادئين . أو لا بد لنا من عملية التخدير ؟» . وصوب مسدسه المائي مهدداً .

فأجابه الهمجي : «سوف ننصرف هادئين» . وهو يمس على التعاقب مساً خفيفاً شفته الجريحة ، وعنقه المخدوش ، ويسراه المعضوضه . وأوماً هلمهلتز رأسه مؤيداً ، وهو لا يزال يضع منديله فوق أنفه الدامي .

وتيقظ برنارد واسترد قدرته على استخدام قدميه ، وقد أثر أن يتحرك في هذه الآونة نحو الباب متخفياً جهد المستطاع .

ونادى رئيس الشرطة قائلاً : «أنت هناك» وأسرع إلى الجانب الآخر من الغرفة شرطي مقنع كالحنزير ، وألقى يده على كتف الشاب .

فالتفت برنارد وعليه سيما البراءة المشوبة بالحق . هل كان يفر من الموقف ؟ إنه لم يحلم بذلك . وقال لرئيس الشرطة : «إنني لأستطيع أن أتصور لماذا تريدونني ؟

أأست صديقاً للمساجين ؟

فتردد برنارد في الإجابة ولكنه لم يستطع الإنكار فسأله : «ولماذا لا يهني لي أن أكون ؟

فقال له رئيس الشرطة : «إذن فتعال» . وتقدم صوب الباب نحو سيارة الشرطة المنتظرة .

## الفصل السادس عشر

كانت الغرفة التي دخلها ثلاثتهم مكتب المراقب وقال لهم الساقبي (ح) : « سوف يأتيكم سيادته بعد لحظة » . وتركهم وحدهم وانصرف .

فضحك هلمهلتز ضحكة عالية وقال : « إن هذا الاجتماع أشبه بحفلة محلول الكافيين منه بالمحاكمة » . واستوى على أفخر كرسي هوائي . ثم قال : « تشجع يا برنارد » . وقد وقع بصره على وجه صاحبه الأخضر التعس . غير أن برنارد لم يتشجع . ولم يحر جواباً ، بل ولم يلتفت إلى هلمهلتز ، بل سار نحو أسوأ الكراسي في الغرفة وجلس عليه ، وقد عنى بانتقائه وعنده أمل غامض أنه بذلك يفت . على صورة ما . من حدة غضب السلطات العليا

وأخذ الهمجي في غضون ذلك يجوس خلال الغرفة قلقاً . وتطلع بشفف سطحي غامض إلى الكتب في الرفوف ، وإلى صحائف الآثار الصوتية ، وإلى أسطوانات آلات القراءة ، وقد وضعت كل منها في عين مرقومة . وكان على المنضدة تحت النافذة مجلد ضخم مغلف بجلد بديع أسود طري ، ومختوم بحرف IT المذهب الكبير فالتقط الكتاب وفتحه . « حياتي وعملي لمؤلفه فورد » وقد نشرت الكتاب في دتروا جمعية نشر المعارف الفوردية . وتصفح الكتاب ببطء شديد ، وقرأ عبارة هنا وفقرة هناك ، وأوشك أن يقرر أن الكتاب لايشوقه . وعندئذ فُتح الباب ، ودب في الغرفة المراقب العالمي المقيم لغرب أوروبا

وصافح مصطفى مند ثلاثتهم ، ولكنه وجه الخطاب إلى الهمجي قائلاً : إذن أنت لاتفرم بالمدينة أيها الهمجي  
فالتفت إليه الهمجي ، وكان قد تاهب للكذب والهياج ، ولأن يلزم الصمت في



اكتتاب . غير أنه آثر الصدق والصراحة لما اطمأنت نفسه إلى الذكاء وروح الفكاهة الباديين في وجه المراقب فهز رأسه قائلاً : « كلا »

فزعزعر برنارد وأصابه الفزع . ماذا يظن المراقب ؟ وأزعجه أن تنسب إليه صداقة رجل قال إنه لا يحب المدنية . وقد صرح بذلك إلى المراقب دون الناس أجمعين ! وبدأ يقول : « ولكن يا جون . » غير أن نظرة من مصطفى مند أعادته إلى الصمت والهوان

واستمر الهمجي في اعترافاته قائلاً : هناك بالطبع أشياء جميلة جداً . فتلك الموسيقى التي تملأ الجو مثلاً . فأحياناً تطن في أذني آلاف الآلات الرنانة ، وأحياناً أخرى ترن فيهما الأصوات .

وتهمل وجه الهمجي بشراً وسروراً وسأل قائلاً : هل قرأته كذلك ؟ كنت أحسب أن هذا الكتاب لم يعرفه أحد في إنجلترا . فأجابه بقوله : « يكاد لا يعرفه أحد . وأنا أحد القلائل الذين يعلمون به . إنه محظور . ولكن بما أنني أسن القوانين هنا فأنا أستطيع كذلك أن أحرقها ، وذلك بغير عقوبة يا مستر ماركس » . والتفت إلى برنارد وقال له : وهذا ما لا تستطيعه أنت . فازداد برنارد شقاءً ويأساً

وسأل الهمجي قائلاً : « ولكن لماذا تحظرونه » . وقد ثارت أعصابه لأنه لاقى رجلاً قرأ شكسبير فنسي في تلك الآونة كل أمر آخر وهز المراقب كتفيه وقال : لأنه قديم . وذلك هو السبب الرئيسي . إننا هنا لاننتفع بالأشياء القديمة . حتى إن كانت جميلة ؟

وبخاصة إن كانت جميلة . فالجمال جذاب ، ونحن لانحب أن ينجذب الناس إلى الأشياء القديمة . إنما نريدهم أن يحبوا الأشياء الجديدة .

« لكن الأشياء الجديدة مملّة مزعجة كتلك المسرحيات التي لا ترى فيها سوى الطائرات المحلقة والتي « تحس » فيها بقبلات الناس » . وقطب جبينه عابساً ثم قال : « أولئك قردة وماعز ! » ولم يجد وسيلة كافية للتعبير عن كراهيته وازدرائه غير هذه الألفاظ التي تفوه بها عطيل

فتمتم المراقب مقاطعاً إياه وقال : هي على أي حال حيوانات أليفة جميلة . لماذا لا يشهدون « عطيلاً » بدلاً من ذلك ؟

قلت لك إنها قديمة . وهم - فوق ذلك - لا يفقهونها

نعم ذلك حق ، وتذكر كيف كان هلمهلز يسخر من « روميو وجوليت » وسكت فترة ثم قال : إذن فليشاهدوا شيئاً جديداً يشبه عطيلاً ، ويستطيعون إدراكه .

فرد عليه هلمهلتز وقد شق بقوله صمتاً طال أمده . قال : هذا ما أردنا جميعاً أن نكتب

وقال المراقب : وهذا لن تكتبوه قط ، لأنه لو كان فعلاً شبيهاً بعطيل فلن يفقه أحد مهما يكن جديداً . ولو كان جديداً فلا يمكن أن يشبه عطيلاً فقال هلمهلتز : « لماذا ؟ نعم لماذا ؟ » وقد نسي هو أيضاً حقيقة الموقف التي لاتسر ، ولم يذكرها غير برنارد وقد اخضر وجهه من القلق والخوف . وتجاهله الآخرون وكرروا سؤالهم : لماذا ؟

« لأن عالمنا يختلف عن عالم عطيل . إنك لاتستطيع أن تصنع السيارات الشعبية بغير صلب . ولن تستطيع أن تكتب المآسي بغير قلق اجتماعي . إن العالم اليوم مستقر ، والناس سعداء ، يظفرون بما يريدون ، ولا يريدون قط ما لا يستطيعون الظفر به . إنهم أغنياء ، آمنون ، لا يمرضون قط ولا يخشون الموت ينعمون بجهلهم العواطف والشيخوخة ، لا يُرزؤون بالأمهات والآباء ، ليست لهم زوجات ولا أطفال ولا عاشقون يحبونهم حباً جماً . وقد تكييفوا بحيث لايسعهم فعلاً إلا أن يسلكوا كما ينبغي لهم أن يفعلوا . وإذا ساء أمر من الأمور فهناك السوما التي قذفت بها من النافذة باسم الحرية أيها الهمجي » . ثم ضحك وقال : نعم الحرية! لقد كنت تحسب أن الدالات تعرف ما هي! والآن تريد أن يفقهوا « عطيلاً » يا بني العزيز!

وصمت الهمجي برهة وأصر على عناده وقال : ولكن « عطيلاً » - برغم ذلك . مسرحية جميلة . إنها خير من تلك الصور المحسة .

فوافقه المراقب قائلاً : بالطبع هي كذلك . ولكن ذلك هو الثمن الذي ندفعه في سبيل الاستقرار . ليس أمامك إلا أن تختار أحد أمرين : إما السعادة ، وإما ما تعود الناس أن يسموه الفن الرفيع ولقد ضحينا بالفن الرفيع . وعندنا بدلاً منه الصور المحسة وأرغن العطور . ولكنهما لايعنيان شيئاً

إنهما يعنيان نفسهما . ويعنيان للمنستمعين كثيراً من الإحساسات المستحبة .

ولكن الذي يرويهما أبله .

فضحك المراقب وقال : إنك لم تتأدب لصديقك يا مستر واطسن . أن أحد مهندسي العواطف البارزين عندنا .

فقال هلمهلتز مكتئباً : لكنه مصيب . إنك إن أردت تكتب وليس لديك ما تقول

بالضبط . ولكن ذلك يقتضي أشد المبقريات نبوغاً . إنك تصنع الطائرات

الشعبية بأدنى حد من الصلب . والقطع الفنية من لا شيء البتة سوى مجرد الإحساس .

فهو الهمجي رأسه وقال : إن ذلك كله يبدو لي غاية في الصناعة .  
- إنه بالطبع يبدو لك كذلك . لأن السعادة الحقيقية تبدو قدرة إذا قورنت بمضاعفة التعويض عن الشقاء . وليس الاستقرار بالطبع براقاً كعدم الاستقرار وليس في القناعة ما يبهز العين مثل النضال الشديد في وجه الكوارث ، وليس فيها ما يخطف البصر مثل مكافحة الإغراء ، أو الهزيمة القاضية أمام الشك والعاطفة . إن السعادة لا تكون عظيمة إطلاقاً

فصمت الهمجي برهة ثم قال : أظن ذلك ، ولكن لابد أن تبلغ من سوء مبلغ هؤلاء التوائم . ثم فرك يده فوق عينيه كأنه يحاول أن يزيل ذكرى صورة تلك الصفوف الطويلة من الأتزان المتشابهة ، عند المناضد المحتشدة ، تل القطعان من التوائم المتتابعة واحداً بعد الآخر عند مدخل محطة برنتفورد للقطار الذي يسير على قضيب واحد ، تلك الديدان البشرية المحتشدة حول فراش موت لندا ، ذلك الوجه المتكرر إلى ما لا نهاية من المعتدين عليه . ونظر إلى يسراه المضمدة فارتعد وقال : هذا مريع!

« لكنه نافع! إنني ألاحظ أنك لاتحب مجموعات بوكانوفسكي التي عندنا ، لكن أؤكد لك أنها الأساس الذي يقوم عليه كل شيء آخر . هي الميزان الذي يعمل على استقرار طائفة الدولة الصاروخية ويسيرها في طريق مستقيم » . هذا ما أجاب به مصطفى مند بصوته العميق المذبذب الأجنس ، وهو يلوح بيده ممثلاً بها الفضاء الذي تخمر عيابه الطائفة وقوة اندفاعها التي لاتقاوم . وكادت فصاحته أن تبلغ حدود الفصاحة الصناعية .

فقال الهمجي : كنت أتعجب لماذا تبكون عليهم بعد ما رأيتم أنكم تستطيعون الحصول على ما تشاقون من تلك القوارير . لماذا لاتصنمون الناس جميعاً من طراز (أ) وهم في دور التكوين ؟

فضحك مصطفى مند وأجاب بقوله : لأننا لاتحب أن نحز رقابنا . نحن نعتقد في السعادة والاستقرار وإذا كان المجتمع بأسره من طراز (أ) فلا يسعه إلا أن يكون عديم الاستقرار شقياً . تصور مصنعا كل عماله من (أ) . أي من أفراد منفصلين لا صلة بين أحدهم والآخر ، من سلالة طيبة ، وقد تكيفوا على القدرة (في حدود معينة) على الاختيار وعلى الاضطلاع بالتبعات . تصور ذلك!

وحاول الهمجي أن يتصور ، لكنه لم يفلح كل الفلاح  
فقال المراقب : « إنه عيب باطل . إن الرجل إذا أفرغ من القارورة على أنه من (أ) وإذا تكيف على طراز (أ) يجن إذا أرغم على أداء عمل (هـ) من أنصاف

المعتوهين . إما أن يجن وإما أن يشرع في تحطيم الأدوات . إن (الألفات) يمكن أن ينسجموا مع المجتمع كل الانسجام . ولكن على شريطة أن يقوموا بعمل (أ) . ولا يقوم بتفحيزات (هـ) إلا رجل من طراز (هـ) ، وذلك لسبب معقول وهو أنه لا يرى أنها تفحيزات . إنما هو العمل الذي يتطلب منه أسير مجهود . لقد مد له تكييفه قصباناً يسير عليها ، ولا يسهه إلا أن يتبعها . فقد قضى بذلك عليه . أنه حتى بعد التفرغ يبقى كأنه بداخل القارورة . قارورة لا تراها العين من مقتضيات الأطفال والأجنة» . وفكر المراقب قليلاً ثم قال : إن كلاً منا بالطبع يسير في حياته وكأنه بداخل قارورة . فإن كان من (أ) فإن القارورة تكون ضخمة نسبياً . فيعاني المأ مضاً إذا هو انحصر في حيز ضيق . إنك لاتستطيع أن تصب الشمبانيا الجديدة للطبقات العليا في قوارير الطبقات السفلى . وهذا جلي من الناحية النظرية ، وقد ثبتت صحته كذلك من الناحية العملية الواقعية . وقد كانت نتيجة تجربة قبرص جذّة مقنعة

فسأله الهمجي ، وما تلك ؟

فابتسم مصطفى مند وقال : تستطيع إن شئت أن تسميها تجربة في إعادة الحفظ في القوارير . وكان بدؤها في عام ١٩٧٣ بعد فورد . في ذلك التاريخ أبعاد المراقبون عن قبرص كل سكانها الأحياء ، وأعادوا تعميرها بطائفة من اثنين وعشرين ألفاً من طراز (أ) أعدوا إعداداً خاصاً . وسلمت لهم كل المعدات الزراعية والصناعية ، وتركوا لإدارة شؤونهم بأنفسهم . فحققت النتيجة كل النبوءات النظرية بتمامها . فلم تفلح الأرض فلاحه صحيحة ، وعم الإضراب جميع المصانع ، ولم تراع القوانين وعصيت الأوامر . وأخذ كل امرئ خُص بعمل وضيع يدبر الدسائس بغير انقطاع كي يصل إلى الوظائف العليا . ولم يفتأ أصحاب الوظائف العليا يدبرون الدسائس المضادة مهما كلفهم ذلك كي يبقوا في مراكزهم . فاشتعلت بينهم في أقل من ست سنوات حرب أهلية من الدرجة الأولى . وبعدما فني تسعة عشر من اثنين وعشرين ألفاً ، تقدم الأحياء الباقون إلى المراقبين العالميين بطلب إجماعي يلتمسون منهم استئناف حكم الجزيرة . فلبى المراقبون الطلب . وكانت تلك نهاية جماعة (الألفات) الوحيدة التي شهدا العالم

فتنهذ الهمجي تنهذاً عميقاً

ثم قال مصطفى مند : إن السكان الملائمين يصاغون على نسق الجبل الجليدي . تسعة أعشار تحت سطح الماء ، والعشر فوقه . وهل هم سعداء تحت سطح الماء ؟

أسعد منهم فوقه . أسعد من أصدقائك الذين تراهم هنا مثلاً . وقد أشار

إليهم

برغم ذلك العمل المريع ؟

« مريع ؟ أنهم لا يجدونه كذلك . بل إنهم . على العكس من ذلك . ليحبونه إنه خفيف ، وسهل كعمل الأطفال لا يجهد العقل أو العضل . سبع ساعات ونصف في عمل خفيف لا ينهك . يعقبها مقرر السوما والألعاب والتناكح بغير قيد ودور الصور المحسة . ماذا يريدون أكثر من ذلك ؟ » ثم قال : « نعم إنهم قد يطلبون ساعات أقل ، ونستطيع بالطبع أن نعطيههم ذلك . ومن اليسير جداً . من الناحية الفنية . أن نقلل ساعات العمل لجميع أبناء الطبقات الدنيا إلى ثلاث أو أربع كل يوم ولكن هل تزيد بذلك سعادتهم ؟ كلا . وقد أجريت التجربة منذ أكثر من قرن ونصف . فإن كل سكان إيرلنده كانوا يعملون أربع ساعات في اليوم الواحد . فماذا كانت النتيجة ؟ القلق وزيادة استهلاك السوما زيادة عظيمة . ذلك كل ما حدث وكانت الساعات الثلاث والنصف التي انضمت إلى أوقات الفراغ أبعد من أن تكون مصدراً للسعادة ، حتى وجد الناس أنفسهم مضطرين إلى الاستئجاز منها . ومكتب المخترعات مفعم بالخطط التي يمكن أن تتبع لتوفير العمل . وهناك الألوف منها » وأشار مصطفى مند بيده إشارة عنيقة ثم قال : ولماذا لانضعها موضع التنفيذ ؟ من أجل العمال أنفسهم . فإن إصابتهم بزيادة الفراغ قسوة شديدة . وكذلك الأمر في الزراعة . إننا نستطيع أن نصنع كل لقمة من الطعام إن أردنا . ولكننا لانفعل ، فنحن نؤثر أن نُبقي ثلث السكان في الأرض . وذلك لمصلحتهم . لأن استخراج الطعام من الأرض يستغرق وقتاً أطول من استخراجه في المصنع . ثم عندنا فوق ذلك الاستقرار الذي لا بد لنا من مراعاته . أننا لانحب التغيير ، فإن كل تغيير يهدد الاستقرار وذلك سبب آخر يحفزنا على الحرص عند تطبيق المخترعات الحديثة . فإن كل اكتشاف جديد في العلوم البحتة يحتمل أن يكون هداماً . فالعلم نفسه لا بد أن يُعالج أحياناً على أنه قد يكون عدواً للناس . نعم حتى العلم

العلم ؟ هنا قطب الهمجي جبينه ، فقد كان يعرف هذه الكلمة ، ولكنه لم يعرف مدلولها بالضبط . إن شيكسبير وشيوخ القرية لم يذكروا العلم قط ، ولم يفهم من لندا سوى إشارات عنه غامضة : العلم شيء ، تصنع منه الطائرات ، شيء ، يُضحك المرء في رقصات الخنطة ، شيء ، يحفظك من التعفن ومن فقدان الأسنان . وبذل جهد اليائس كي يدرك ما رمى إليه المراقب

وكان مصطفى منذ يقول : نعم ذلك شرط آخر من شروط الاستقرار . ليس الفن وحده هو الذي لا يتفق والسعادة ، إنما العلم كذلك . إنه خطر ، ولا بد لنا من سلسلته وتكميمه بحرص شديد

فقال لهملتهز في دهشة جديدة : ماذا ؟ ولكننا نقول دائماً إن العلم هو كل شيء . .وتلك حقيقة إيحانية معروفة

فقال برنارد ، ثلاث مرات كل أسبوع فيما بين الثالثة عشرة والسابعة عشرة .  
وكل تلك الدعاية التي ندعوها للعلم في الكلية .

فسأله مصطفى مند متهمكاً . قال : « نعم ، ولكن أي نوع من أنواع العلم ؟  
إنك لم تدرب تدريباً علمياً ، لذلك فأنت لاتستطيع أن تحكم . لقد كنت غلاماً طبيعياً  
مجيداً في زماني كنت مجيداً إلى حد أنني أدركت أن علمنا كله ليس إلا بمنزلة  
كتاب في الطهو يحتوي على نظرية تقليدية في الطهو ليس لأحد أن يناقشها ،  
وعنى قائمة من الأوصاف التي لايجوز الإضافة عليها إلا بإذن خاص من كبير  
الطهاة . وأنا الآن كبيرهم . ولكنني كنت من قبل مساعداً شاباً للطاهي كثير  
السؤال . ثم بدأت أطهو وحدي طهواً غير تقليدي ولا مشروع . أو قل إنني في الواقع  
مارست العلم الحق قليلاً » . ثم سكت عن الكلام .

وسأله هلمهلتز واطسن قائلاً : وما الذي حدث ؟

فتنهذ المراقب وقال : حدث ما سوف يحدث لكم تقريباً أيها الشبان  
أوشكت أن أنفي إلى إحدى الجزر

وهزت هذه الكلمات برنارد هزة عنيفة فتحرك حركة قوية لاتليق بالمقام  
وقال : « هل تنفونني في إحدى الجزر ؟ » ووثب من مكانه وعبر الغرفة عدواً ، ثم  
وقف أمام المراقب ملوحاً بيديه وقال : « إنكم لاتستطيعون إبعادي . إنني لم أفعل  
شيئاً . إنما هما الآخران . وأقسم إنهما هما » . وأشار إلى هلمهلتز والهجمي متهماً  
إياهما وقال : « أرجو ألا تبعث بي إلى إيسلنده . وأعدك أن أفعل ما ينبغي  
أعطني فرصة أخرى . أرجو أن تهئ لي فرصة أخرى » . وانهمر الدمع من عينيه ،  
ثم قال وهو يجيش بالبكاء : « أؤكد لك أنه خطأها . لاتبعدني في إيسلنده .  
أتوسل إلي سيادتك ، وأرجو . » وأصابته نوبة من الشعور بالذلة فارتمى على  
ركبتيه أمام المراقب . وحاول مصطفى مند أن ينهضه ، ولكن برنارد أصر على  
تذله ، وتدفق منه تيار جارف من الكلام ، فاضطر المراقب في نهاية الأمر إلى أن  
يدق الجرس مستدعياً سكرتيه الرابع

وأمره قائلاً ، أحضر ثلاثة رجال وخذ المستر ماركس إلى حجرة للنوم ، واعطه  
كمية كافية من بخار السوما ثم ضعه فوق السرير واتركه وحده

وخرج السكرتير الثالث ثم عاد بثلاثة من مشاة التوائم يرتدون الزي  
الأخضر . وحمل برنارد إلى الخارج وهو لايزال يصيح ويبيكي

وقال المراقب عندما كان الباب يغلق : إن الرائي يحسب أنه سوف يقتل ، في  
حين أنه . لو كان لديه ذرة من عقل . كان يجب أن يدرك أن عقوبته هي في حقيقتها  
مكافأة حسنة . إنه مبعوث إلى جزيرة ، أي إنه مبعوث إلى مكان يلتقي فيه مع أمتع  
من تجدد في هذا العالم من رجال ونساء . كل من أحس بفرديته لسبب ما إلى حد

أنه لم يستطع أن ينسجم مع حياة الجماعة ، كل من لم يرض بالتقاليد ، ومن كانت له آراء مستقلة خاصة . أو بعبارة أخرى كل فرد له شخصية خاصة . إني لأعجبك يا مستر واطسن

فضحك هلمهلتز وقال : « وإذن فلماذا لاتقطن أنت إحدى الجزائر ؟ »

فأجابه المراقب قائلاً : « لأنني آثرت ذلك في النهاية . خُيرت بين أن أبعث إلى جزيرة ما ، حيث كنت أستطيع أن أواصل علمي البحتة ، أو أن أنضم إلى مجلس المراقبين مع الأمل في أن اشغل وظيفة المراقب ، في الوقت الملائم . فاخترت ذلك ونزلت عن العلوم . وصمت برهة ثم قال : « واني لأشعر أحياناً بالأسف على العلوم فإن السعادة سيد شديد القسوة . وبخاصة سعادة الآخرين . إنها أشد من الحقيقة قسوة إذا لم يكيف المرء على قبولها بغير سؤال . ثم تنهد ، وعاد إلى صمته ، ثم استمر في حديثه بنغمة مرتفعة . قال : « ولكن الواجب هو الواجب . ولايستطيع المرء أن يتبع الطريق التي يؤثرها . إنني أهتم بالحقيقة وأغرم بالعلم . لكن الحقيقة تهدد العالم ، والعلم خطر على الجمهور . وخطره لا يقلل عن نفعه . لقد أعطانا أكثر ما عرف في التاريخ من الاستقرار المتزن . إن استقرار الصين بالنسبة إليه عديم الطمأنينة . بل إن الجماعات الأموية البدائية لم تكن أشد منا ثباتاً . وأقول مرة أخرى إن الفضل في ذلك يرجع إلى العلوم . لكننا لانستطيع أن نسمح للعلم بأن يفسد بنفسه عمله الطيب . ولذا فنحن نحدد مجال بحثه بحرص شديد ، ومن ثم أوشكت أن أنفي إلى إحدى الجزائر . إننا لانسمح للعلم أن يعالج غير المشاكل المباشرة في اللحظة الراهنة . أما ما عدا ذلك من بحوث فإنها تقاوم بكل شدة » وسكت لحظة ثم قال : « واني لأعجب حين أقرأ ما كان الناس في عهد فورد يكتبون عن التقدم العلمي . يظهر أنهم تصوروا أنه يمكن أن يسير إلى ما لانهاية بغض النظر عن كل شيء آخر . كانت المعرفة هي الخير كل الخير ، وكانت للحقيقة أعلى القيم وكل ما عدا ذلك ثانوي قليل الأهمية . نعم إن الآراء قد بدأت تتغير حتى في ذلك الحين . وبذل فورد بنفسه جهداً كبيراً في نقل الاهتمام من الحق والجمال إلى الراحة والسعادة . واقتضى الإنتاج الكبير هذا الانتقال . إن السعادة العامة تجعل العجلات دائمة الدوران . أما الحق والجمال فلا يستطيعان . وبالطبع كلما استولت الجماهير على السلطة السياسية كانت بالسعادة أكثر اهتماماً منها بالحق والجمال . ومع ذلك بقي البحث العلمي المطلق مصححاً به بالرغم من كل شيء . وما برح الناس يتكلمون عن الحق والجمال كأنهما أعظم الخير . وبقي الأمر كذلك حتى حرب السنوات التسع . عندئذ استبدلوا بالنغمة القديمة نغمة جديدة . ما الفائدة من الحق والجمال أو المعرفة إذا كانت القنابل المحرقة تفرق حولك من جميع الجهات ؟ وكان ذلك بدء السيطرة على العلم . بعد حرب السنوات التسع . حينئذ استعد الناس

لقبول السيطرة حتى على شهواتهم . وبذلوا كل نفيس في سبيل الحياة الهادئة ومن ذلك التاريخ لم نفتقر عن السيطرة على كل شيء . ولم يكن ذلك بالطبع في مصلحة الحق ، ولكنه كان في مصلحة السعادة . إنك لا تحصل على شيء بغير مقابل فكان لا بد من دفع الثمن للسعادة . وأنت نفسك تدفع ثمنها يا مستر واطسن . تدفع ثمنها لأنك تهتم بالجمال . وكنت شديد الاهتمام بالحق فساهمت في دفع الثمن

وخرج الهمجي عن صمت طويل وقال : ولكنك لم تذهب إلى إحدى الجزر فابتسم المراقب وقال « هكذا دفعت الثمن باختياري أن أخدم السعادة أقصد سعادة الآخرين . لا سعادتي » . وسكت برهة ثم قال : ومن حسن الحظ أن في العالم كثيراً من الجزر . ولست أدري ماذا نصنع لو لم تكن . أحسب أنا كنا نضعكم جميعاً في غرفة الموت . وبهذه المناسبة هل تحب جو المناطق الحارة يا مستر واطسن ؟ هل تحب جو ماركيزاز - مثلاً . أو ساموا ؟ أم هل تحب جوأ أشد من هذا إنعاشاً ؟

فأجاب هلمهلتز وقد نهض من مقعده الهوائي قائلاً : إنني أحب أسوأ أنواع الجو ، لأنني أعتقد أن المرء يحسن الكتابة إذا ساء الجو . وإذا كان هناك - مثلاً - كثير من العواصف والأنواء

فأوماً المراقب بالموافقة وقال : « إنني أحب فيك هذه الروح يا مستر واطسن أحبها حباً جماً . أحبها بمقدار ما أنكرها بحكم وظيفتي . ثم ابتسم وقال : ما رأيك في جزائر فوكلند ؟

فأجاب هلمهلتز بقوله : أظنها ملائمة . والآن هل تسمح لي أن أذهب إلى برنارد المسكين كي أرقب تقدمه ؟



## الفصل السابع عشر

ولما اختلى الهمجي والمراقب قال له : الفن والعلم . الظاهر أنكم دفعتم ثمناً  
عالياً جداً لسعادتكم . وهل هناك شيء آخر ؟  
فأجابه المراقب : نعم . الدين بالطبع . لقد كان هناك شيء اسمه الله قبل  
حرب السنوات التسع . وقد نسيت أن أذكر لك ذلك ، وأظنك تعرف كل شيء عن  
الله

فتردد الهمجي في الإجابة . وأحب أن يقول شيئاً عن العزلة وعن الليل وعن  
الهضبة وقد شحب لونها في ضوء القمر ، وعن حافة الهضبة الرأسية ، وعن  
الانغماس في الظلام الحالك ، وعن الموت . أراد الهمجي أن يتكلم ، ولكنه كان  
يفتقر إلى اللفظ . ولم يجده حتى عند شيكسبير

وفي تلك الأثناء عبر المراقب الغرفة إلى جانبها الآخر وأخذ يفيض مغاليق خزانة  
ضخمة أودعت في الحائط بين رفوف الكتب . وبعد ما انفتح بابها الثقيل أخذ يعث  
في ظلامها الداخلي ثم قال : « إنه موضوع كثيراً ما كان يشوقني » . ثم أخرج  
مجلداً غليظاً أسود اللون وقال : إنك - مثلاً - لم تقرأ هذا  
فتناوله الهمجي وقرأ عنوانه : « الكتاب المقدس ، ويحتوي على العهد القديم  
والعهد الجديد »

« ولا هذا » . وكان كتاباً صغيراً ضاع غلافه

« الاقتداء بالمسيح »

« ولا هذا » . وناوله مجلداً آخر عنوانه : « التجارب الدينية المختلفة » لمؤلفه

وليم جيمس

وعاد مصطفى مند إلى مقعده واستمر يقول : « عندي كثير غير ذلك .  
مجموعة كاملة من كتب الأدب الداعر . إن كتب الله في الخزانة ، وكتب فورد فوق  
الرفوف » . وأشار وهو يضحك إلى مكتبته التي نوه عنها . إلى رفوف الكتب ،  
والميون المليئة باسطوانات آلات القراءة وبلغائف الآثار الصوتية .  
وسأله الهمجي محنقاً . قال : ولكن إن كنت تعرف الله فلماذا لاتخبرهم به ،  
ولماذا لاتعطيههم هذه الكتب التي كتبت عنه .  
وللسبب نفسه الذي لانعطيههم من أجله « عطيلاً » ، هي كتب قديمة . وهي  
عن الإله منذ مئات السنين ، وليست عن إله اليوم .

ولكن الله لا يتغير

غير أن الرجال يتغيرون

وكيف تتغير الحقيقة بذلك

قال مصطفى مند : « إنها تتغير كل التغيير » . ثم نهض ثانية وسار نحو  
الخزانة وقال : « كان هناك رجل اسمه الكاردنال نيومان » . ثم صاح مقاطعاً نفسه  
قائلاً : « والكاردنال هو رجل يشبه في عمله كبير المنشدين  
لقد قرأت عنهم في شيكسبير ، فقد جاء فيه « إنا باندلف كاردنال ميلان  
الجميلة »

« بالطبع لقد قرأت . كنت أقول إنه كان هناك رجل اسمه الكاردنال نيومان  
وهاهو ذا الكتاب » . وأخرجه ، ثم قال : « ولأخرج هذا أيضاً فهو قريب منه . إنه من  
وضع رجل اسمه مين دي بيران كان فيلسوفاً ، إن كنت تفهم ما أقصد بهذا  
اللفظ .

فأجابه الهمجي على الفور : تقصد رجلاً يحلم بأشياء أقل مما يوجد في الأرض  
والسماء

« بالضبط ، وسوف أقرأ لك أحد الأشياء التي حلم بها في إحدى اللحظات .  
أما الآن فانصت إلى ما قال هذا المنشد الكبير » . وفتح الكتاب عند الصفحة التي  
أشير إليها بشرط من الورق وقرأ ما يلي : « «إننا لامتلك أنفسنا أكثر مما نملك ما  
بأيدينا . إننا لم نخلق أنفسنا ، ولانستطيع أن نعلو على أنفسنا لسنا سادة على  
أنفسنا . نحن ملك لله . أليست سعادتنا إذن في هذه النظرة إلى الموضوع ؟ هل  
نسعد أو نطمئن إذا ظننا أننا ملك لأنفسنا ؟ قد يحسب ذلك الشباب والمترفون  
قد يظن هؤلاء أن تسيير الأمور على هواهم . دون الاعتماد على أحد . أمر عظيم ،  
فلا يفكرون في شيء بعيد عن الأنظار ، ويخلصون من مشقة الاعتراف الدائم ،  
والصلاة المتصلة ، ونسبة أعمالهم دائماً إلى إرادة غير إرادتهم . ولكن كلما تقدم  
الزمن أدركوا . كما أدرك الرجال الآخرون جميعاً . أن الاستقلال لم يخلق للإنسان ،

وأنة حالة غير طبيعية ، وأنه قد يغنيانا فترة من الزمن ، ولكنه لن يحملنا آمين حتى النهاية . » وسكت مصطفى مند لحظة ، وألقى الكتاب الأول والتقط الآخر وأخذ يقلب صفحاته ، ثم قال : « إن الإنسان يتقدم في السن ، ويحس في نفسه إحساساً قوياً بالضعف ، والفتور ، والقلق ، وهي إحساسات تلازم تقدم العمر . ولما كان هذا هو شعور الإنسان فهو يتصور أن به علة من العلل ، ويخفف عن نفسه جزءها باعتقاده أن هذه الحالة التي سببت له الضيق ترجع إلى سبب خاص يأمل أن يشفى منه كما يشفى من أي مرض من الأمراض . ذلك وهم باطل ! تلك العلة هي الشيخوخة ، وهي علة شنيعة . يقولون إن الخوف من الموت وما يأتي بعد الموت هو الذي يحول الناس إلى الدين كلما تقدمت بهم السن . ولكن تجربتي الخاصة أقتعتني أن العاطفة الدينية - بغض النظر عن هذه المخاوف والأوهام - تنمو في الإنسان كلما تقدمت به السن . وهي تنمو لأن الميول القوية تهدأ ، والخيال والاحساسات تقل حدتها وتضعف قابليتها للتهيج ، ويقل اضطراب العقل وما يخيم فوقه من أوهام ورغبات وأسباب للهو يهيم فيها . حينئذ يبرز الله وكأنه يخرج من خلف سحابة وتحس الروح وترى وتحول نحو مصدر النور كله تحولاً طبيعياً لا مفر لها منه وذلك لأن كل ما كان يعطي الحياة والسحر لعالم الاحساسات بدأ يقلب منا ، ولأن الوجود الظاهري لم يعد يستند إلى الآثار الباطنة والظاهرة ، فنحس بالحاجة إلى الاعتماد على شيء ثابت لا يخدعنا - على حقيقة واقعة ، أو حق مطلق دائم . نعم لا مفر لنا من التحول نحو الله . لأن هذه العاطفة الدينية بطبيعتها صافية تسر الروح التي تحس بها ، فهي تعوضنا كل ما خسرنه » . وأغلق مصطفى مند الكتاب ثم استند "إن من الأشياء العديدة في الأرض والسمااء التي لم يحلم بها هؤلاء الفلاسفة هو هذا (ولوح بيديه) ، هو نحن ، أو العالم الحديث" . لقد قيل : « إنك » لاتستقل عن الله إلا إن كان لديك راحة وشباب . ولكن الاستقلال لا يحملك بأمان حتى النهاية » . ونحن الآن نتمتع بأسباب الراحة والشباب حتى النهاية . فماذا يتبع ذلك ؟ الاستقلال عن الله من غير شك . وقيل : « إن العاطفة الدينية تعوضنا كل ما خسرنه » . وليست لدينا خسائر نعوضها . فالعاطفة الدينية إذن نافلة من النوافل ولماذا نتصيد عوضاً عن رغبات الشباب ، إذا كانت رغبات الشباب لاتفتر قط ؟ وعوضاً عن المسليات ، إذا كنا لانقطع عن التمتع بالسخافات القديمة حتى النفس الأخير ؟ ما حاجتنا إلى الراحة إذا كانت عقولنا وأبداننا تستمر في تمتعها بالنشاط ؟ وما حاجتنا إلى السلوى وعندنا السوما ؟ وإلى شيء ثابت وعندنا النظام الاجتماعي ؟

إذا فأنت تعتقد أن ليس هناك إله ؟

كلا . أظن أنه يحتمل أن يكون هناك إله

. إذن فلماذا ؟ .

فأسكته مصطفى مند قائلاً : لكنه يظهر على صور مختلفة لمختلف الرجال  
كان يظهر في الأزمنة السابقة للعصر الحديث ذلك الكائن الموصوف في هذه الكتب  
أما الآن .

فسأله الهمجي كيف يظهر نفسه الآن ؟  
- إنه يظهر كأنه غائب ، أو كأن لا وجود له البتة  
- هذا خطأكم

- بل قل إنه خطأ المدنية . إن الله لا يتفق والآلات والطب العلمي والسعادة  
العالمية . ولا بد من الاختيار ، وقد اختارت حضارتنا الآلات والطب والسعادة . لذا  
أراني مضطراً إلى الاحتفاظ بهذه الكتب في خزانة موصدة . إنها بذينة ، ويصدم  
الناس لو

فقاطعه الهمجي قائلاً : ولكن أليس من الطبيعي أن يشعر المرء بوجود الله ؟  
فقال المراقب متهمكماً : كأنك تقول أليس طبيعياً أن يزر المرء سراويله  
بالمشبك . إنك تذكرني برجل آخر من أولئك القدامى اسمه برادلي إنه عرف  
الفلسفة بأنها التعليل السيئ لما يعتقد المرء بالفريضة . كان المرء يعتقد في أي شيء  
بالفريضة إن المرء يعتقد في الأشياء لأنه تكيف على الاعتقاد فيها إنما الفلسفة هي  
التعليل السيئ لما يعتقد المرء لأسباب أخرى سيئة . إن الناس يعتقدون في الله لأنهم  
تكيفوا على العقيدة فيه

فأصر الهمجي على رأيه وقال : ولكن بالرغم من ذلك ، أرى أنه من الطبيعي  
أن يعتقد المرء في الله أثناء الوحدة . الوحدة المطلقة ، في ظلمة الليل ، وهو يفكر  
في الموت

فأجاب مصطفى مند بقوله : ولكن الناس لا يكونون اليوم قط في وحدة . إننا  
نجعلهم يقيمون العزلة ، ونرتب حياتهم حتى يكاد يستحيل عليهم أن يجدوها  
فأوما الهمجي برأسه مكتئباً . وتذكر أنه عانى كثيراً في مالي لأنهم أقصوه  
عن نشاط أهل القرية الاجتماعي ، وأنه عانى في لندن كثيراً لأنه لم يستطع أن يفر  
من ذلك النشاط الاجتماعي ، ولم يهدأ وحده لحظة

وقال الهمجي في النهاية : هل تذكر هذه الأسطر التي جاءت في رواية « الملك  
لير » : « إن الآلهة عادلة . فهي تجعل من رذائلنا الممتعة أداة لبلاننا . إن ذلك  
المكان المظلم المرذول الذي أتى بك فيه قد كلفه عينيه »<sup>(١)</sup> . وتذكر أن آدمند أجاب  
على ذلك وهو جريح في نزع الموت بقوله : « لقد أصبت القول . هذا حق . ولقد  
دارت العجلة دورة كاملة ، وهأنذا هنا » . فماذا حدث في هذا اليوم ؟ أليس يبدو

(١) في رواية « الملك لير » لشكسبير أنجب جنوستر ولداً اسمه آدمند عن طريق الزنا . فكانت عقوبته الطبيعية فقدان بصره .

أن هناك إلهاً يدبر الأمور ، ويجزي بالعقوبة والثواب ؟

فكرر المراقب السؤال نفسه وقال : أليس يبدو ذلك ؟ إنك تستطيع أن تنغمس فيما شئت من رذائل ممتعة مع الخناث ، دون أن تفقأ عينيك ربة ابنك « لقد دارت العجلة دورة كاملة . وهأنذا هنا » . ولكن أين يكون آدمند في هذه الأيام ؟ جالساً في مقعد هوائي مطوقاً بذراعه خصر فتاة ، يلوك لبان الهرمونات الجنسية ويشاهد الصور المحسة . لاشك أن الآلهة عادلة . غير أن الأفراد الذين ينظمون الجماعة هم الذين يملون القوانين في نهاية الأمر . إن العناية الإلهية تأخذ سرها من الناس فسألته الهمجي : وهل أنت واثق أن عقوبة آدمند وهو في ذلك الكرسي الوثير ليست أقل صرامة عنها وهو جريح يدمى حتى المصات ؟ إن الآلهة عادلة . أقلاً تستخدم رذائله الممتعة أداة للحط من شأنه ؟

. تحطه من أي مكانة ؟ مادام مواطناً سعيداً ، مجداً ، مستهلكاً للسلع فهو إنسان كامل . غير أنك بالطبع إن اخترت معياراً آخر غير الذي نقيس به فقد تحكم عليه بالانحطاط . ولكن ينبغي لك أن تلزم مجموعة واحدة من الفروض . إنك لا تستطيع أن تلعب الجولف الكهربى الممقطس على قواعد التنس الطارد قال الهمجي : ولكن القيمة لا تنحصر في إرادة معينة . إنها تحفظ للظافر قدره وكرامته إذا كانت ثمينة في حد ذاتها أو ثمينة من الظافر من نفسه فاحتج عليه مصطفى مند قائلاً : مهلاً ، مهلاً . لقد بعدنا عن الموضوع كثيراً أليس كذلك ؟

. إذا سمحتم لأنفسكم بالتفكير في الله لم تسمحوا لأنفسكم بالانحطاط بسبب الرذائل الممتعة . إنكم سوف تجدون سبباً لتحمل الأرزاء صابرين ، وللإقدام على العمل بشجاعة . وقد لاحظت ذلك عند الهنود

فقال مصطفى مند : أنا واثق من أنك لاحظت ذلك ، ولكننا لسنا بالهنود وليست بالرجل المتحضر حاجة إلى أن يتحمل أمراً يضايقه مضايقة شديدة . أما عن أداء العمل . فلإننا نرجو فوراً ألا تتطرق هذه الفكرة إلى رأسه (رأس الرجل المتحضر) فلو أن الناس سيعملون ما تهوى نفوسهم لاضطرب النظام الاجتماعى بأسره

. وماذا ترى في إنكار الذات لو كان لديكم إله لوجدتم سبباً لانكار الذات . لكن المدنية الصناعية لاتقوم إلا إذا انعدم إنكار الذات . لابد من الانغماس في شهوات النفس إلى أقصى حد تفرضه قواعد الصحة والاقتصاد ، وإلا توقفت العجلات عن الدوران

فقال الهمجي : « وسوف تجدون سبباً للعفة » وقد شعر بشيء من الخجل وهو ينطق بهذه الكلمات .

لكن العفة معناها حدة العاطفة . ومعناها النورستاني . والعاطفة والنورستاني  
معناها عدم الاستقرار . وعدم الاستقرار معناه القضاء على الحضارة ؛ لا بد للحضارة  
الدائمة من كثير من الرذائل الممتعة .

لكن الله هو السبب في كل ما هو نبيل وجميل وباسل . لو كان لديك  
إله .

فقال مصطفى مند : صديقي الشاب العزيز . إن الحضارة ليست قط بحاجة إلى  
النبل أو البساطة . إنما هذه الأشياء من أعراض المعجز السياسي . أما في الجماعة  
المنظمة تنظيماً صحيحاً . كجماعتنا . فإن الفرصة لا تتاح للمرء لكي يكون نبلاً أو  
باسلاً . لا بد أن تضطرب الظروف كل الاضطراب إذا كان لا بد من توفر المناسبات  
لذلك . إن من الجلي أن النبل والبساطة لهما مغزاهما في مجتمع يضطرب بالحروب ،  
وينقسم إلى ولايات ، به أسباب للإغراء لا بد من مقاومتها ، وأشياء عزيزة يحارب  
المرء من أجلها ويدافع عنها . ولكن ليست هناك في الوقت الحاضر حروب . ونحن  
نحرص أشد الحرص ألا يفالي المرء في حب شخص ما . ولا ينقسم العالم إلى  
ولايات . وكل امرئ كيف على عدم القدرة على التخلص عما ينبغي له أن يفعل .  
وما ينبغي لك عمله سار جداً . وكثير من الدوافع الطبيعية تجد لها متنفساً ومخرجاً ،  
فلم تبق هناك حقاً أسباب للإغراء على المرء أن يقاومها . وإذا حدث . بالمصادفة  
العمياء . أمر لا يسر ، فهناك السوما دائماً تعطيك إجازة من الحقائق . وهناك السوما  
دائماً تهدئك من ثائرة الغضب ، وتوفق بينك وبين أعدائك . وتجعلك صبوراً شديد  
التحمل . كان الإنسان في الماضي لا يستطيع أن يحقق هذه الأشياء إلا بالجد الشاق  
وبعد سنوات من التدريب الحثيث العسير . أما الآن فما عليك إلا أن تبلى قرصين أو  
ثلاثة زنة الواحد منها نصف جرام فينتهي كل شيء . يستطيع كل امرئ اليوم أن  
يكون فاضلاً ، ويستطيع أن يحمل على الأهل فصل أخلاقه الطيبة في زجاجة .  
المسيحية بغير دموع ، تلك هي السوما

ولكن الدموع ضرورة لازمة . ألسنت تذكر قول عليل « إذا كانت كل عاصفة  
يمقبها هذا الهدوء ، فمرحبا بالرياح تهب حتى توقظ الموتى » . وقد اعتاد أحد  
شيوخ الهند أن يقص علينا قصة عن فتاة متساكي . قال إن الشبان الذين أرادوا  
الزواج منها كان عليهم أن يضربوا في الحديقة بالفأس صياحاً كاملاً . وقد تحسب  
ذلك يسيراً ، ولكن أذكر أنه كان هناك ذباب ويعوض وسحرة . وأكثر الشبان لم  
يستطيع أن يحتمل العض واللدغ . ومن استطاع قله الفتاة  
فقال المراقب « هذا شيء قاتل . الكتك في البلدان المتحضرة تستطيع أن تحصل  
على البنات دون أن تضرب لهن الحقائق بالفؤوس ، وليس هناك ذباب أو يعوض  
يلدغك . فقد تخلصنا منها جميعاً منذ قرون

فأوما الهمجي برأسه مقطباً الجبين وقال : نعم لقد تخلصتم منها . وهذا شأنكم . في كل شيء . تتخلصون من كل ما لايسر بدلاً من أن تتعلموا احتماله . وسواء كان خيراً للمرء أن يتحمل الحظ العاثر بنشابه وسهامه ، أو أن يتسلح ضد عواصف المشقات فيقتضي عليها بمعارضتها . ولكنكم لاتفعلون هذا ولا ذاك . ولاتعانون ولاتعارضون . إنكم تكثفون بإلغاء الشباب والسهام . وما أيسر ذلك .

وسكت عن الكلام بغتة وفكر في أمه . وقد كانت لندا في غرفتها في الطابق السابع والثلاثين تسبح في بحر من الأضواء المغنية والتدليك المعطر . ثم اختفت من المكان والزمان ، ومن سجن ذكرياتها وعاداتها وجسمها المسن المترهل . ومازال توماكين المدير السابق لمعامل التفریح والتكيف في عطلة من الإذلال والألم ، في عالم لا يستطيع أن يسمع فيه تلك الكلمات ، وذلك الضحك الساخر ، ولا يستطيع أن يرى ذلك الوجه القبيح ، ولا يستطيع أن يحس فيه بتلك الأذرع المبتلة المترهلة تطوق جيده ، كان في عالم جميل

واستمر الهمجي يقول : إن ما تحتاجون إليه هو شيء يستدر الدموع تغيرون به هذه الحال . لست أرى شيئاً هنا له قيمة تذكر

وكان هنري فستر قد احتج على الهمجي حينما ذكر له ذلك وقال : اثنا عشر مليوناً ونصف من الريالات ، هذه هي تكاليف مركز التكيف الجديد ، ولاتقل عن ذلك فلساً واحداً

ثم سأل مصطفى مند موجهاً نحوه بصره . قال : « عرضوا كل ما هو فان غير أكيد لكل ما يستطيعه الحظ والموت والخطر ، حتى لو ظفرتم بقشر بيضة واحدة أليس في هذا مغزى ؟ » ثم قال : بغض النظر عن الله . وأن يكن الإله بالطبع يكفي سبباً لذلك . أليس للحياة الخطرة معنى ؟

فأجاب المراقب بقوله : إن لها معنى عظيماً . لاهد من تنبيه الغدد التي فوق الكلى عند الرجال والنساء من آن لآخر فلم يفقه الهمجي قوله وقال : ماذا ؟

ذلك أحد شروط الصحة الكاملة . ومن أجل ذلك جعلنا علاج ال ع ع . ج إجبارياً

ع ع . ج ؟

العاطفة العنيفة الجديدة . مرة كل شهر باطراد . نفمر الجهاز كله بالأدرنين وذلك مقابل فيسيولوجي كامل للخوف والغضب . إننا نحصل بذلك على كل الآثار المحقوية التي لمجمت عن قتل دزدومونا وجريمة القتل التي ارتكبها عطيل دون أن تتعرض لما لايسها من مضايقات .

فأجابه المراقب : نحن لانحبها . ونؤثر أن نؤدي أعمالنا مع الراحة

أتينا للموداع . ثم بدل من نغمة صوته وقال : سنرحل غداً صباحاً  
فقال برنارد : « نعم سوف نرحل غداً » . ولحظ الهمجي على وجهه دليلاً على  
الاستسلام المطلق . ثم استمر في الكلام وقد مال على كرسيه إلى الأمام ووضع  
إحدى يديه على ركبة الهمجي . قال : « وبهذه المناسبة يا جون أحب أن أذكرك  
أنني أسفت أشد الأسف لما حدث بالأمس » ثم احمر خجلاً واستمر في الحديث  
برغم تذبذب صوته . قال : ما أشد خجلي . في الحقيقة

فقاطعه الهمجي وتناول يده وضغط عليها بعطف شديد  
وعاد برنارد إلى الكلام بعد ما سكت يرهة قصيرة من الزمن . وقال : لقد  
كان هلمهلتز عجباً لي . لولاه

فاحتج عليه هلمهلتز وقال كفى ، كفى  
فساد الصمت . وبالرغم مما كان يخيم على الشبان الثلاثة من حزن . بل  
لسبب هذا الحزن نفسه ، لأن حزنهم كان دليلاً على الحب المتبادل بينهم . كانوا  
سعداء

وقال لهم الهمجي في نهاية الأمر : لقد ذهبت لمقابلة المراقب هذا الصباح  
لماذا ؟

لكي أسأله إن كان يجوز لي أن أرافقكما إلى الجزر .  
ثم سأل هلمهلتز يشغف قائلاً : وماذا قال ؟  
فهز الهمجي رأسه وقال إنه لم يسمح لي  
لماذا ؟

قال الهمجي : « قال إنه يريد أن يستمر في التجربة » ثم تهيج بغتة وقال  
ولكن لعنة الله عليّ إذا قبلت أن أبقى موضوعاً للتجارب ، لو أراد ذلك مراقبو العالم  
أجمعون . ولأرافقنكم غداً

فسأله صاحبه معاً : ولكن إلى أين ؟  
فهز الهمجي كتفيه وقال إلى أي مكان لا يهمني ذلك مادمت أستطيع أن  
أكون وحيداً

كان الطريق من جلدفورد ينحدر في اتجاه وادي واي حتى جودلمنج ومن هناك  
يسير فوق ملفورد ووتلي إلى هازليمر ثم يتجه نحو بورتسموث ماراً ببيترزفيلد  
وبحذائه تقريباً طريق آخر يصعد إلى وريلسدن وتنجهام وبتنهام وألستر  
وجريشت . وكان بين هجزباك وهندهد نقط لايفصل الطريقين عندهما أكثر من  
سنة أو سبعة كيلو مترات وكانت المسافة صغيرة لاتصلح للطائرين المهاجرين .  
وبخاصة في المساء وعندما يتناولون نصف جرام أكثر من المقرر . فكانت تقع  
الحوادث ، وبعضها خطير . فقرر أن ينحرف عن الطريق الصاعد بضعة كيلو مترات



نحو الغرب . وكان يعين اتجاه الطريق القديم بين يوتسموث ولندن أربعة فنارات هوائية مهجورة تقع بين جريشت وتجنهام . وقد بدت فوقها السموات ساكنة لا حياة فيها . وأخذت الطائرات الآن تطن وتزأر زفيراً لا ينقطع فوق سبورن وبردن وفارنهام

واختار الهمجي الفنار القديم الذي يقع فوق قمة التل بين يتنهام وألستد صومعة نه . وكان البناء مسلحاً بالحديد وفي حالة جيدة جداً . ولما طاف الهمجي بالمكان حسب . لأول نظرة . مريحاً جداً ، تتوفر فيه أسباب الترف والحضارة . ولكن خاطره هدا لما وعد نفسه بريضة نفسية شاقة يعوض بها هذا الترف ، وبتهجير كامل شامل ، وتعمد أن ينفق أولى ثياليه بالصومعة ساهراً يقطاً . فحضى ساعات طوالاً جاثياً على ركبتيه يصلي مرة للسماء التي طلب منها كلوديوس الأثم العفو ومرة بالزوني لاوناولونا ، ومرة أخرى للمسيح وبوكونج ، ومرة للتسر . وهو الحيوان الذي كان يتولى أمره . وكان يد ذراعيه الفينة بعد الفينة كأنه مصلوب ، ويبيقيهما هكذا عدة دقائق يتزايد فيها الألم تدريجاً حتى يصبح عذاباً ممضاً ترتعد له فرائصه . وهكذا صلب نفسه عامداً متطوعاً وأخذ يكرر خلال أسنانه المحكمة (والعرق يتصبب فوق وجهه) قوله : « اعف عني ! طهرني ! أعني على الخير ! » مرة بعد أخرى حتى أوشك أن يخر صريعاً من الألم .

ولما أشرق الصباح أحس بأنه اكتسب الحق في سكنى الفنار . يرغم وجود الزجاج في أكثر النوافذ ، وبالرغم من أن المنظر من الرصيف كان رائعاً . لأن السبب عينه الذي من أجله اختار الفنار كاد أن يصبح في الحال سيئاً في الذهاب إلى مكان آخر . فقد قرر من قبل أن يقطنه لأن المنظر جد جميل ، ولأنه . من ناحية منفعتة الشخصية . كان كأنه يشاهد كائنات سماوياً مجسداً . ولكن من يكون هو حتى يدل بمنظر الجمال كل يوم وكل ساعة ؟ ومن يكون هو حتى يسكن في حضرة الله المرنية ؟ إن كل ما كان يستحق أن يقطنه حظيرة حيوانات قذرة ، أو جعراً في الأرض مظلماً كانت أعضاؤه متصلة متألعة بعد ليله الطويل الأليم ، ولكنه كان لنفس هذا السبب مطمئناً في دخيلة نفسه . ويرغم ذلك تسلق حتى بلغ رصيف برجه . ثم أطل على الدنيا تشرق فيها الشمس اللامعة . الدنيا التي استرد حق سكنها . وكان يعد المنظر من الشمال حاققة هجزيك الطباشيرية الطويلة ، التي ترتفع خلف آخر طرفها الشرقي بروج ناطحات السحاب السبع التي تتألف منها جلدفورد . فلما رآها الهمجي تجهم لها . ولكنه ألغها بمرور الزمن ؛ لأنها كانت في المساء تتلألأ بصورة بهيجة في مجموعات هندسية من النجوم ، أو ينعكس عليها الضوء فتشير بجادة بأصابعها الوضادة . (بحركة لم يفهم مدلولها في المجترة حينذاك أحد غير الهمجي) نحو السماء المستوية الغامضة

وفي الوادي الذي كان يفصل هجزيك عن التل الرملي الذي يقوم فوقه الفئار كانت تقع بتنهام وهي قرية صغيرة متواضعة يبلغ ارتفاعها تسعة طوابق ، وبها أبراج لتجفيف الحشائش ، ومزرعة للدواجن ، ومصنع صغير لفيتامين . وفي الجانب الآخر من الفئار ، نحو الجنوب ، كانت الأرض تهبط في منحدرات فسيحة من نبات الخلنج حتى تبلغ سلسلة من البرك

وخلف تلك المنحدرات ، وفوق الغابات المتوسطة ، يرتفع برج ألسند ذو الطوابق الأربعة عشر . وهندسه وسليورن بقتامها في الجو الإنجليزي المكفهر تجذبان العين إلى النظر بعيداً في الزرقة التي تبعث الخيال . ولم يكن ذلك البعد وحده الذي جذب الهمجي إلى فناره ، فلقد كان القريب مغرباً كالبعيد . كانت الغابات والأراضي الفسيحة الطلقة التي ينمو فيها الخلنج والأشجار الشائكة الصفراء ، وسيقان شجر الشربين الاسكتلندي المبتورة ، والبرك اللامعة وما يعلوها من أشجار البتولا والنيلوفر ، وجقول الحلفاء . كان كل ذلك جميلاً ، وكان مذهلاً لعين تعودت جذب الصحراء الأمريكية . وكانت هناك فوق ذلك العزلة وانقضت أيام كاملة لم ير خلالها انساناً قط . وكان الفئار على بعد ربع ساعة فقط بالطائرة من برج تشيرنج ت . لكن تلؤل مالبى لم تكن أشد وحشة من مروج سري هذه . وكانت الجموع التي تترك لندن كل يوم إنما تتركها لتلعب الجولف الكهربى الممغطس أو لتلعب التنس . ولم تكن في بتنهام ملاعب للجولف ، وأقرب ملاعب تنس ريمان لها في جلفورد . فلم يكن هنا ما يجذب العين غير الزهور والمناظر الطبيعية . ولما لم يكن هناك سبب قوي للهمجي ، فقد كان المكان غير مطروق . وفي الأيام الأولى كان الهمجي يعيش وحده لا يزعجه أحد

أنفق جون على معداته أكثر المال الذي كان قد تسلمه عند أول قدومه لنفقاته الشخصية . فاشترى قبل أن يغادر لندن أربعة غطاءات من الصوف اللزج ، وحبالاً غليظة ودقيقة ، ومسامير ، وغراء ، وبضع آلات ، وكبريتاً (وإن يكن قد صمم أن يصنع مشاقب نارية في الوقت الملائم) وبضعة أوعية وأوان ، وأربعاً وعشرين ربطة من الحبوب ، وعشرة كيلو جرامات من دقيق القمح (وقد أصر ألا يحمل معه النساء الصناعي ، والدقيق المصنوع من فضلات القطن ، حتى إن كان أكثر تغذية) . ولما جاء دور البسكويت المصنوع من مجموعة إفرازات الغدد واللحم البقري الجديد المشبع بالفيتامينات لم يستطع أن يقاوم إغراء البائع . ونظر الآن إلى العلب فصب على نفسه لوماً كبيراً لضعفه . إنها من مواد المدنية الممقوتة! وصمم ألا يأكلها حتى إن أشرف على الموت من شدة الجوع . وفكر في نفسه وهو ناظم : « أن ذلك سوف يكون درساً لهم » . وسوف يكون درساً له كذلك

وعد ما له . وكان يرجو أن القليل الذي تبقى يكفيه حتى ينقضي فصل

الشتاء . ففي الربيع القادم تنتج حديقته ما يكفي استقلاله عن العالم الخارجي وحتى آنئذ سيتوفر له الصيد دائماً ، فقد رأى كثيراً من الأرانب وكانت فوق البرك طيور مائية ، وشرع يعمل في الحال كي يصنع قوساً وسهاماً

وكان إلى جوار الفناء بعض أشجار لسان العصفور ، وغابة بأسرها مليئة بشجيرات البندق المستقيمة الجميلة التي تصلح قنوات للسهام . وبدأ بقطع شجرة صغيرة من أشجار لسان العصفور وفصل ستة أقدام من السوق التي لاتتصل بها فروع ، ونزع عنها قشورها ، واحدة بعد الأخرى حتى ظهر الخشب الأبيض ، كما علمه متسما العجوز ، حتى استقام له عود يبلغ قامته طولاً ، قوي في وسطه القليل ، لين سهل الالتواء عند طرفيه الدقيقين . وأعطاه هذا العمل متعة كبيرة . فقد كان يسره كثيراً أن يؤدي عملاً يقتضي الصبر والمهارة بعد تلك الأسابيع التي قضاها في لندن خاملاً بغير عمل ، كلما أراد شيئاً ضغط على زر أو أدار مقبضاً

ولما أوشك أن يتم تشذيب العود وتسويته ، أدرك في شيء من الدهشة أنه كان يغني . نعم يغني! وكأنه دخل على نفسه فجأة من الخارج فكشفت ما كانت تعمل وأدركها وهي في حرارة الجريمة . فأحس بخطيئته وأحمر خجلاً إنه لم يأت إلى هذا المكان للمتعة والفناء وإنما أتى فراراً من التماذي في الفساد تصيبه به حياة الحضارة القدرة . أتى هنا ليتطهر ويصبح إنساناً طيباً . أتى هنا ليكفر عن أخطائه فوراً . ولشد ما كانت روعته حينما أدرك أنه . وهو منهمك في تسوية القوس . نسي ما أقسم لنفسه أن يذكر دائماً : لندا المسكينة ، وقسوته القاتلة عليها ، وتلك التوائم الكريهة ، وقد تجمعت كالقمل ولندا تفارق الحياة بصورة غامضة ، تسيئ بمحضرها الآلهة أنفسهم كما تسيئ إليه وهو في محنته وتوبته . أقسم أن يذكر ذلك ، وأقسم ألا يكف عن التكفير . وهاهو ذا منكب على تسوية قناته وهو منشرج الصدر ، ويغني

فتواري في الداخل ، وفتح صندوق الخردل ، ووضع على النار قليلاً من الماء يغليه

وبعد نصف ساعة كان ثلاثة من عمال الأرض من طراز ( - ) من إحدى مجموعات بوتنهايم البوكانوفسكية يسوقون سيارة نحو الستد ، وراهم أن رأوا على قمة التل شاباً واقفاً خارج الفناء المهجور عارياً حتى خصره ، يضرب نفسه بسوط من الحبال المعقدة ، وعلى ظهره ، خطوط أفقية حمراء ، وبين الخط والخط تسيل خيوط خفيفة من الدم . واتجه سائق السيارة نحو جانب الطريق ثم حذق هو وزميله في ذلك المنظر العجيب وهو فاغر فاه . وأخذوا يعددون الضربات واحدة بعد الأخرى . وبعد الضربة الثامنة قاطع الشاب كفارته وهرع إلى حافة الغابة واستلقى هناك يعاني ألماً ممضاً . ولما انتهى ذلك التقط السوط وبدأ يضرب نفسه من جديد

حتى تيفت الضربات على الاثنتي عشرة  
وهمس السائق قائلاً : « يا لفورد ! » وشاركه الرأي توأماء .  
وقالا : يا لفورد !

وبعد ثلاثة أيام جاء المراسلون وكأنهم طيور الباز وهي تهبط على جفة ميتة  
وانتهى الهمجي من إعداد القوس بعد ما جففه وشده فوق نار بطينة من  
الخشب الأخضر . ثم أخذ يشغل بإعداد السهام .

وكان قد سوى ثلاثين عوداً من شجر البندق وجففها وركب في أطرافها  
مسامير جادة وأعدّها إعداداً حسناً لربط حبل القوس فيها . وذات مساء أغار على  
حقل بتنهام للدواجن ، وحصل على ريش يكفي للمخزن للأسلحة بأسره . وكان  
يريش سهامه عندما أتاه أول المراسلين . فوقف المراسل خلفه وهو يرتدي حذاءه  
الهوائي فلم يحدث صوتاً

قال المراسل : عم صباحاً أيها الهمجي . أنا مندوب « راديو الساعة » .  
فوثب الهمجي على قدميه مذعوراً كأنما لدغته حية ، وبدد السهام والريش  
وآنية الغراء والفرجون أيدي سباً

فقال المراسل وقد وخزه ضميره وخزاً شديداً : « عفواً . إنني لم أقصد . »  
ومس قبعته . وهي من الألومنيوم وتشبه أنبوبة الموقد ، وكان يحمل فيها جهازه  
اللاسلكي المستقبل وأداة التحويل ، ثم قال : لاتواخذني لأنني لم أخلع قبعتي فهي  
ثقيلة نوعاً كنت أقول لك إنني مندوب « راديو الساعة »  
فسأله الهمجي وهو عابس . قال : « ماذا تريد ؟ » ورد عليه المراسل بابتسامة  
تنم عن العطف .

ومال برأسه جانباً وداعبه بابتسامته قائلاً : « إن قراءنا بالطبع يشوقهم كثيراً  
أن . يسمعونوا بضع كلمات عنك أيها الهمجي » فك سلكين مرتبطتين ببطارية  
خفيفة مشدودة إلى خصره على عجل مؤدياً بحركاته سلسلة من الطقوس . ثم وضع  
السلكين في آن واحد في جانب قبعته الألومنيومية . ومس زنبركاً في قمته فانتشر  
في الهواء كقرني الاستشعار في الحشرة ، ثم مس زنبركاً آخر في مؤخرة حافة  
القبة ، فقفز إلى الخارج كالصاروخ ميكروفون وبقي معلقاً في الفضاء يهتز على بعد  
ست بوصات من أنفه . ثم أرخى على أذنيه سماعتين ، وضغط على زر على الجانب  
الأيسر من القبة ، فصدر من الداخل صوت خافت يشبه طنين الدبور . وأدار عقدة  
على اليمين ، فقاطع الطنين أزيز السماعه وطلعتتها ، وصوت فواق وصريير مباحث .  
فقال في الميكروفون : « هلو ، هلو . » ورن داخل قبعته أحد الأجراس بفتة :  
« هل هذا هو أنت يا ادزل ؟ أنا بريمو ملن أتكلم . نعم لقد قبضت عليه . وسيتناول  
الهمجي الميكروفون الآن ويقول بضع كلمات . أليس كذلك أيها الهمجي ؟ » ورفع

بمسره نحو الهمجي وعلى شفقيه إحدى تلك الابتسامات الطافرة ، وقال : « أخبر قراءنا لماذا أتيت هنا . ما الذي حداك على الهجرة من لندن بغتة كما فعلت (استمع يا مستر ادزول) . وحدهم بالطبع عن ذلك السوط » . فذعر الهمجي ، وتعجب كيف جاءهم نيا السوط . ثم قال : نحن جميعاً شديداً الشغف بأن نعرف شيئاً عن السوط . ثم قل لنا شيئاً عن الحضارة . وأنت تعلم ما يقال في مثل هذه الموضوعات : رأيي في الفتاة المتعدنة . قل لنا كلمات قلائل جداً فأطاعه الهمجي حرفياً وهو في حيرة شديدة . وتفوه بخمس كلمات فقط ، خمس كلمات كتلك التي ذكرها لبرنارد عن كبير منشدي كانتربري حينما قال : « هاني! سونز أسو تسينا » . ثم أمسك المراسل من كتفه ودار به عدة دورات (وظهر أن الشاب مدثر دائراً مغرباً) وركله ركلة قوية محكمة كأنه بطل من أبطال المصارعة في قوته ودقته .

وبعد ثماني دقائق صدرت طبعة جديدة من « راديو الساعة » وعرضت للجميع في شوارع لندن . وجاء في عناوين الصفحة الأولى « الهمجي المجيب يرسل مراسل «راديو الساعة» في العصص . الهياج في سري»

ولما عاد المراسل إلى لندن وقرأ هذه الكلمات قال لنفسه : « الهياج في لندن ذاتها » . وكان هياجاً مؤلماً . ثم ماذا ؟ لقد جلس يتناول غداه بحرص شديد ولم يرتدع أربعة آخرون من المراسلين يمثلون نيويورك تيمز ، وحوادث فرانكفورت للأبعاد الأربعة ، ومستشار علم فورد ، ومراة (٠) ، لم يرتدعوا بما أصاب زميلهم في العصص من جرح بليغ ، فتوجهوا عصر ذلك اليوم إلى الفئار وأستقبلوا استقبالا بالغا في العنف .

وصاح ممثل «مستشار علم فورد» وهو آمن على بعد ولايزال يمسح عجزه قائلاً : يا لك من أحمق جاهل . لماذا لاتتناول السوما ؟

وهز الهمجي معصمه وقال : أغرب عني فتراجع الآخر بضع خطوات ، ثم التفت ثانية وقال : إن الشر يتلاشى لو تناولت جرامين

فقال الهمجي : كوهاكو أيا تتكيا » بنفمة التهديد والازدراء .  
- الألم وهم .

قال الهمجي : « نعم إنه » . والتقط عصا رفيعة من شجر البندق وخطا خطوات واسعة إلى الأمام .

وانطلق مندوب «مستشار علم فورد» نحو الطائرة .  
وبعدئذ بقي الهمجي آمناً لفترة من الزمن . ثم جاءت بضع طائرات وحلقت حول البرج متطلعة مستكشفة . وأطلق الهمجي سهماً صوته نحو أقرب الطائرات

وأشدها تطلعا ، فاخترق قاع الغرفة المصنوع من الألومينيم . وسمع صياحا أجش وانطلقت الطائرة مسرعة إلى أعلى في الفضاء بأقصى سرعة يستطيع أن يمدّها بها محركها الكبير . ولذا فقد حرص الآخرون فيما بعد على أن يخلقوا على بعد كاف وتجاهل الهمجي طنين الطائرات المزعج ولبث يفلح الأرض التي أراد أن تكون له حديقة . (وقد شبه نفسه في خياله بأحد خطّاب ماتسكا العذراء ، الذين يشبتون للحشرات ذات الأجنحة ولا يتزعزعون) . ولاشك أن الحشرات تمّل بعد فترة ثم تطير . وبقيت السماء فوق رأسه فارغة ساعات متواصلات ، وساكنة لاتسمع فيها غير صوت القنابر

وكان الجو حاراً لا يكاد يتنفس المرء فيه . وأرعد الهواء . وقد فلق الحديقة طول الصباح ، وكان الآن يستريح . متمطياً فوق الأرض ثم مثلث ذكرى ليننا حية أمام ناظره فجأة ، وتصورها عارية تلمس وهي تقول : « حبيبي ! » وتقول : « طوقني بذراعيك ! » . وهي معطرة ترتدي الحذاء والجوارب . يا لها من عاهرة وقحة ! ولكنه ذكر ذراعيها تطوق بهما عنقه . وذكر ارتفاع ثدييها ، وذكر فمها ! إن الخلود في شفاهنا وعيوننا . ليننا كلا ، كلا ، كلا ! ثم نهض على قدميه وخرج من البيت يعدو وهو نصف عار . وكانت عند حافة حقول الخننج مجموعة من شجيرات العرعر البيضاء . فارقمى عندها ، وعانق ملء ذراعيه من الأشواك الخضراء ، بدلاً من أن يعانق الجسم الناعم الذي يشتهي . ووخزته الأشواك المدببة في ألف موضع . وحاول أن يتذكر لننا المسكينة ، وهي منقطعة الأنفاس بكما ، ويدها مقبوضتان ، وفي عينيها فزع شديد . لننا المسكينة التي أقسم أن يتذكرها وما برحت صورة لننا تلازمه . ليننا التي وعد أن ينساها . وقد أحس بوجودها ، وكانت حقيقة لا مفر منها حتى من خلال طعنات أشواك العرعر ووخزاته التي جعلت لحمه يجفل ويفزع . « ما أحلى هذا ، ما أحلاه . . وإن أردتني أيضاً فلماذا . . »

وكان السوط معلقاً على مسمار بجانب الباب ، قريب المنال إذا جاءه المراسلون . وفي نوبة جنون كره الهمجي عائداً إلى البيت ، وأمسك به ، وأداره في يده . وألمت الحبال المعقدة لحمه ألماً شديداً

وعند كل ضربة كان يصيح : « عاهرة ! عاهرة ! » كأنها ليننا (وكم كان يتمنى أن تكون ، دون أن يعلم بذلك) ، كأنها ليننا البيضاء الحارة المعطرة المفصوحة التي كان يلهبها . « يا لها من عاهرة ! » ثم قال بصوت اليانيس : أي لننا . سامحيني أعف عني يا إلهي . أنا سيئ ، أنا شرير ، أنا كلا ، كلا . أيتها العاهرة ! » وكان داروين بونابرت أعظم المصورين الخبراء في شركة الصور المحسنة يرقب كل ما كان يجري من مخبئه في الغابة الذي أحكم تشييده على بعد ثلاثمئة متر

وقد لقي جزاء صبره ومهارته . أنفق ثلاثة أيام جالساً داخل جذع إحدى أشجار البلوط الصناعية ، وثلاث ليال يزحف على بطنه فوق الخننج ، يخفي الميكروفونات في الشجيرات الشائكة ، ويدفن الأسلاك في الرمال الناعمة الرمادية . ففضى اثنتين وسبعين ساعة في تعب شديد . والآن واثته اللحظة الكبرى . كان يحسبها أعظم لحظة في حياته . وقد طرأت له هذه الفكرة على مهل وهو يتحرك بين آلاته . أعظم لحظة منذ تصويره المجسم لعرس الفورلا . تلك الصورة المجسمة الشهيرة الصارخة . فقال لنفسه عندما بدأ الهمجي عمله العجيب : « عظيم ، عظيم » . و صوب آلات التصوير المقرية نحوه بعناية ، وجعلها تلازم هدفها المتحرك . وتعلق بقوة كبرى كي يصور وجه الهمجي المتعوه الشائه « يا للعجب ! » وتحرك ببطء نحو نصف دقيقة (وقد تعبشم أن يحصل على صورة مثيرة للضحك) ، ثم أصفى في أثناء ذلك للضربات والأنات وللهديان الوحشي وهي تُسجل في الشريط الصوتي عند طرف قلمه ، وجرب أثر المبالغة القليلة (وكان ذلك من غير شك تحسناً ملموساً) . وسره أن يسمع . في فترة من الهدوء . غناء القنبرة المرتفع . وتمنى أن يلتفت الهمجي حتى يستطيع أن يصور الدماء التي كانت على ظهره . وفي الحال لحسن حظه العجيب) جاد الهمجي بالتفاتة واستطاع أن يصوره صورة دقيقة .

ولما انتهى كل شيء قال لنفسه : « كان ذلك أمراً عظيماً حقاً ! » ومسح وجهه . وكان يأمل أن تظهر الصور عند عرضها في دار الصور بمظهر رائع . إنها سوف تبلغ من الجودة . في رأي داروين بونابرت . « مبلغ حياة الحب عند القيّطس » . وتالله إن هذا لنجاح باهر !

وبعد اثني عشر يوماً أخرجت قصة « الهمجي في سري » وأمكن للناس رؤيتها وسماعها والاحساس بها في كل دار ممتازة للصور المحسنة في غرب أوربا وكان تأثير فلم داروين بونابرت مباشراً وعظيماً . ففي عصر اليوم التالي لإخراجه ، حُلقت مجموعة من الطائرات فوق رأس جون فقطعت عليه عزلته الخلوية فجأة

وكان يفلح حديثه ، ويفلح كذلك ذهنه مقلباً مادة فكره بهمة ونشاط . فكر في الموت ، وهوى بفأسه مرة ثانية ، ثم ثالثة ، ثم رابعة . إن كل أيامنا السوالف قد أنارت للحمقى الطريق التي تؤدي إلى الموت في التراب . وجلجل الرعد القاصف خلال هذه الكلمات وهي تجول بخاطرهم . ثم هوى بالفأس في التراب مرة أخرى . لماذا ماتت لندا ؟ لماذا سُمح لها أن تقل تدريجاً عن الإنسان ، وأخيراً . لقد ارتعدت فرائضه . إنها جيفة تحسن التقبيل . ثم وضع قدمه فوق الفأس وضغط عليه بشدة في الأرض القوية . إننا عند الآلهة كالذباب عند الأولاد الطائشين<sup>(١)</sup> ، إنهم يتلهون بقتلنا . ثم قصف الرعد ثانية . إنها كلمات تزعم لنفسها الصدق ، بل

أصدق من الصدق.. وقد قتل جليستور عينه عن الآلهة إنها رحيمة في كل حين<sup>(١)</sup> وفوق ذلك فإن خير أوقات الراحة هو النوم ، وفذلك ما تدعيه في أغلب الأحيان ، ومع ذلك فأنت تخشى أشد ما تخشى الموت وهو لا يزيد عن النوم في شيء ، إنه النوم ، وربما ملازمه الخلق الجصيل.. ووقع فلسفه على حجر ، فتوقف عن العمل كي يلتقطه.. وتتساءل أي أحلام تلك التي في نوم الموت.. ؟ وأصبح طنين الطائرات المحلقة فوق رأسه زئيراً.. والفني نفسه في الظل بخته ، فقد كان هناك شيء يحول بينه وبين الشمس.. ورفع بصره إلى أعلى مدعوراً وشبه من فلاحته ومن أفكاره رفع بصره متحيراً مذهولاً.. وما برح ذهنه يسبح في ذلك العالم الآخر الأصدق من الصدق.. وما فتئ مركزاً في محيط الموت والآلهة القسيح.. رفع بصره قرأى قريباً منه مجموعة الطائرات المحلقة.. وقد أقيمت كالجراد ، ثم بقيت معلقة مترنة ، ثم هبط حوله فوق الخنجر من جميع الجهات وخرج من بطون هذه الجنادب الضخمة رجال يرتدون القاذرة اللزجة.. وساء يرتدين البيجامات الحمضية الحقيقية (لأن الجو كان حاراً) أو سراويل المخضل القصيرة ، والقمصان التي بغير أكمام ، نصف المفتوحة وخرج من كل طائرة زوج.. وبعد بضع دقائق تجمع منهم عشرات ، ووقفوا في حلقة واسعة حول الفنار ، يحلمون ويضحكون ، مطلقين بألات التصوير ، يرمون له.. كأنه قرد.. القوق وحزماً من لبان الهرمونات الجنسية وزيد إقرازمات الغدد جميعاً وأخذ عددهم يتزايد كل لحظة ، وتدفق منهم تيار لا يتقطع عبر هجزيك.. وأصبحت أحادهم عشرات.. وعشراتهم مئات.. وكأنه في حلم مغزق مريع وتراجع الهمجي متخفياً.. ووقف وقفة الحيوان الآمن المطمئن ، ظهره مستند إلى الفنار.. ينقل بصره من وجهه إلى وجه وهو في فزع لا ينطق بكلمة كأنه رجل فاقد الإرشد

وأيقظته من هذه القوة زيادة إحساسه المباشر بالحقيقة عندما التصقت بخره ربطة من اللبان أحكم تصويريها وقد أذهله الألم فاهتزت له أعصابه ، فتشبط يقطلة شديدة وثار غاضباً

وصاح قائلاً : ابعدوا!

لقد نطق القرد ، فانجبروا ضاحكين مصنفين ، وقالوا : «مرحباً بك أيها الهمجي العزيز» وسبح صياحهم : «السوط ، السوط» من خلال الجلبة واللفظ وعمل الهمجي بما أوحى به هذه الإشارة فأمسك بطاقة الحبال المعقدة من المسار الذي كان خلف الباب ، وهزها أمام معذبيه..

وكانت هناك حيحة تدل على الاستحسان التكملي

وتقدم نحوهم مهدداً إياهم ، فصاحت إحدى النسوة في جزع شديد وتدخل الصف في الموضع الذي تعرض للتهديد المباشر ، ثم استقام ثانية ، وثبت



الواقفون . وقد اكتسب هؤلاء المتفرجون من إحساسهم بالقوة الساحقة شجاعة لم يتوقعها منهم الهمجي . فذعر ووقف ساكناً ثم تلفت حواليه .

وقال : « لماذا لا تركونني وحدي ؟ » وكانت في غضبه نفمة تتم عن الشكاية وقال له الرجل الذي لو تقدم الهمجي لكان أول من يهاجم : « خذ قليلاً من اللوز المملح بالمغنزيوم » وقدم له ربطة قائلاً : « إنها فعلاً حسنة جداً » . وابتسم ابتسامة استعطاف عصبية . ثم قال : وأملاح المغنزيوم تعينك على الاحتفاظ بالشباب .

وتجاهل الهمجي ما عُرض عليه وسأل قائلاً : « ماذا تريدون بي ؟ » متلفتاً من وجه عابس إلى آخر ، ماذا تريدون بي ؟

فأجابه مائة صوت مختلطة : السوط . اعرض علينا كيف تضرب نفسك بالسوط ، ودعنا نشاهدك

وصاحت شرذمة عند طرف الصف وقالوا بصوت واحد وينفمة بطينة ثقيلة : نحن - نريد - السوط .

وأخذ عنهم آخرون هذه الصيحة في الحال ، وكرروا هذه العبارة كاللبغاوات مرة بعد أخرى . وأخذ صوتههم يسخم تدريجاً حتى كان التردد السابع أو الثامن لم ينطق أحد بكلمة أخرى غير : « نحن - نريد - السوط »

وكانوا جميعاً يصيحون بصوت واحد . وربما ظلوا كذلك ساعات لا نهاية لها وقد أسكرهم الضجيج والإجماع والإحساس بالتفكير الموسيقي النغم . وعندما كرروا العبارة للمرة الخامسة والعشرين تقريباً كفوا عن الصياح مذعورين ، ذلك أن طائفة أخرى وصلت من هجزيك ، وحلقت متزنة فوق الجمهور الحاشد ، ثم أسقطت في الفضاء بين صف المتفرجين والفنار ، على بعد أذرع قليلة من موقف الهمجي وتلاشى الصياح لحظة وسط زئير اللوالب الهوائية . ولما لمست الطائرة الأرض وأوقفت المحركات انفجر الجميع مرة أخرى بصوت واحد مرتفع مبشرين كما كانوا من قبل . قالوا : « نحن - نريد - السوط »

وفتح باب الطائرة وخرج منها أولاً شاب أبيض اللون متورد الوجه وعقبته شابة في سروال قصير من المخمل وقميص أبيض وقبعة راكب خيل السباق وذعر الهمجي لمراى الشابة وانكمش وشحب لونه

ووقفت الشابة مبتسمة له ابتسامة تردد والتماس بل وذلة . وانقضت بضعة ثوان تحركت بعدها شفتاها ونطقت ببضعة ألفاظ . ولكن صوتها تلاشى وسط صياح المتفرجين المتكرر المرتفع .

نحن - نريد - السوط ! نحن - نريد - السوط !

وضففت الشابة بكلمات يديها على جانبها الأيسر ، وظهرت على وجهها

الخوخي اللون الذي يشبه في جماله جمال الدمى ملامح غريبة متناقضة تدل على الغم والاهتمام . وكأن عينيها الزرقاوين قد زادت اتساعاً وبريقاً . وانحدرت على خديها فجأة دمعتان . وتحدث مرة أخرى حديثاً غير مسموع . ثم مدت ذراعيها نحو الهمجي بحركة سريعة عاطفية . وتقدمت إلى الأمام

نحن نريد - السوط! نحن - نريد

وأجيبوا فجأة إلى ما طلبوا

«عاهرة!» واندفع الهمجي نحوها كالمجنون . «يا لك من هرة وحشية»

وشرع كالمجنون يضربها بسوطه المصنوع من الجبال الصغيرة

فجزعت وأرادت الفرار ، ولكنها تعثرت وسقطت فوق الخلنج . وصاحت

«هنري ، هنري!» . لكن زميلها المتورد كان قد فر من وجه الأذى خلف الطائرة

وانشطر عقد الصف هاتفين بصيحات تنم عن السرور والاضطراب . وخطوا

جميعاً متجمعين في نقطة واحدة كان مركزاً مغناطيسياً يجذبهم . لقد كان الألم

فزعاً يأخذ الألباب

وجن الهمجي وضرب بسوطه ثانية وهو يقول : يا لك من عاهرة فاجرة!

وتجمعوا مشغوفين ، وهم يتدافعون ويزحفون كأنهم الخنازير حول حوض

العلف

وضغط الهمجي على أسنانه وقال : «تباً للحم! اقتله ، اقتله!» ونزل السوط

على منكبيه هذه المرة

وجذب المشاهدين الجزع من الألم الذي يأخذ بالألباب ، ودفعتهم من الباطن

عادة التعاون والشغف بالإجماع والتكفير الذي ثبتته في نفوسهم ثبوتاً ملازماً

طريقة تكييفهم . فبدؤوا يقلدون حركاته الجنونية ، يضرب أحدهم الآخر كلما

ضرب الهمجي بدنه العاصي أو ذلك الجسم البدين الذي يتجسد فيه الدنس ، والذي

كان يتلوى فوق الخلنج عند قدميه

واستمر الهمجي يصيح : أقتله ، أقتله

ثم بدأ أحد الأشخاص فجأة يغني «شولم ، شولم» وبعد لحظة ردد الجميع

هذه العبارة ، وبدؤوا يرقصون وهم يغنون ولبثوا يدورون دورة بعد أخرى مرددين :

«شولم ، شولم» يضرب أحدهم الآخر ضربات موزونة «شولم ، شولم»

ولم ترحل آخر طائرة إلا بعد منتصف الليل . واستلقى الهمجي فوق الخلنج

ونام بعد ما أذهلته السوما وأنهكه الانهماك الطويل في جنون المتع الحسية . ولم

يستيقظ إلا بعدما ارتفعت الشمس في السماء فاستلقى لحظة يطرف بصره في

الضوء وكأنه بومة لا يفقه شيئاً . ثم تذكر فجأة كل شيء

فستر عينيه بيده وقال : إلهي ، إلهي!

كان سرب الطائرات التي جاءت تنز عبر هجزباك ذلك المساء كالسحابة المظلمة ، يمتد على طول عشرة كيلومترات . وذكرت الصحف جميعاً وصف صلاة التكفير التي تمت في المساء السابق .

ونادى الأشخاص الذين وصلوا أولاً وهم ينزلون من الطائرة قائلين : أيها الهمجي! أيها الهمجي!

ولم يظفروا بجواب

وكان باب الفئار على مصراعيه . فاقتحموه ودخلوه في ضوء 'كالشفق تحجبه النوافذ . واستطاعوا من خلال قبو في الجانب الآخر من الغرفة أن يروا قاع سلم يؤدي إلى الطوابق العليا . وتحت قمة القبو تماماً تدلت قدمان

. أيها الهمجي

واتجهت القدمان ببطء شديد جداً . كأنهما إبرتا بوصلة تسييران على مهل . ميمناً ، فشمالاً ، فناحية الشمال الشرقي ، فشرقياً ، فناحية الجنوب الشرقي فجنوباً ، فناحية الجنوب الغربي . ثم توقفتا . وبعد بضع ثوان اتجهتا عائدتين على مهل كذلك يساراً ، ثم إلى ناحية الجنوب الغربي ، فالجنوب ، فالجنوب الشرقي ، فالشرق

# منتدى اقرأ الثقافي

[www.iqra.ahlamontada.com](http://www.iqra.ahlamontada.com)